مطابع الفباء - الأديب
دمشق

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

[illegible]

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

دراســات ســريانيــة

جميـــع حقــوق الطبــع محفوظــة

٢٠٠٠/١٢/١٩٨٦

الطبعــة الأولــى

الناشــر : بطريركية الســريان الأرثوذكس

مطابع ألف باء ــ الأديب ــ دمشق

تصميم الغلاف : أكرم أفدار

دراسات سريانية

مقالات

دينيّة - أدبيّة - كنسيّة

ܡܐܡܪ̈ܐ ܣܘܪ̈ܝܝܐ

بقلم:

المطران اسحق ساكا

المعاون البطريركي للسريان الأرثوذكس

دمشق - ١٩٨٦

المقدمة

هذه مواضيع وأبحاث دينية وأدبية واجتماعية، مستقاة من التراث السرياني العريق ، ومستمدة من الفكر الآرامي الخالد · كنت قد نشرتها في المجلة البطريركية السريانية الأنطاكية الصادرة في دمشق كما سأشير الى ذلك في محله · وقد آثرت أن أجمعها في هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارىء العزيز ، ودعوته ب « دراسات سريانية » ·

الأمل أن يلقى لدى القراء قبولاً حسنا · وعلى الله الاتكال ·

دمشق ٦/١٠/١٩٨٦

المؤلف

الأبحـــاث الدينيـــة

١ ـ الملائكـة القديسـون :

المجلة البطريركية دمشـق ـ مجلد ١٢ الأعـداد ١١٢ ـ ١٢٠
السنة ١٩٧٤ والمجلد ١٣ الأعداد ١٢١ ـ ١٢٢ السنة ١٩٧٥ ٠

٢ ـ الملائكـة الأشـرار :

(الأبالسة) ينشر لأول مرة ٠

٣ ـ الفـردوس الأرضـي :

المجلة البطريركية ـ دمشـق ـ المجلـد ١٥ ، السـنة ١٩٧٧ ،
الأعداد ١٤٤ ـ ١٤٨ ٠

٤ ـ روحانية العهد القديم :

المجلة البطريركية ـ دمشق ، المجلد ٢ السنة ١٩٦٣ ، العدد ١٣
من ١٢٤ ـ ١٢٨ ٠

٥ ـ اليـوم السـابـع :

المجلة البطريركية ـ دمشق ـ المجلد ٢ ، السنة ١٩٦٤ العدد ١٦
ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦ ٠

٦ ـ منـديـل المسـيح :

المجلة البطريركية ـ دمشق ـ المجلد ٩ السنة ١٩٧١ ، العدد ٨٣
ص ١٣٧ ـ ١٤٣ والعدد ٨٤ ص ١٩٩ ـ ٢٠٥ ٠

في الملائكة القديسين

الفصل الأول

وجودهم

ان الاعتقاد بوجود الملائكة أمر فطري يستوجبه العقل البشري مهما كانت نزعته ، بداهة • ويدعمه المنطق أي دعم قياساً وبرهاناً • فقد أجمعت على ذلك الشعوب المتقدمة والمتأخرة قاطبة • وأعلنته الأديان حقيقة واضحة • وافترضته الفلسفة ضرورة •

نحن البشر لا نستطيع اقامة الأدلة على وجود الملائكة بواسطة الحواس، لأنهم أرواح محضة منزهة عن المادة والتركيب ، انما نتوصل الى ذلك عن طريق التأمل ليس الا •

قال ثاودورس بركوني العالم النسطوري في كتابه الموسوم بالاسكوليون « نستطيع أن نبرهن على وجود الكائنات المادية بواسطة الحواس ، وندرك وجود الله بالايمان ، ونتوصل الى معرفة وجود الكائنات الروحية بالتأمل الذهني » •

وهكذا نرى علماءنا السريان يتخذون من الوحي البرهان الرئيسي القاطع لاثبات وجود الملائكة ثم تأتي براهينهم الأخرى في أبحاثهم الطويلة براهين فرعية مبنية على التأمل والمنطق • فان العالمين الكبيرين مار سويريوس موسى بن كيفا مطوان الموصل ٩٠٣ + ومار غريغوريوس ابن العبري مفريان المشرق ١٢٨٦ + يعتبران ذلك ضرورة حتمية وأمراً واجباً لازباً • ولكل منهما في الموضوع طريقته الخاصة وأسلوب يختلف عن الآخر • فمار موسى بن كيفا يجنح الى البراهين اللاهوتية والنقلية فيعطها المقام الأول ، فيجعل من « كمال الله الخالق » الاس الراسخ الذي يشيِّد عليه شوامخ براهينه ويقيم صروح أدلته ، فيفترض لهذا الكمال وجود خليقة كاملة بقوله « الله كامل ومن كان كاملا يبدع خليقة كاملة ، لأنه لو أبدع خليقة ناقصة غير كاملة لوجد هو أيضاً ناقصاً وغير كامل ، وهذا محال ، اذن أبدع الله خليقة كاملة » •

وبعد أن ينتهي من وضع هذا الأساس الراسخ لبحثه يعود فيشيِّد عليه براهينه وأدلته فيتناول موضوع « الخليقة الكاملة » شرحاً وايضاحاً وهي في نظره تقوم على ما يلي :

أولا ــ الكائنات والتسبيح لله ·

ثانياً ــ وجود جوهرين في الانسان النفس والجسد ·

ثالثاً ــ تفاوت قوة الادراك في الكائنات ·

فيقول في البرهان الأول « الخليقة الكاملة ثلاثة أنواع ، نوع لا يعرف الله أبداً ولا يسبِّحه مطلقاً كالجماد والحيوان ·

ونوع ثان يسبِّحه حيناً وحيناً لا وهو الانسان ·

فلكي تكون خليقة الله كاملة لابد من وجود نوع ثالث يسبِّح الله بلا فتور وهؤلاء هم « الملائكة » ·

وأما البرهانان الثاني والثالث فقد اقتبسهما العلامة ابن العبري وصاغهما بشكل جديد ، وسكبهما بقالب منطقي رائع سنقف عليهما بعد قليل ·

ثم يعود ابن كيفا فيجعل وجودهم أمراً ضرورياً يفرضه الوحي ، فيورد أقوالا ونصوصاً من العهدين منها « ورأى يعقوب حلماً واذا سلَّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها » (تك ٢٨ : ١٢) « وأما يعقوب فمضى في طريقه ولاقاه ملائكة الله » (تك ٣٢ : ١) وقد ظهر الملائكة بشكل بشري لهاجر (تك ١٦ : ٧) ولابراهيم (تك ١٨ : ١) ولوط (تك ١٩ : ١) ·

و « كان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب » (أي ١ : ٦ ·)

و « عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله » (أي ٢٨ : ٧) ·

وفي العهد الجديد نصوص عديدة صريحة كما يبدو لكل مطَّلع · وقد ظهر الملائكة لزكريا (لو ١ : ١١ والعذراء (لو ١ : ٢٧) ويوسف (متى ١ : ٢٠) والرعاة (لو ٢ : ٩) وعلى قبر المسيح (مت ٢٨ :٢) الخ·

أما العلامة ابن العبري فلاثبات ذلك ــ يفرغ كل جهوده العقلية ــ ويضع جميع طاقاته التفكيرية والمنطقية ــ هذا بالاضافة الى شهادة الوحي فيؤيد وجودهم بثلاث طرق :

الطريقــة الأولى :

يجعل وجودهم ضرورة عقلية ، فيورد لذلك أربعة براهين قويةواضحة.

أولا : ان الشيء الممكن الوجود ، اما أن يكون واجب الوجود من ذاته وهو الله سبحانه وتعالى ، أو يكون ممكن الوجود من ذاته وهذا اما أن يكون جسماً أو حالاً في جسم • فالأول يعرف الانسان وجوده ضرورة ، ومثلــه الثاني الذي هو العرض ، أما الثالث فيكون اما مرتبطاً بجسم آلي ومتحــداً معه اتحاداً طبيعياً اقنومياً كالنفس العاقلة أو ليس كذلك ، وهذا اما يكون صالحاً ويدعى ملاكاً أو طالحاً ويدعى شــيطاناً ، وحيث ان في جميع هــذه الأقسام لا شيء غير ممكن الوجــود ، وحيث أن جوهر الملائكــة أحد هــذه الأقسام ، فوجوده ممكن •

ثانياً : ان كل شيء اما أن يكون صالحاً بكليته أو طالحاً بكليته ، واما أن يكون الصلاح فيه غالباً للشر ، أو الشر غالبــاً للصلاح ، أو أن يكــون خيره وشره متساويين • فالأول هو الله جل شأنه ، والثاني غير موجود لأن الله لم يخلق شيئاً هو شر محض ، والثالث هم الملائكة ، والرابع هم الشياطين ، والخامس هو الانسان • ولما كان الانسان الذي يتساوي فيه الخير والشر ، موجوداً ، وجب أيضاً أن يكون الملاك الذي يغلب فيه الخير على الشر موجوداً من الله الصالح ، والا لوجد الله الصالح يحجب صلاحه وهذا محال » •

ثالثاً : يتألف الانسان من جوهرين مادي وروحي • وبمــا ان لجوهره المادي جواهر مماثلة كالحيوانات والنباتات والعناصر الجامدة ، فالضرورة تفرض اذاً وجود جواهر أخــرى مماثلة لجوهــره الروحي أيضاً وهــؤلاء هم الملائــكة •

رابعاً : بعض الكائنات الحية تنعدم فيها كلياً معرفة التمييز ما بــين الحق والكذب كالحيوانات غــير الناطقــة ، وبعضها تملــك تلك المعرفــة وبواسطتها تميز ما بين الأمرين ، كالبشر • وهنا تقضي الضرورة الحتمية أيضاً وجود خليقة أخرى تميز الحق عن الكذب بدون الادراك وهؤلاء هــم الملائكة • لأنه حيث وجد وسيط فمن الضرورة أن يكون هناك طرفان • وبما أن الانسان وسيط ويحوي أحد الطرفين أي ما للحيوانات غير الناطقة ، فليزم أن يكون له طرف آخر أفضل منه وهم الملائكة العاقلون اطلاقاً ، بعكس الحيوانات غير العاقلة التي لا تشترك في النطق بتاتاً وهي أحط من الانسان.

الطريقــة الثانيــة :

الوحي كما أوردها موسى بن كيفا •

الطريقـة الثالثـة

استعراض اعتراضات ناكري وجود الملائكة ونقضها :

الاعتراض الأول : ان الله سبحانه وتعـالى ليس بجسم ولا بعـرض ولا بجوهر مرتبط بأجسام كالنفس العاقلة ، لذلك فان وجد هناك جوهـر آخر يشترك بخواص طبع الله أي الملائكة فينتج من هذا ان الله يشترك مـع أدنى منه بالطبع وذلك محال ، لأن هذا يفترض اما أن يكون الخالق ممكن الوجود من الغير كالملاك أو أن يكون الملاك واجب الوجود من ذاته كالخالق ، أو بعبارة أخرى (كما جاء في كتابه الأشعة) اما أن يكون المـلاك خالقاً أو الخالق ملاكاً ، وكل هذا محال ٠

الاعتراض الثاني : ارتـأى قسم كبير من العلمـاء ان خلقة الملائكـة سابقة لخلقة السماء والأرض وسائر الكائنـات المادية ٠ واذا كـان ذلك كذلك ، فيلزم القول انهم لم يُخلقوا في زمـان ٠ لأن الزمان هو مقيـاس لحركة سماويـة ٠ وحيث لم يكن بعد سماء فلـم يكن حركة أيضـاً وحيث لا حركة فلا زمان ٠ لذلك فان كان للملائكة وجود فلا فرق من ثم بينهم وبين الخالق ، لا في الزمان ولا في المكان ولا في الوجود ولا في العدم ولا في الجسمية ، لأن الله أيضاً ليس بجسم ٠ ومن هنا يلزم اما أن يكـون لله الخالق طبيعـة ملائكية ، أو أن يكون للملائكة طبيعة الهية ، وكلا الأمرين محال ٠ وبما ان الاعتقاد بوجود الملائكة يؤدي الى هذه الشوائب المعيبة ، لذلك فلا وجـود حقيقي للملائكـة ٠

الرد على الاعتراض الأول :

ان قولنا ان الملاك ليس جسماً ولا عرضـاً ولا جوهراً مرتبطـاً بجسم أنواع اضافية ٠ وان اشتراك شيئين في صفة سلبية واحدة أو متعددة لايحتم اشتراكها بالطبيعة أو بأشياء جوهرية أخـرى ، والا لكان الأبيض أسـود والأسود أبيض لاشتراكهما في صفة نفي الاحمرار عنهما ، وعلى هذا الشكل يقال الأمر عن الله جلّ جلاله والملائكة أيضـاً ، اذ ان اشتراك الطرفـين في بعض الصفات السلبية كعدم الجسمية وعـدم العرضية ، وعدم الارتبـاط بجسم ، لا يجعل أحدهما الآخر ٠ وكما قيل عن السلب يقال عن الايجـاب أيضاً فان اشتراك شيئين ببعض الصفات الايجابية لا يجعل أحدهما الآخر ٠ مثال ذلك ان الانسان والفرس يشتركان في الجنسية الحيوانية ، ولكن مـع ذلك فليس الفرس انساناً ولا الانسان فرساً ، لذا لا يمكن استخراج قضية موجبة من قضيتين سالبتين كما ينص علم المنطق ٠

الرد على الاعتراض الثاني :

ان هذا الاعتراض يحوي ما حواه الاعتراض الأول ، لذلك نضيف على ما أوردناه في ردنا على الاعتراض الأول قولنا ان الله يتميز عن الملائكة بكونه واجب الوجود من ذاته . اما الملائكة فهم ممكنو الوجود أوجدهم الله تعالى .

وتعميما للفائدة يذيّل ابن العبري بحثه هذا بايراد سبعة براهين منطقية للفلاسفة غير المسيحيين كالفارابي وابن سينا دون أن يصرّح بأسمائهم ، الا ان العمدة في الموضوع هي براهينه المنطقية المذكورة الى جانب الوحي .

★ ★ ★

الفصـــل الثاني

زمـــــن خلقتهـــــم

لآباء الكنيســة وأئمتهـا القدامى رأيان مختلفـان بشأن تعيين زمـن خلقـة الملائكـة ٠

فقـد ارتأى مـار غريغوريوس التاولوغـوس ٠ ومـار غريغوريوس النوسي٠ والقديس ايوانيس الذهبي الفم٠ ويوحنا البصري٠ ومار يعقوب الرهاوي ٠ ان الملائكة خلقـوا قبـل سائر الكائنـات المحسوسة والماديـة مستندين في ذلك الى بعض أقوال الكتاب أشهرها :

« فاني أسألك فتعلمني أين كنت حين أسست الأرض ، أخبر ان كان عندك فهم من فصل قياسها لأنك تعلم أو من مدّ عليها مطماراً على أي شيء قررت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبـح معاً وهتف جميع بني الله » (اي ٣٨ : ٣ ـ ٧) ٠

فيقولون ان النص يعلن صراحة ان « بني الله » كانوا موجودين عندما أسس الرب الأرض ٠ وان المراد ببني الله هو الملائكـة ٠ فيكون اذن وجـود الملائكة سابقاً لوجود الكائنات الأخرى★ ٠

أما مار أفـرام السرياني ، ومـار يعقـوب السروجي ، وأبيفانيوس أسقف قبرس فذهبوا خلاف ذلك وقالوا انهم خلقوا مع المخلوقات الماديـة مستندين الى ما جاء في مطلع سفر التكوين قوله :

« في البدء خلق الله السموات والأرض » (تك ١ : ١) ٠

فيعتقدون بأن السماء هنا تشير الى الملائكة والأرض الى المحسوسات برمتهـا ٠

★ ذهب بعض اللاهوتيين المتأخرين الى ان الملائكة خلقوا بعد الانسان ودليلهم ان الله لما أبدع الكائنات الأرضية ابتدأ من الأدنى الى الأعلى الى أن أوجد الانسان ثم تقدم بعد ذلك الى ما هـو أعلى منه فخلق الملائكة وهذا رأي ضعيف جدا لا بل يخالف نص الكتاب الذي يثبت وجود الملائكـة في السماء قبل وجود البشر على الأرض تك ٣ : ١ الى ٧ وأي ٣٨ : ٣ ـ ٧ ٠

وقد أخذ الملفانان مار موسى بن كيفا ـ وابن العبري بالرأي الأول واستصوباه وأيداه بجملة براهين ·

من جملة البراهين التي أوردها موسى بن كيفا :

١ ـ قول الكتاب الآنف الذكر (اي ٣٨ : ٣ ـ ٧) ·

٢ ـ من النظرية اللاهوتية القائلة ان هذا العالم خلق من أجل آدم ـ وآدم خلق ليملأ الفراغ الذي حصل في السماء بسبب سقوط الشيطان · فيستدل من هنا على أن خلقة الملائكة سبقت آدم والعالم ·

أما العلامة ابن العبري فهو أقوى من مار موسى بن كيفا · وأشد حجة · فبالرغم من اقتباسه براهينه فانه يجدها ضعيفة لا تفي بالغرض · لذلك يلجأ الى براهين منطقية قوية منها :

١ ـ بما ان الملائكة جواهر روحية بسيطة منزهة عن المادة والتركيب فهي أقرب الى الطبع الالهي من الجواهر المادية ·

وبما ان الطبع الالهي سابق للمخلوقات المحسوسة فتكون خلقة الملائكة أيضاً قد سبقت المخلوقات المحسوسة ضرورة ·

٢ ـ الملائكة هم خدام الله كما يخبرنا الكتاب المقدس ـ فكما ان الطبع الالهي سابق للمخلوقات المرئية ، وجب لزوماً أن تكون خلقة خدامه أيضاً سابقة لها ·

٣ ـ ان الآباء الذين اعتنقوا الرأي الأول أطول باعاً وأكثر اطلاعاً على النظريات اللاهوتية من أهل الرأي الثاني ـ فقد جاءت براهينهم وأدلتهم مبنية على المنطق بينما يميل أهل الرأي الثاني الى الحدس والتخمين لذا يجب الأخذ بالرأي الأول والركون اليه ·

ولا يكتفي العلامة ابن العبري بالوقوف عند هذا الحد بل يتخطاه الى أبعد من ذلك ـ انه يستعرض بعض الأدلة التي يستند اليها أهل الرأي الثاني ويظهر مواطن الضعف فيها من ذلك قول الكتاب « بكلمة الرب صُنعت السموات وبنسمة فيه كل جندها » ·

فيستنتج القائلون بالرأي الثاني ، من هذا ، انه لو كانت خلقة الملائكة سابقة للسماء لما جاء ذكرهم بعد السماء ·

فيرد ابن العبري على هذا بقوله :

ان الكتاب يشير هنا الى السماء الروحي لا المادي · وحتى اذا فرضنا أنه سماء مادي ــ فما المانع من أن يكون قصد الكتاب تعليم البشر عن خلقة الكائنات الروحية بواسطة الكائنات المادية ·

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لو كان النص يشير الى الأسبقية والتأخير فعلا لوجب أن تكون خلقة الملائكة بعد السماء فوراً بحسب منطوقه ·

٤ ــ ان الزمان ناتج عن حركة الأجرام السماوية · فلو كانت خلقة الملائكة تابعة لخلقة السماء لوجدوا غير زمنيين ومن كان غير زمني فهو آزلي كالله · اذن الملائكة أزليون أيضاً كالله وهذا محال · ويرد على هـذا أيضاً بقوله : أن الأسبقية والالحـاق لا تؤدي الى الخضوع للزمـان بالحصر · والا لكانت أجزاء الزمن بالذات سابقة لفترات ولاحقـة لفترات أخرى وبالتالي يفترض لكل زمان زمان وهكذا دواليك ··· وهذا محال · وهكذا يقال أيضاً أن وجود الملائكة ليس أزلياً كوجود الله تعالى لكنه محدث ·

وان وجود الله الأزلي ووجود الملائكة المحدث لا يتنافيان ولئن لم يكن هناك زمان كما أثبتنا · وأخيراً : قد يظهر أمامنا السؤالان التاليان :

أولا : لماذا خُلق الملائكة ؟

ثانياً : ومن أي شيء خلقوا ؟

فيجيب مار موسى بن كيفا والعلامة ابن العبري على السؤال الأول بما أورده القديس غريغوريوس الثالوغوس بقوله :

« لم تشأ حكمة الله أن ينحصر صلاحه به وحده بل أراد أن يفيضه على الآخرين أيضاً لذلك خلق الملائكة » ·

وأما عن السؤال الثاني فينفرد موسى بن كيفا بالاجابة عليلا قائلا :

ليس لدينا تفصيل واف عن خلقة الملائكة كما فصّل لنا سفر التكوين خلقة الانسان · وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا الصدد هو أن الله تعالى خلقهم من العدم بقدرته الالهية جواهر روحية عاقلة ·

هـذا ولا صحة لمـا رواه البعض كمـذهب القوسيين أنهم انبثاقـات مـن اللاهـوت ·

★ ★ ★

الفصـــل الثالث

طبيعتــــهم

الملائكة أرواح محضة بحسب تعليم الكتاب المقدس ·

ومن المعلوم أن الروح يعبَّر به عن جوهر بسيط وغـير جسمي كمـا يظهر من حمله على الله كما في (يو ٤ : ٢٤) ·

وعلى النفس البشرية (١ كو ٢ : ١١) ·

ولكون الانسان جسداً لا يدعى أصلا روحاً بالبساطة · وبعكس ذلك لم يؤت قط بذكر جسد للملائكة بل انما يدعون دائماً أرواحاً بالاطلاق ·

قال مار موسى بن كيفا يحدّد طبيعتهم :

« الملائكة أرواح لطيفة مجردة عن الأجســام الكثيفــة محصورون ـ ومحدودون بالطبع والمكان ، سريعو التنقل ، لا تعيقهم الحواجز » ·

ويقول العلامة ابن العبري :

« بما أن الملائكة مخلوقات روحية بسيطة منزهة عن المادة والتركيب. لذلك لا تستطيع أن تحدد طبيعتهم بالضبط أو تضعهم في اطار تحديد دقيق خاص معين · لأن التحديد يقوم باعطاء الجنس والنوع · والملائكة لا نوع لهم ولا جنس لتجردهم عن المادة » ·

وبالتالي يلجأ الى وصف طبيعتهم بتعريف مستعار نسبي تحت ضوء الوحي واستناداً على أقوال الآباء القدامى فيقول :

« الملاك جوهر قائم بذاته · غير مرتبط بجوهر مادي لذا لا جسم له · لأن الجسم يتكوّن من المادة والصورة · وهو والحالة هذه لا يحصره مكان ولا يُرى · ولا يقع تحت الحواس · لأن ما يقــع تحت البصر والحــواس يُحصر ويُرى بمكان خاص لذلك فهو غير محسوس بل معقول فقط وهــو في صفاتــه الأخـيرة كالنفس البشريــة التي هي غير محسوســة بل جوهر معقــول » ·

ثم يستطرد فيورد بعض أقوال الآباء كالقديس غريغوريوس الثاولوغوس الذي قال في ميمر الميلاد :

« انهم جواهر لطيفة جداً شبيهة بنار غير هيولانية · أو بطبع آخر يماثلها » ·

والقديس كيرلس الاسكندري القائل في ردوده على ديودورس أسقف طرسوس ـ وثاودورس أسقف المصيصة :

« الملائكة أرواح سماوية · وعند قولنا أنهم أرواح لا تطلق الروحانية عليهم كما نطلقها على الله ونقول :

« الله روح » (يو ٤ : ٢٤) ·

بل نعني بذلك أنهم جواهر روحية منزهة عن هيولية البشر » ·
وأكد مار غريغوريوس النزينزي روحانيتهم أكثر من غيره فقال :
« اذا قيل ان الله جسم ملائكي ، فمن أين للملائكة جسم ؟!
وما هو ذلك الجسم ؟!

ومما يزيد روحانيتهم دعماً ، وينفي عنهم كل جسمية ، ظهورهم بأشكال مستعارة مختلفة(١) ·

فقد ظهروا لاليشع النبي بشكل خيل ومركبات (٢ مل ٦ : ١٧) ·
ولبلعام كرجل واقف وبيده سيف مسلول (عدد ٢٢ : ٢٣) ·
ولجدعون بهيئة رجل يحمل عكازاً (قض ٦ : ٢١) ·
ولدانيال بصورة بهية جداً (دانيال ٧ : ٩) ·
ولحزقيال بشبه أسد وثور ونسر وانسان (حز ١) ·
وظهروا على قبر المخلص بثياب بيض (مت ٢٨ : ٣) ·

فلو كانوا جسديين لما ظهروا بهذه الأشكال والهيئات المختلفة بل بصورة واحدة ثابتة ·

وهنا قد يوجه السؤال التالي :

لماذا يتخذ الملائكة أشكالهم المستعارة من الحيوانات كالأسد والثور الخ ؟ ·

---

١ ـ ظهر الملائكة لأول مرة لهاجر · لا لأنها أكثر الناس برأ وصلاحا · بل لتمهيد الطريق لظهور الله تعالى رب الملائكة لابراهيم ·

ولِمَ لم يتخذوا أشكالا أرفع شأناً وأسمى قدراً من ذلك ؟

نجيب :

لقد أظهرهم الكتاب المقدس بتلك الأشكال والأشباه نظراً لسمو مقامهم ورفعتـه ٠

فلو أظهرهم بأشكال مادية نفيسـة غالية لتسـرّب الى الظن أنهـم يشبهونها أو قريبو الشبه بها ٠ وبذلك يقـلّ شأنهـم وتنحطّ مكانتهم بنظـر العقـل ٠

محدوديتهـم :

الملائكة محدودون وغير محدودين ٠ فهم محدودون بالنسبة لطبيعتهم ٠

أولا : كونهم مخلوقين ، والمخلوق محدود بالبداهة له بداية ونهاية ٠

ثانياً ـ أن علمهم محدود وقابل للزيادة والنمو والتدرج ٠

فهو محـدود لأن ليس بوسـعه أن يستوعب كل ما حـدث في الماضي وليس لهم سابق علم بما سيحدث في المستقبـل ٠ فان ذلك من اختصـاص الله فقط ٠

فهم والحالة هذه يعلمون أشياء ويجهلون أشياء ٠

يعرفون أنهم مخلوقون بأمر الله وبحسب ارادته ومحروسون بعنايتـه تعالى ٠ وانه أبدع هذه الكائنـات وغيرها كمـا يجهلون أموراً كمعرفـة المستقبلات وخفايا القلوب ٠ وغوامض الأمور كقوله تعالى :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمهما أحد ولا ملائكة السماوات (مت ٢٤ : ٣٦) ٠

ومما يزيدنا برهاناً على محدوديتهم نظرية :

« عدم ادراك كنه جوهر اللاهوت » ٠

فلو كان الملائكة يعرفون بكل الأمور لعرفوا كنه الله أيضاً ٠ ولو عرفوا كنه الله لكان الله من ثم مدرَكاً لا غير مدرك وهذا محال(٢) ٠ ٠

---

٢ ـ لا يستطيع الملائكة أن يروا ذات الله لكونهم محدودين ٠ والمحدود لا يقدر أن يحصر الله غير المحدود ٠ لأن الله الضابط الكل لا يحصره المحدود ٠ فالمحدود يستطيع أن يحصر بعض الشيء من غير المحدود لا كل شيء فيه ٠

انهم لا يدركون سوى وجوده تعالى مع بعض صفاته · وقد سبحوه ثلاثاً : قدوس قدوس قدوس (اش ٦ : ٢) مشيرين الى الجوهر الواحد دون أن يدركوا وجوده في ثلاثة أقانيم ·

قلنا ان علمهم متدرج قابل للزيادة والنمو · أي ليس لديهم معرفة كاملة لأن الكمال لله وحده ·

فقد كانوا في العهد القديم يجهلون سري التجسد والفداء قبل حدوثهما كقول الرسول بولس :

« لكي يعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة » (اف ٣ : ١٠) ·

وبعد ظهورهما واعلانهما أدركوهما وهتفوا مبشرين :

« المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام والرجاء الصالح بين الأمم » (لو ٢ : ١٤) ·

ثالثاً ـ وبالنظر الى عددهم يستدل من النصوص الكتابية ان عدد الملائكة كثير لا يحصى ، يفوق عدد البشر بكثير · قال دانيال النبي :

« خرج من قدامه ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوت وقوف قدامه » (دا ٧ : ٢٩) ·

وقال الرسول بولس :
« والى ربوات هم محفل ملائكة » (عب ١٢ : ٢٢) ·

فمن هذين النصين وغيرهما من النصوص الكثيرة تبدو بوضوح كثرة عدد الملائكة · الا أنه مهما بلغ فهو محدود ·

رابعاً ـ أما بالنظر الى قوتهم ، فبالرغم من أن قوة الملائكة عظيمة للغاية بحيث أن ملاكاً واحداً قتل كل أبكار المصريين في ليلة واحدة

→

وقد قال الرسول بولس :

« لأن أمور الله غير المنظورة منذ خلق العالم قد أبصرتها وأدركتها خلائقه وكذلك قدرته الأزلية وألوهته حتى يكونوا بلا معذرة رو ١ : ٢٠ ·

وهذا يعني أن الله لا يرى ولكن يدرك وجوده ويهتدي الى معرفة بعض صفاته بواسطة أموره المنظورة ·

وقال القديس ايوانيس في تفسير الاصحاح السادس من أشعياء عدد ٦ ·

« السرافيم يحيطون به لكل منهم ستة أجنحة باثنين يغطي وجهه وباثنتين رجليه » ·

ان هذا دليل على ان الملائكة يغطون وجوههم وأرجلهم لعدم تمكنهم من الاحداق به أو رؤيته ·

(خر ١٢ : ٣) وملاكاً آخر قتل من جيش آشور ١٥٨٠٠٠ (٢ مل ١٩ : ٣٥) الا أنها مهماعظمت وبلغت فهي محدودة ٠

عدم محدوديتهم :

ان الملائكة غير محدودين بالنسبة للمكان ، لأن المحدودية المكانية والانحصار المحلي من خواص الأجسام المادية فقط ٠

والملاك منزّه عن الجسم ، لذا لا يحصره مكان ولا يحده محل ٠ وفي هذه الحالة يستطيع أن يخترق الأجسام المادية الجامدة والحية دون أن تعيقه

الحواجز مهما كان نوعها ٠ وبسرعة هائلة منقطعة النظير كسرعة الفكر والبصر ٠

وهذا لا يعني أنه موجود في كل مكان /حاشا/ ان الوجود في كل مكان من صفات الله وحده ٠

أما الملاك فمتى وجد في مكان خاص خلت منه بقية الأمكنة ، فمثلا ان الملاك الذي بشّر العذراء في الناصرة ، لم يكن ساعتئذ في الناصرة وفي كل مكان في آن واحد بل في الناصرة فقط ٠

هذا رأي العلامة ابن العبري ، أما مار موسى بن كيفا فارتأى أن الملائكة محدودون بالنسبة للمكان أيضاً ٠

ويعتقد بأنهم يقطنون سماء روحية ، لطيفة ، نيّرة ، منزهة عن المادة ، ملائمة لطبيعتهم ، تختلف عن السموات التي خلقت في اليومين الأول والثاني ٠ ولم يشر اليها موسى النبي في روايته عن الخلقة كما لم يشر الى خلقة الملائكة أيضاً ٠ وقد دعم رأيه هذا بالبراهين التالية :

١ ـ الملائكة محدودون ٠ والمحدود ينحصر في مكان ملائم لطبيعته ٠ اذن الملائكة يقطنون محلا يلائم طبيعتهم ، وهذا المحل هو السماء المشار اليها ٠

٢ ـ تقدّم القول ان الملائكة لا يرون الله ولا يدركونه ، فيتحتم من ثم أن يكون لهم محل خاص معيَّن يظهر لهم الله فيه ذاته ليتلقوا الأوامر والاستنارة والمعرفة ٠ كما يظهر للآباء والأنبياء والرسل والكاملين على الأرض ويمدّهم بالوحي والالهام ٠

٣ ـ من أقوال الكتاب المقدس ، « الصانع السموات والأرض ٠ السموات سموات للرب » (مز ١١٥ : ١٥ ـ ١٦) فالسموات ، والأرض

المعطوفة عليها ، الواردتان في أول النص هما تينك اللتان وردتا في الاصحاح الأول من سفر التكوين . وأما « السموات سموات » التي جاءت في القسم الثاني من النص فهي موطن الملائكة .

وجاء في الانجيل المقدس قول الرب « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأني أقول لكم ان ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات » (متى ٧ : ١٠) .

٤ ـ استشهد ببعض أقوال الآباء القدامى كالقديسين غريغوريوس النوسي ـ وباسيليوس القيصري . ويعقوب السروجي ـ ومار سويريوس الأنطاكي .

ويضيف مار موسى الى براهينه هذه قائلا : وان كان للملائكة مكان خاص بهم ، الا أنهم بين الناس دائماً . وفي الأرض يمارسون خدماتهم للبشر ويؤدون واجباتهم كما يستدل من الكتاب المقدس « وأنا (دانيال) متكلم بعد بالصلوة اذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا في الابتداء مطاراً واغفاً لمسني عند وقت تقدمة المساء » (دا ٩ : ٢١) و « أليس جميعهم أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (مز ١:١٤). وقد يظهر أمامه السؤال التالي : اذا كان الارسال يعني ترك مكانهم الخاص خالياً وشغل مكان آخر ، فالمسيح أيضاً ترك محلا وشغل آخر نتيجة ارساله كقول الكتاب ؟ فجواباً على ذلك نقول : هنالك فارق كبير ما بين ارسال المسيح وارسال الملائكة . ان ارسال المسيح يعني ظهور اللاهوت بالجسد دون أي حركة انتقالية كارسال الفكرة من العقل . أما ارسال الملائكة فيتم بحركة انتقالية ترك محل واشغال آخر .

أما العلامة ابن العبري فيخالف هذا الرأي وينقضه من أساسه ويقول « ان ما ارتآه موسى بن كيفا غير منطقي ، لأن المكان يحدّد منطقياً بامتداد فسحة ما لجسم يُحصر فيه . والملاك لا جسم له كما علمنا . لذا لا يحتاج الى مكان . ويستطرد قائلا : لم يخلق الله السماء من أجل سكنى الملائكة بل لتنسيق الكون وتجميله . واذا ما نسب الكتاب السماء محلا للملائكة فذلك من باب الاستعارة والمجاز كما قيل عن الله جلَّ جلاله « السماء كرسيَّ والأرض موطيء قدميّ » .

ثم يدعم رأيه ببعض أقوال آباء الكنيسة كالقديس غريغوريوس الثاولوغوس .

خلودهم :

يستنتج ابن العبري خلود الملائكة من روحانيتهم فيقول « الملائكة خالدون لا يدنو منهم الموت ولا يعتريهم الفساد ، لأن الموت هو انفصال النفس عن الجسد · والفساد هو انفصال صورة خاصة عن المادة واستبدالها بأخرى · والحال ان الملاك روح لا جسد له ولا مادة اذن لا يموت ولا يعتريه فساد ·

غير ان خلود الملائكة ليس ذاتياً بل هو ناتج عن انعام الهي وبمجرد ارادته تعالى فقط · لأن الخلود الذاتي خاص بالخالق وحده دون غيره كقول الرسول بولص « الذي وحده له عدم الموت » (١ تي ٦ : ١٦) ·

★ ★ ★

الفصل الرابع

في سلطة الملائكة الذاتية

أورد العلامة ابن العبري جملة براهين منطقية ونقلية ، وشروحات مستفيضة أيَّد فيها سلطة الملائكة الذاتية ، وحريتهم ، ندرجها أدناه بالايجاز ·

أولا : ان الأفعال الطبيعية تلازم بصورة خاصة الكائنات الغير حية كقوة المغناطيس في جذب الحديد ثم الكائنات النامية كالنباتات ثم الكائنات الحية الغير الناطقة التي يلازمها الأفعال الطبيعية والغريزية نظراً لقوة الحساسية فيها · غير ان الأفعال الطبيعية هي الغالبة عليها بسبب كثافة مادتها وهيوليتها ، وعدم كمال الادراك فيها · ثم في الحيوانات الناطقة أي البشر حيث يتوفر فيهم الأمران ، غير ان الحرية فيهم تغلب طبيعتهم لأن محركهم ومانحهم الادراك قبس من الشعاع الكلي · ويتضح ذلك أيضاً من أن كثيرين يكبحون جماح ارادتهم كالذين يجوعون ولا يأكلون ويتعرون ولا يكتسون ويعطشون ولا يرتوون ، ويكبحون جماح الأهواء فيفكرون ويتعذبون ، ويشتهون ولا يتنجسون · ولكن ذلك ليس في الجميع بسبب العنصرية المادية ·

أما الملائكة فمن حيث أنهم جواهر ناطقة منزهة عن المادة نهائياً ولا يمتّون الى الأرضيات بصلة ، فبحكم الواقع والمنطق وجب أن تكون كل أعمالهم وحركاتهم ارادية وحرة لا أثر للطبيعة فيها · ولذلك قيل الحرية قرينة النطق ، يلازمان بعضهما بعضاً دوماً · أي ان كل ناطق حر وكل حر ناطق ·

ثانياً : كان الشيطان ملاكاً ، فلو لم تكن له حرية تامة وسلطة ذاتية لما فرض عليه قصاص نتيجة وقوعه في الخطية وارتكابه الجرم فالعقوبات تفرض على الجرائم الارادية لا الطبيعية · فالنار المحرقة مثلا ، والسيل الجارف ، والبركان الثائر ، لا تخضع للعقاب لأن أفعالها طبيعية ، هذا بحسب رأي ابن العبري · أما مار موسى بن كيفا فيثبت سلطتهم الذاتية من

كونهم أحراراً عاقلين ناطقين(١) ويستدل على حريتهم من سقوط الشيطان الذي مال الى الشر بملء حريته فهوى ساقطاً ٠

ثالثاً : من أقوال الآباء القديسين : قال القديس باسيليوس « للملائكة سلطة ذاتية وحرية ، ويتساوى ميلهم أو رجحانهم نحو جهتي الخير والشر لذا فهم بحاجة الى قوة روحية » ٠ وقال القديس غريغوريوس الثاولوغوس « للملائكة ميل الى الشر ولكن بصعوبة لا تتصور » ٠

ينتج مما ذكرناه عن سلطة الملائكة الذاتية الأمور التالية :

١ ـ ان الملائكة صالحون بالنعمة لا بالطبع ، لأن الصلاح بالطبع انما هو من خصائص الله وحده كقوله تعالى « ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله » (مت ١٩ : ١٧) ٠

٢ ـ بين الأجواق الملائكية تفاوت في الصلاح ، فكل منها يحصل على ذلك من الله بانعام وبحسب درجته في الطغمة التي ينتمي اليها ٠ فهناك الصالح والأكثر صلاحاً ٠ وسقوط الشيطان خير الأدلة على ذلك ٠

٣ ـ في الملائكة ميل الى الشر ٠ ولكن ذلك بصعوبة بالغة جداً ، حتى ليكاد ذلك الميل يتلاشى ويندثر لرسوخهم المكين في الصلاح بحيث لا يدعهم يميلون اليه أبداً ٠ ومما يجعل صلاحهم راسخاً وميلهم الى الشر أمراً غير ممكن ، قربهم من الله تعالى ، وتبيّنهم نتيجة سقطة الملاك الشرير ، وجنوحهم الدائم الى الخير ٠ وكما ان الملاك الساقط رسخ في الشر وتلاشى فيه الميل الى الصلاح كلياً ونهائياً ، هكذا الأمر في الملائكة الأخيار أيضاً ٠ وقد عبّر الرسول بولس عن هذا كله بقوله : « ولكن ان بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن اناثيما » (غل ١ : ٨) ٠ وقوله أيضاً « فاني متيقن انه لا موت ولاحياة

---

١ ـ يتحدث مار موسى بن كيفا عن النطق فيستعرض آراء الفلاسفة في تحديده وتعريفه ومن ثم يورد رأيه فيقول « المنطق نوعان مكتسب وطبيعي ، والفارق بينهما كالفارق ما بين من يعرف أمراً ما معرفة تامة متقدمة ومن لا يعلم ذلك كذلك ٠ فالنطق المكتسب عرضي يدرك الأمور عن طريق تركيب الكلام وحسن المناقشة ، أما النطق الطبيعي فجوهري ، يدرك الأمور تلقائيا وطبيعيا دون توسط تركيب الكلام ' وهذا النطق الطبيعي يوجد فقط عند الملائكة ، وحيث ان الملائكة ليسوا جسما فليس لهم كلام بارز مسموع أيضا ٠ ومما يزيد برهانا على نطق الملائكة ، كون الله ناطق وليس بجسم ونطق الله ثابت من أمرين :

١ ـ ان أسمى شيء في الانسان هو النطق لذا لا يعقل أن يعدم الله منه ٠

٢ ـ انه هو الذي أعطى الانسان نطقا ، فكيف يستطيع أن يمنح ما ليس له ؟! اذن لله نطق ؟ وبالتالي الملائكة جواهر ناطقة (اسكوليون مج ١ ص ١٧ لتادروس بركوني) ٠

ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا » (رو ٨ : ٣٨ و ٣٩) • فيظهر من القول الأول انه لا الرسول ولا الملائكة بامكانهم أن يبشروا بخلاف الحقيقة • ويبدو من القول الثاني ان الملائكة لا يمكن أن يفصلوا الرسول عن محبة المسيح • ولاثبات حرية الملائكة ورسوخهم التام في الخير ، يستعرض موسى بن كيفا أربع حقب زمنية • الحقبة الأولى ، وتمتد منذ خلقة الملائكة وتنتهي بسقوط الشيطان ، كان الملاك خلالها يميل الى الخير والشر على السواء •

والحقبة الثانية تبتدىء من سقوط الشيطان وتنتهي بتجسد الكلمة وهي فترة رسوخهم التام في الخير والصلاح بفضل الدرس الذي تلقنوه من سقوط الشيطان ، فأضحى من ثم سقوطهم في الخطيئة عسيراً وغير ممكن ••

والحقبة الثالثة تبتدىء من التجسد وستنتهي بالقيامة العامة ففيها ثبَّتهم التجسد في الصلاح وأفادهم عن الأسرار وقد ارتعدوا أيضاً من كلام المسيح الذي أنَّب الخطأة وهدّدهم بالعذابات الأليمة •

والحقبة الرابعة من القيامة والى الأبد ، وفيها يتحررون من كل ميل الى الشر •

٤ ـ حيث ان الملائكة أحرار يتمتعون بسلطة ذاتية ، فوجب من ثم أن يكون لهم ناموس يتقيدون به ، لأن الناموس هو امتحان الخطية • وبحفظهم الناموس يصبحون أهلا لاقتبال النعم المعدة في اليوم الأخير وبالعكس كما يؤيد الرسول بولس « لأن الخليقة نفسها أيضاً ستعتق من عبودية الفساد الى حرية مجد أولاد الله ، فاننا نعلم ان كل الخليقة تئن وتتمخض معاً الى الآن » (رو ٨ : ٢١ و ٢٢) ووفقاً لكلام القديس اسطيفانس « ان الشريعة أعطيت بواسطة الملائكة » (اع ٧ : ٥٣) فالملائكة ، باعتبارهم جزءاً من الخليقة العاقلة فانهم يشاركونها في كثير من الصفات • فما دام هذا العالم قائماً فلهم ناموس يربطهم ، وشريعة يتقيدون بها مآلها الانذار بسوء عاقبة من يخطىء ، وسعادة من يستمر ثابتاً في الصلاح •

★ ★ ★

الفصل الخامس

في أجواق الملائكة وأسمائهم

جعل اللاهوتيون الملائكة تسع طغمات أو رتب ـ ونظراً لتفاوتهم في القداسة والكرامة والصلاح رتبوا درجات عليا ورتباً على الشكل التالي :
(١) السرافيم (٢) الكروبيم (٣) العروش (٤) السادات (٥) الأجناد (٦) السلاطين (٧) الرئاسات (٨) رؤساء الملائكة (٩) الملائكة ٠

وقد استند علماء اللاهوت في اطلاق هذه التسميات الى صفوفهم على معطيات الوحي فقد ورد ذكر الكروبيم في تك ٣ : ٢٤ و ١ صم ٤ : ٤ وخر ١٠ : ١ والأجناد يش ٥ : ١٤ واش ٢٤ : ٢١ والملائكة خر ٢٣ : ٢ زك ٢ : ٣ و ١ بط ٣ : ٢٢ ٠ والسرافيم واش ٦ : ٢ والعروش دا ٧ :٩ والسلاطين دا ٧ : ٢٧ لو ١٢ : ١١ اف ٣ : ١٠ و ١ بط ٣ : ٢٢ ٠والرئاسات كو ١ : ١٦ اف ١ : ٢ ورؤساء الملائكة دا ١٠ : ١٣ رو ٨ : ٣٨ ١ تس ٤ : ١٦ ويه ٩ ٠

وتشكل هذه الطغمات التسع ثلاث كنائس سماوية عليا ووسطى وسفلى ـ كل كنيسة تحتوي على ثلاث طغمات ٠

فالكنيسة العليا : تتألف من السرافيم والكروبيم والعروش ٠ وقد رتب مار ديونيسيوس مرة طغمة العروش الأولى استناداً الى قول حزقيال ١٠ : ١ ومرة أخرى السرافيم الأولى استناداً الى ما جاء في أشعياء ٠ غير أن الاجماع هو بحسب الترتيب المذكور ٠ وعلّق ابن العبري على ذلك قوله : لا يستبعد أن يكون النبي قد دعا السرافيم بالعروش على اعتبار أن يجلس عليهم رب الكل وبواسطتهم ينفّذ مقاصده الالهية ٠

والكنيسة الوسطى : تتألف من السادات والأجناد(١) والسلاطين ٠

---

١ ـ عمّت تسمية الأجناد سائر الطغمات الأخرى كما يبدو من نصوص الكتاب ٠ وذلك ان كل رتبة أو طغمة لها ثلاث خواص : الجوهر ، والقوة ، والأثر ٠ فالجوهر هو قوام الذات أو الشخصية ٠ والقوة هي الشيء الذي بواسطته يعمل الملاك ما يشاء ٠ والأثر هو الشيء الذي يكمل به عمله ٠ والجوهر والقوة قائمان بذاتهما أما الأثر فليس كذلك ٠ وقد أطلقت تسمية الأجناد على سائر الملائكة باعتبار ان كل رتبة لها أثرها الخاص ٠ فهناك من يشخص الله للبشر بأمور استعارية كما رآه أشعياء على الكرسي ، وحزقيال على المركبة ودانيال شيخا قديم الأيام ٠ وهناك من يكشف أسرارا خفية كاختطاف بولس الرسول الى السماء الثالثة ٠ وهناك من يعلن عن حوادث مستقبلة كبشارة العذراء وغيرها ٠

والكنيسة السفلى : تتألف من الرئاسات ، رؤساء الملائكة والملائكة(٢).

وقد رأى اللاهوتيون في الصفوف الأربعة الأولى من الحجارة الكريمة التي وضعت بأمر الله ورصعت في رداء رئيس الكهنة ، رمزاً الى الطغمات السماوية والى طغمتنا الأرضية خر ٢٨ : ١٧ ـ ٢٢ وكما انطوى كل صف على ثلاثة حجارة كريمة مختلفة هكذا تنطوي كل طغمة على ثلاث أجواق ·

فالصف الأول ، عقيق أحمر ، ياقوت أصفر ، زمرد ، يشير الى الكنيسة العليا · والصف الثاني : بهرمان ، ياقوت أزرق ، عقيق أبيض يشير الى الكنيسة السفلى ، والصف الرابع يشير الى الكنيسة المسيحية التي تعتبر كنيسة رابعة ، ولها علاقة متينة بالكنائس السماوية الثلاث ، وتتألف من ثلاث طغمات أو رتب هي رؤساء الكهنة ، الكهنة والشمامسة ·

معاني أسمائهم :

من الثابت منطقياً ان الجوهر سابق للقوة ، والقوة سابقة للفعل والفعل سابق للخاصة · والخاصة سابقة للتسمية ، وبناء على هذا تكون التسمية مبنية على القوة والخواص ، وبالتالي ان الاسم يدل على قوة الجوقة وخاصتها ·

١ ـ السرافيم :

لفظة عبرانية تعني الاحتراق والحرارة ، ودعوا بهذا لسببين :

أولا ـ لاختلاجهم بالالهيات بصورة مستمرة دون انقطاع ، نظراً لكونهم أقرب المقربين اليه تعالى ·

ثانياً ـ لجاذبيتهم للذين هم أدنى منهم كي يرتفعوا بواسطتهم الى الالهيات وكلا الأمرين الاختلاج والجاذبية من خواص الحرارة ·

٢ ـ الكروبيم :

جمع كروب ، لفظة عبرانية تدل على اتساع المعرفة وفيض الحكمة

---

٢ ـ يطلق الكتاب المقدس غالبا على جميع الطغمات لفظة « ملائكة » كقوله الصانع ملائكته أرواحاً وخدامه لهيب نار عب ١ : ٧ ومز ١٠٤ : وذلك ان رتبة الملائكة هي التاسعة والأخيرة وكل مالها هو للطغمات الأعلى منها ولا تعكس لأن الأعلين أكثر كمالا من الأدنين لذلك جاز أن تسمي الطغمات العليا بأسماء من هي أدنى ولا يجوز أن تعكس فيقال لكل ملاك كاروب كما يقال لكل كاروب ملاك · ومثل ذلك مثل كنيستنا الأرضية · فان رئيس الكهنة من كونه يقوم بخدمات الكهنة والشمامسة جاز أن يدعى كاهنا أو شماسا · بينما لا يجوز أن يدعى الشماس أو القسيس رئيس كهنة ·

حيث بواسطتهم تكمل ارادة الله ومقاصده كقول المرتل : وهم من المقربين اليه تعالى يفوقون باقي الجوقات قوة واقتداراً ، فكانوا من ثم أهلا للحراسة والمحافظة · فهم الذين عينوا لحراسة الفردوس بعد أن خرج آدم وحواء لئلا يرجعا اليه (تك ٣ : ٢٤) ولعل هذا علة اختيار وضع تماثيلهم على غطاء التابوت اشارة الى حراسة ما فيه بدليل ان وجهيهما كانا نحو الغطاء أي مطرقين الى الغطاء ناظرين اليه في وصف الله وضعهما على التابوت لموسى خر (٢٥ : ٢٠) ·

٣ ـ الكراسي أو العروش :

تدل على الرفعة ، والتسامي عن كل ضعة ، كما ترمز الى رضى الرب وسروره بهم · والتسمية مستمدة من المفهوم البشري ، حيث ان العرش في عرفنا يشير الى الراحة والسمو والكرامة ·

٤ ـ السادات :

تعني الرفعة والتحرر من أي عبودية كانت ، وتدل على السمو في الكرامة والسلطان ·

٥ ـ الأجناد :

وتدل على الجبروت الراسخ ، والبطولة التي لا تقهر ·

٦ ـ السلاطين :

وتدل على حسن النظام في اقتبال الأشعة الالهية ·

٧و٨ ـ الرئاسات ورؤساء الملائكة :

دلالة على الرئاسة[1] ·

٩ ـ الملائكة :

تدل على الارسالية والخدمة ·

---

١ ـ يعتقد بعض اللاهوتيين ان للملائكة رئيسا واحدا وهو « ميخائيل » استنادا الى ما جاء في يه ١ : وأما « ميخائيل رئيس الملائكة فلما خاصم ابليس محاجا عن جسد موسى لم يجسر أن يورد حكم افتراء » ·
وقيل في دانيال « ميخائيل » الرئيس العظيم لبني شعبك دا ١٢ : وقيل في سفر الرؤيا : وحدث حرب في السماء ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وملائكته رؤ ١٢ : ٧ ·
واعتقد بعضهم ان ميخائيل ليس هو الرئيس الوحيد بل هناك رؤساء غيره واعتمادا على ما جاء في سفر دانيال عن ميخائيل بأنه أحد الرؤساء الأولين دا ١٠ : ١٣ ، فهناك جبرائيل لو ١ : ٨ وروفائيل طو ٣ : ٢٥ وقد تكون رآسة ميخائيل عامة واما رآسة غيره فخاصة ·

الفصـــل السادس

في الاســـتنارة

تحدث الاستنارة تدريجياً ، فتشرق الاعلانات الالهية أولا على السرافيم من الله ذاته وبصورة مباشـرة ومستمرة وبـدون واسـطة ، ثم يسـتنير الكروبيم من السرافيم ومن ثم كل رتبة تنـير الأدنى منها حتى تصـل الى الملائكة ومنها الى من هم أهل لها من البشر كالأنبياء ، والرسل ، والكاملين ، ولا تعكس ٠

والاستنارة كما عرّفها أحد أساطين اللاهوت هي الطريقة التي يكشف بها الملاك فكرته لغيره ، فالأعلى ينوّر الأدنى ، فاذا ما اقتبل الأول حقيقـة بصورة اجمالية أبلغها الى الأدنى فقبلها بصورة أقـل اجمالا ٠ أما كـلام الملائكة فيقوم بأن يتجه تصور ملاك الى أن ينكشف بارادته لسواه ، فالأدنى بامكانه أن يخاطب الأعلى ولكنه لا يمكنه أن ينيره ، اذ كل ما يعرفـه ويعمله الأدنى ويعرفه ويعمله الأعلى بشكل أعم ٠ من هنا الفرق ما بين الانـارة والمخاطبة ، الانارة تعني افادة الأدنى واعلامه حقائق يجهلها ، أما المخاطبة فهي مجرد تبادل الحديث ٠

وزيادة في الايضاح ، وتقرباً للذهن فقد استنتـج موسى بن كيفـا والعلامة ابن العبري مما جاء في قول المرتل عن استنارة الأدنى من الأعـلى كما يلي ٠ « ارفعـن أيتها الارتـاج رؤوسكن ، وارتفعـن أيتها الأبـواب الدهريات فيدخل ملك المجد ، من هو هذا ملك المجد الرب القدير الجبار ، الرب الجبار في القتال ، ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد ، من هو هذا ملك المجد رب الجنود هو مـلاك المجد سلاه » (مز ٢٤ : ٧ ــ ١٠) فكأن الكنيسة العليا هنا تشير الى الكنيسة الوسطى قائلة : « ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن ، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد ٠ فالكنيسة الوسطى تسألها « من هو هذا ملك المجد ؟ فتجيبها الرب الجبار ، الرب القدير في القتـال ثم تكرر الكنيسـة الوسطى للكنيسة السفلى القول : « ارفعن أيتها الارتاج رؤوسكن ٠٠ الخ فتسألها هي الأخرى « من هو هذا ملك المجد » ؟ فتجيبهـا بما أجابت بـه

الكنيسة العليا · ذلك أن الكنيسة العليا هي التي شعرت أولا بصعـود رب المجد الى السماء فسألته عز وجل « مـن ذا الآتي من أدوم بثياب مضرجـة من بصرة · هذا الذي يتباهى بلباسه ويختـال بكثرة قوته فيجيبها تعـالى « أنا المتكلم بالعدل الكثير الخلاص » (اش ٦٣ : ١) فانبرت هي بدورهـا تشير الى الكنيسة الوسطى والكنيسة الوسطى الى الكنيسة السفلى كمـا ذكرنا أعـلاه ·

وهنا نقف مـع اللاهوتيين نتساءل : هل جـاء الترتيب مبنيا عـلى الاستنارة أم بالعكس ؟ لقد اختلف اللاهوتيان موسى بن كيفا وابن العبري في اقرار ذلك · فيعتقد مار موسى بن كيفا ان الاستنارة جاءت مبنية عـلى نوعية رتبهم ، وخالفه ابن العبري في ذلك معززاً قوله ببرهان منطقي جاعلا الانارة أساساً لترتيبهم وتنظيمهم بقوله « يفترض القياس المنطقي أن يكون الترتيب مبنياً على الاستنارة ، فلو كان الأمر معكوساً لوجب من ثم افتراض أحد الأمرين ، اما جعلهم جميعاً في مرتبة واحدة ، وأما تجردهم جميعاً عن أي مرتبة نظراً الى مساواتهم ، وكلا الأمرين محال · اذن ينتج من هذا أن كل ملاك نظم في مرتبته الخاصة بالنسبة الى مقـدار الأشعة التي اقتبلهـا من أبي الأنوار كل بحسب قابليته · ثم يدعم قوله هـذا باستعراض تركيب درجات الكهنوت المسيحي ، الشمامسة ، الكهنـة ، رؤساء الكهنة ، الذيـن ينتظم كل في رتبته بعد أن يقتبلوا « وضع اليد » هـذا وان اللاهوتيـين القدامى اختلفوا في تقرير هذا الموضوع ، حتى ان القديس غريغوريوس الثالوغوس تردد بذلك في قوله « لا أستطيـع أجزم بذلك » وهنالك مـن أجاز الأمرين ترتيب فاستنارة ، استنارة فترتيب ·

* * *

الفصــل السابع

في اشــارة الملائكــة للبشــر

علمنا ان الاستنارة والاشارة في طغمات الملائكة تحدثان تدريجياً ، وان كل رتبة تنير الرتبة الأدنى منها الى أن تنتهي الى جوق الملائكة ومنها الى البشر الذين هم أهــل لذلك كالأنبيــاء والرسل والكاملــين ، وقد استنــد اللاهوتيون في تقرير هذا على الكتاب المقدس ، من ذلك قول زكريا النبي «أجاب الملاك الذي كلمني » (زك ١ : ١٣) وقوله أيضاً « واذا بالملاك الذي كلمني قد خرج ، وخرج ملاك آخر للقائه ، فقال له اجرِ وكلِّم هذا الغلام قائلا كالاعراء تسكن أورشليم من كثرة الناس والبهائم فيها (زك ٢ : ٣ و ٤) فيتبيَّن من هذين القولين ان الملائكة يتلقــون الاعلانات بعضهــم من بعض « الأدنى من الأعلى ، ثم منهم للبشر » ٠

وقال حزقيال « ومجد اله اسرائيل صعد عن الكروب الذي كان عليه الى عتبة البيت فدعا الرجل اللابس الكتان الذي دواة الكاتب على جانبه وقال له الرب اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسم سمة على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها ، وقال لأولئك في سمعي اعبروا المدينة وراءه واضربوا (حز ٩ : ٣ ــ ٦) ويتضــح مــن هذا الكلام النبوي ان اشارة الله صدرت الى الكروب الذي هو من الكنيســة العليا ، وهذا أشار الى الرجل اللابس الكتان الذي هو من الكنيسة الوسطى وهو الآخر أشار الى الذين معه أي طغمات الكنيسة السفلى ٠ وقال أيضاً مار اسطيفانس بكر الشهداء « هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرية مــع الملاك الذي كان يكلمه في جبل سيناء ومع آبائنا » (اع ٧ : ٣٨) وقولــه أيضاً « الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه « اع ٧ : ٥٣) ومن هذا يبدو ان الاسرائيليين تلقوا الشريعة بواسطة ملاك ٠

ويهدف الملائكة من وراء اشارتهم للبشر حثَّهم على الطهر والنقاء ، كما أشير الى موسى النبي « اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة » (خر ٣ : ٥) ، ورسم طــرق الخلاص وقيــادة الناس اليه كما حدث لكرنيليوس (اع ١٠) ، والأخبار عن عظمة الله وجلاله

كما ظهر للأنبياء بأشكال مهيبة جداً ، والاعلان عن أسرار خفية جداً لا يباح بها كاختطاف الرسول بولس الى السماء الثالثة (٢ كو ١٢) ، والانباء بأمور مستقبلة وعتيدة كنبوات الأنبياء عن المسيح وغيرها ·

اعتـــراضـــات

اذا كان البشر يتلقون الاعلانات والاشارات بواسطة الملائكة لا من الله مباشرة ، فما تعني اذن بعض الأقوال الواردة في العهد القديم والتي جاءت عن ألسنة الأنبياء نحو « وقــال الرب لموسى » (تث ٢٣ : ١) والــواردة مراراً وتكراراً في الأسفار الخمسة · وقول دانيال « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس قديم الأيام » (دا ٧ : ٩) · وقول عاموس « هكــذا أراني واذا الرب واقف على حائط قائم وفي يده زيــج » (عا ٧ : ٧) و « رأيت السيد قائماً على المذبح » (عا ٩ : ١) وقول أشعيا « رأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل » اش ٦ : ١) وقــوله أيضاً « لأن عينيّ قد رأتا الملك رب الجنود (اش ٦ : ٥) وقول ارمياء « وصارت اليّ كلمة الرب » (ار ٢ : ١) وجاء في سفر الخروج ان موسى وهرون وناداب وابيهو وسبعين من شيوخ اسرائيل رأوا اله اسرائيل (خر ٢٤ : ٩) هــذا من جهة ، ومن جهة أخرى لو كانت الاشارات والاعلانات تبلّغ من الأعــلى للأدنى بالترتيب المار ذكره ، فكيف يتفق ذلك وقول أشعياء « فطــار اليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومسّ بها فمي » (اش ٦ : ٦) ·

حـــل الاعتـــراضـــات

ان عبارة « قال الرب لموسى » تعني ضمناً « قال الرب لموسى بواسطة ملاك ، وذلك ان موسى لم يعلن الأمر لبني اسرائيل على حقيقته وواقعــه لئلا يكون ذلك سبباً لانحرافهم عن عبادة الله الواحد وانسياقهم وراء الهــة الأمم الصماء · والأقوال النبوية الأخرى لا تعني عدم الوساطة بل تشير الى تصوّر مجد الله وجلاله · واما قول أرمياء النبي « صارت الى كلمة الرب » فتجد ازاءها أقوالا أخرى تفتح مغلق معناها وتفسرها وترفع عنها الغموض والابهام كقوله « الكلمة التي صــارت الى ارميــا من قبل الرب قائــلا » فعبارة من قبل الرب تعني الرساطة بكل ما في الكلمــة من معنى · وأمــا رؤية موسى والآخرين لله ، فذاك لا يفهم منه انهم رأوه بجوهره بل بمظاهره لأن الله تعالى لا يرى بجوهره كما يحدثنا سفر الخروج لما قال الرب لموسى « فقال أرني مجدك ، فقال لا تقدر أن تــرى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش » (خر ٣٣ : ١٨) وقال يوحنا الرسول « الله لم يره أحد قط الابن

الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر » (يو ١ : ١٨) أضف الى هذا كله اننا نجد آيات كثيرة في الكتاب تطلق على « ملاك الرب » الهاً ورباً ، وذلك لا باعتبار الجوهر لأن الملاك مخلوق ، بل باعتبار مظاهر الله التي تنعكس على الملاك الذي يكلم الناس ويبلغهم ارادة الله ومقاصده ، من ذلك ما جاء في (تك ١٦ : ٧ ـ ١٠ و ١٣) « فوجدها (هاجر) ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور ٠ وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت والى أين تذهبين ، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي ، فقال لها ملاك الرب ارجعي الى مولاتك واخضعي تحت يديها ٠ وقال لها ملاك الرب تكثيراً اكثر نسلك ، فلا يعدّ من الكثرة ٠٠٠ فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت ايل رتي « فملاك الرب هنا في عدد ١٠ هو ذات المذكور في عدد ١٣ ٠ وقوله أيضاً لابراهيم « فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم ابراهيم فقال ها أنذا ٠ فقال لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني (تك ٢٢ : ١١ و ١٢) فملاك الرب هنا في عدد ١١ هو ذات الله في عدد١٢ ٠ وفي (قضاة ٢ : ١ و ٢ تجد ان « ملاك الرب » يقول صريحاً « أصعدتكم » ومن المعلوم ان الذي أصعد بني اسرائيل من مصر هو الله لا الملاك ٠ راجع أيضاً (قضاة ٦ : ١١ ـ ١٤ و ٢٠ ـ ٢٤) وخاصة عدد ١٤ ٠

وأما أشعياء النبي فلا يقصد « بالسرافي » شخصيته بل صفته التي هي الاتقاد والحرارة والذي حمل اليه الجمرة كان ملاكاً من الكنيسة السفلى ٠

ان ما أوردناه من الاعتراضات والحلول هو للعلامة ابن العبري ، ويضيف موسى بن كيفا الى ذلك قوله « لقد شهد موسى نفسه أنه آخذ الشريعة من الله ـ بينما اسطيفانس قال انه أخذها بواسطة ملاك ، ووجه الاتفاق بين القولين ، يعلمنا الوحي ان الشريعة أخذت من الله لا من البشر ٠ ثم يستطرد الملفان قائلا : هكذا كان يقتضي التنظيم الالهي أن يرتفع السفليون بواسطة العلويين ٠ وأيَّد قوله بحادث ظهور الملاك لتقوية المسيح في الجتسيماني ، لاعتبار أن وظيفة الملائكة هي تقوية البشر عند الشدائد ، لذلك سمح يسوع الانسان ، أن يقويه الملاك حفظاً للنظام ليس الا ٠

★ ★ ★

الفصل الثامن

في وظائف الملائكة

للملائكة وظائف شتى موزعة ما بين السماء والأرض ، فوظيفتهم في السماء تقوم برؤية الله وتمجيده ، والسجود له ، وتنفيذ مقاصده الالهية راجع (رؤ ٥ : ١١) ٠

التسابيح الملائكية

لقد تجلت عناية الله كثيراً في الملائكة اذ جعلت قوامهم بالتسبيح والتمجيد لله العظيم على الدوام ٠ وقد كشف لنا هذه الحقيقة كتاب الله العزيز في أماكن شتى ، ومن جملة ذلك ما رواه كل من أشعياء ويوحنا اللاهوتي ٠ قال يوحنا « ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش والحيوانات والشيوخ وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح ان يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة (رؤ ٥ : ١١ و ١٢) ٠ وقال أشعياء « في سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسي عال مرتفع وأذياله تملأ الهيكل ٠ السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير ، وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض » (اش ٦ : ١ ــ ٣) ومما يسترعي الانتباه ويثير الالتفات ، ان بعض اللاهوتيين قد جعلوا « التسبيح » جنساً يضم تحته أنواعاً ، التهليل ، والترتيل ، والتبجيل ، والتكريم ، والهتاف ، والتبريك ، والتقديس ، والغناء ، والترنيم ، والانشاد ، والتسبيح ، والتمجيد ، استناداً الى ما جاء في المزمور « احمدوا الرب ادعوا باسمه ، عرّفوا بين الأمم بأعماله ، غنوا له رنّموا له ، أنشدوا بكل عجائبه، افتخروا باسمه القدوس (مز ١٠٥ : ١ ــ ٣) وان لكل جوقة من الجوقات الملائكية التسع ، نوع من أنواع التسابيح تختص به دون الأخرى ، ويميزها عن غيرها ، تماماً مثلما تميِّز اللغات البشر بعضاً عن بعض ٠ فالسارافيم يقدسون ، والكروبيم يباركون ، والعروش يهتفون ، والسلاطين يمدحون ، والقوات يبجِّلون، والسادات يكرّمون، ورؤساء الملائكة يهلّلهون، والرؤساء

يرتلون ، والملائكة يخدمون ، فلا يستطيع الكروب المختص بالتبريك مثلا أن يقدس مع السرافي ويهتف مع العروش وبالعكس وهكذا دواليك ، ومثلهم في ذلك مثل الآلات الموسيقية التي لكل آلة لحنها الخاص ونغمتها المعروفة ، وكل آلة تعرف من نغمتها ، بخلاف البشر الذين بامكانهم وبواسطة لسانهم اللحمي ، أن يتكلموا بجميع اللغات وينسجموا مع كل اللهجات . ذلك ان الألفاظ والكلام عن البشر أعراض والتسابيح عند الملائكة طبيعية جوهرية. وقد غالى بعض اللاهوتين المفرطين في التفسير الرمزي ، فقالوا في تفسير الفردوس ، ومنع الله لآدم من الأكل من الشجرة ، الفردوس بمعناه الروحي يشير الى السماء ، والأشجار الى الملائكة والأثمار الى التسابيح ، وقول الرب لآدم « من جميع أشجار الجنة تأكل ، وأما من الشجرة التي في وسط الجنة فلا تأكل منها ، لأن يوم تأكل منها موتاً تموت » أي سبِّح مع جميع الملائكة ترتيلا وتهليلا وتقديساً وتبريكاً وتمجيداً ، وترنيماً ، انما حذار من أن تلفظ ما يلفظه الشياطين الساقطون ٠

وقد نظمت الكنيسة السريانية في طقوسها مقطوعة موسومة « بزياح الصليب » مطلعها « ذلك الذي يعبده الملائكة » مشيرة الى ما نحن بصدده ٠ كما استقت جميع أنواع هذه التسابيح وأدخلتها في ليتورجيتها وصلواتها الفرضية والطقسية في الاصباح والامساء سيما تقديسات السرافيم ثم تبريكات الكروبيم ، اذ اتخذت من الأولى نواة لمعظم صلواتها الفرضية في سائر الأوقات، ومن الثانية صلاة فرضية للقومتين الثانية والثالثة من الليل ومذيلة بمعنيث القديس مار سويريوس الأنطاكي المعنونة ب « أيها الجالس في ستر العلي استرنا تحت ظل أكناف رحمتك الخ » والتي تتلى في صلاة الستار والنوم ٠ واستقت أيضاً تهاليل رؤساء الملائكة ، وتمجيدات القوات ونظمتها في فاتحة القومة الثالثة من الليل وقبيل صلاة الصباح بقولها « هلليلويا ثلاثاً » و « الحمد للثالوث ثلاثاً » أما صلاة القومة الرابعة فتفتتح بأنشودة الملائكة الذين أعلنوا بشرى ميلاد الرب « المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وللناس الرجاء الصالح ، والتي أنشأها مار أثناسيوس الاسكندري ونقلها الى السريانية مار بولس أسقف الرها مترجم المعانيث ٠

أجنحة السرافيم

رؤيا أشعياء ٦ : ١ ـ ٣

في سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة ، باثنين يغطي وجهه ، وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير وهذا نادى ذاك وقال

قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض (اش ٦ : ١ ــ ٣) ٠

كانت الرؤيا التي رآها أشعياء روحية محضة ، لا أثر للمحسوسات فيها أبداً ٠ فليس هنالك عرش عالٍ ولا هيكل ولا أجنحة للسرافيم ٠ فان الله روح لا يحتاج الى كرسي ولا يحصره هيكل ، وكذا السرافيم فهم أرواح مجردة عن المادة لاأجنحة لهم غير ان أشعياءكونه انساناً يستظل تحتخيمة هذا الجسد المادي لم يستطع أن يعبِّر عنها روحياً على حقيقتها ، لذلك التجأ الى الاستعارات المادية المحسوسة ٠ فسكبها بهذا القالب الحسي ، متخذاً من الحسيات جسراً يوصل الى الروحيات ٠ فهو يعني بالكرسي العالي عظمة جوهر اللاهوت السامي بأزليته وجلاله ٠ وبنفس الوقت يشير الى سر التجسد العظيم الذي فيه سيخلي الله مجده ، ويخضع نفسه للمحسوسات معرضاً اياها للآلام والصلب والموت ٠ ونظراً الى هذا الاعتبار الأخير تسنى للنبي أن يرفع السرافيم فوقه فيقول « السرافيم فوقه » ذلك على اعتبار أن السرافيم جواهر روحية ، والجواهر الروحية هي فوق الجواهر المادية بداهة ، وحيث ان جوهر اللاهوت تنازل باتخاذه جوهراً مادياً فجاز لأشعياء من ثم أن يقول ذلك ٠ وهذا ما عناه الكتاب بقوله عن المسيح « وضعته قليلا عن الملائكة » (عب ٢ : ٧) ٠ غير أن هذه الحالة الطارئة على اللاهوت ، لا تؤدي الى قلب الحقيقة الالهية والمفهوم الأزلي ، فان اللاهوت جلّ جلاله هو فوق الملائكة دائماً وكأن الرسول بولس خشي مما تولده عبارة « وضعته قليلا عن الملائكة » من نتائج قد تكون عثرة للضعفاء ، أو ذريعة للمضلين ، فاستطرد في الاصحاحين الأول والثاني من رسالته الى العبرانيين يسترسل في وصف الاله المتجسد وتبيان ألقابه اللاهوتية التي لا يمكن أن تنسب الى سواه ولا الى الملائكة بالذات من ذلك « الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم » (عب ١ : ١ ــ ٤ ثم يورد مقابلة ما بين السيد المسيح والملائكة فلتراجع في محلها ٠

أما أجنحة السرافيم الستة ، فتعبير حسي عن حركاتهم واختلاجاتهم السريعة التي هي بمثابة النفس للانسان ، بواسطتها يتأمل الملائكة في جوهر اللاهوت العظيم ٠ فيدركون الأسرار ، ويطلعون على بعض الأمور الخاصة بالله وعلى قدر ما يسمح لهم ٠ وقوله « باثنين يغطي وجهه ، وباثنين رجليه، وباثنين يطير الخ » أي ان هذه الحركات لما تأملت سمو الخالق وعظمته ، رأت وجه تلك « العظمة » ووجه ذلك « السمو » في أزليته تعالى وسائر صفاته ، التي لا تُدرَك ، حينئذ كفوا عن التأمل « فغطوا وجهه » استعارة أو مجازاً

الى الكف عن التأمل • ثم تأملوا بحركات أخرى أو من ناحية أخرى قرأوا ان هذا الاله العظيم سوف يترك عرشه الرفيع العالي ، ويخلي مجده السامي فيتخذ له جسداً ويتألم ويصلب ، اعتراهم الذهول وأخذت الدهشة منهم كل مأخذ « فغطوا رجليه » أي كفّوا عن التأمل في أمر التجسد ، وانصرفوا عن البحث والاستقصاء ولما لم يكن في وسعهم لزام السكوت أمام تلك العظمة وذياك الجلال أشار بعضهم الى بعض للتسبيح والتقديس « قدوس قدوس قدوس الخ » حقاً انه مجيد عظيم في رفعته وفي تواضعه في السماء وعلى الأرض ، وهذا ما عناه يوحنا بقوله « قال أشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه » (يو ١٢ : ٤١)(١) •

وظائفهم الأخرى

أما وظائفهم على الأرض فتقوم بحراسة المؤمنين أفراداً وجماعات ، والاهتمام بعناية الأمم والأقطار والعناصر الطبيعية « أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة ترسل للخدمة من أجل الذين سيرثون الخلاص » (عب ١ : ١٤) • وسنشرح كل خدمة على حدة •

١ ـ حراسة الأفراد :

يحرس الملائكة أفراد الجنس البشري دون استثناء ، سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين ، أشراراً أم أبراراً ، يعنون بشؤونهم ، ويوجهونهم نحو الخير والفضيلة ويقودونهم الى طرق البر ومسالك الصلاح • والملاك الخاص الذي يتولى حراسة الفرد والعناية بشؤونه يسمى « بالملاك الحارس » وقد استند اللاهوتيون في دعم هذا الرأي وتثبيته الى شهادات مستقاة من الكتاب المقدس نحو قول الرب « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأني أقول لكم ان ملائكتهم كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات » (مت ١٨ : ١٠) وقول يعقوب أبي الأسباط « الملاك الذي خلصني من كل شر يبارك الغلامَين (تك ٤٨ : ١٦) • ومن الرأي السائد بين اليهود قبل مجيء المسيح حيث قيل عن القديس بطرس حين أطلقه الملاك من السجن وأتى

---

١ ـ ان الرؤيا التي تجلت للرسول بولس في ٢ كو ١٢ المتعلقة فيما يخص العالم الثاني ومحتوياته ، مماثلة لرؤيا أشعياء من حيث طبيعتها الروحية المحضة ، انما الفارق هو ان أشعياء عبّر عن رؤياه بأشياء محسوسة مستعارة وهو معذور لأنه يتحدث الى أهل العهد القديم ، أما الرسول بولس فلم يستطع أن يستوعبها ولا أن يعبر عنها فاكتفى بقوله « سمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لانسان أن يتكلم بها » (٢ كو ١٢ : ٤ ـ ٧) •

ليلا وقرع باب المنزل الذي كان التلاميذ مجتمعين فيه : ان القارع ليس هو بطرس بل هو ملاكه (اع ١٢ : ١٥) وقول الرسول بولس « لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة » (١ كو ١١ : ١٠) يؤكد ذلك موسى بن كيفا ببرهان لاهوتي فحواه : الكائنات الحية المخلوقة ثلاثة أنواع ، الملاك ، الانسان ، الشيطان ، وان ارادتي الملاك والشيطان على طرفي نقيض ، أما الانسان فهو حرّ يتمتع بسلطة ذاتية ، ان شاء مال الى ارادة الملاك فتبع البر والصلاح وقهر الشيطان ، أو مال الى ارادة الشيطان وتبع الشر « ويبدو ذلك واضحاً من قول فرعون « نهري لي وآنا عملته لنفسي » (خر ٢٩ : ٣) وقول نبوخذنصر « اصعد الى السموات ارفع كرسيّ فوق كواكب الله » (اش ١٤ : ١٦) ، فمهما كان الانسان مغروراً وطائشاً لا يمكن أن يتفوه بمثل هذا الكلام اذ تتقاذفه مثل هذه الأفكار ، ما لم يكن هنالك أرواح شريرة تسوقه الى ذلك كما حدث ليهوذا الاسخريوطي ، وحنانيا وشفيرا ، الذين ملأ الشيطان قلبهم (اع ٥ : ٣) ٠

٢ ـ حراسة الشعوب والأمم :

يعتقد اللاهوتيون بأن لكل شعب وأمة ملاكاً يعتني بشؤونهم ويحرسهم من الآفات ، ويبعد عنهم المكاره ، ذلك استناداً الى ما جاء في الكتاب المقدس « وضع العلي تخوم الأمم على عدد ملائكة الله » (تث ٣٢ : ٨) وجاء في دانيال « لأنه من اليوم الأول الذي فيه جعلت قلبك للفهم ولاذلال نفسك قدام الهك سمع كلامك وأنا أتيت لأجل كلامك ورئيس مملكة فارس وقف مقابلي واحداً وعشرين يوماً وهوذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لاعانتي وأنا أبقيت هناك عند ملوك فارس » (دا ١٠ ـ ١٢) ففي هذه الأقوال يصوّر لنا الوحي معركة الصلاة الحاصلة في السماء ، فقد سمعت صلاة دانيال منذ اليوم الأول الذي بدأ يصلي فيه ، غير أن الملاكين ، ملاك مملكة فارس وملاك العهد الجديد جبرائيل اختلفا في فهم ارادة الله ، فالأول كان يناسب اقامة العبرانيين في بلاد فارس كي يهتدي الوثنيون الى عبادة الله الواحد بواسطتهم ٠ أما الثاني فكان ينوي اطلاق بني اسرائيل وعودتهم الى بلادهم لدنوّ زمن مجيء المسيح ٠ وقد ساعده في ذلك ميخائيل ملاك العبرانيين ، غير انهما وان اختلفا كما يبدو لكنهما كانا متفقين في فكرة الخير والتعبير عن ارادة الله الصالحة ، ومختلفين في كيفية تنفيذها ٠

٣ ـ حمل أرواح الموتى :

يأخذون عبيد الله عند موتهم الى أماكن السعادة كقول لوقا البشير « فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم (لو ١١ : ٢٢) · وقال مار أفرام « انهم يحومون حول قبور الأبرار يخدمون عظامهم ·

٤ ـ حراسة المؤمنين ، والكنائس ، وخدمة القديسين والصلاة على المتضايقين راجع يش ٥:١٤ تك ٤٨:٦ اع ١٢:٧ زك ١:١٢ لو ١١:٢٢ ·

٥ اعتقد بعض اللاهوتيين انهم بالاضافة الى وظائفهم المار ذكرها فهم يحركون العناصر الطبيعية ، الماء والهواء والتراب والرياح والنار ، والأنهار ، والبحار · قال داديشوع في تفسير رومية ٨ : ٢١ سيستمر الملائكة في خدمة البشر والخليقة ما دامت مخضعة للبطل وهي تتمخض وتئن، ولكن متى تحررت من ذلك ستنتهي خدمتهم ·

★ ★ ★

الفصل التاسع

مساواة الملائكة واختلافهم

ذهب معظم اللاهوتيين الكبار ، وصفوة آباء الكنيسة البارزين ، ان الملائكة يختلفون بالطبع · فقد دعاهم ديونيسيوس الاريوفاغي « جواهر » ، وقال مار أفرام ان طبيعة الملائكة ، نار وروح ·

وذهب البعض الآخر وهم قلة الى أن الملائكة متساوون ، كلهم طبع واحد ، انما يتفاوتون من حيث المقام والعمل · أما العلامة ابن العبري فبعد أن يستعرض آراء الفريقين يقول : « يتراءى لي أن جميع الملائكة متساوون بالطبع من حيث كونهم روحيين لا يقعون تحت الحواس ، وأرواحاً خادمة · أما بالنسبة للجوقات التسع فيختلفون طبعاً ، وهذا الاختلاف في الطبع سبب تعدد الأجواق واختلافها ، فكل مجموعة اتفقت طبعاً شكلت جوقة · أما أعضاء الجوق الواحد فيختلفون بالأقنومية الشخصية ويتساوون بالنوعية لذلك فان الأجواق الملائكية تختلف طبعاً وتتساوى جنساً » ·

وقد أورد مار موسى بن كيفا شهادات القديسين مار كيرلس ومار ايوانيس ومار أفرام تثبت اختلاف أطباعهم ، واستطرد قائلا « انهم لا يتساوون في كل شيء ، فلو تساووا في كل الأمور لكانوا ملاكاً واحداً لا ملائكة كثيرين · كما انهم لا يختلفون في كل الأمور لأنهم لو اختلفوا في ذلك جميعاً ، لنتج أن هنالك من هو محدود ومائت وهنالك من هو غير ذلك · اذن يتساوون في أمور ويختلفون في أمور · أما المساواة فمن حيث كونهم جواهر روحية محدودة ، مخلوقة ، ناطقة ، خالدة · وأما الاختلاف فمن حيث المكان والأقنومية والقوة والارادة والسلطان والعقل ·

لا يجوز عبادة الملائكة

لا شك في أن الملائكة كائنات مخلوقة يسميها اللاهوتيون بالخليقة الروحية أو عالم الروح ، خلقت في ابن الله وبه وله كقول الرسول ، « فانه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء

كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين الكل به وله قد خلق (كو ١٦/١) ، وطالما هم مخلوقون فلا يحق لهم العبادة كما يتضح من قول يوحنا الرائي « وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا ، وحين سمعت ونظرت خررت لأسجد أمام رجلي الملاك الذي كان يريني هذا فقال لي انظر لا تفعل لأني عبد معك ومع أخوتك الأنبياء والذين يحفظون أقوال هذا الكتاب اسجد لله (رؤ ٢٢/٨ ــ ٩) لا بل هم مثل البشر يعبدون الله ويسجدون له « وأيضاً متى أدخل البكر الى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله (عب ٦/١) · أما الرسول بولس فقد نهى ذلك محذراً قائلا « لا يخسّركم أحد الجعالة راغباً في التواضع وعبادة الملائكة متداخلا في ما لم ينظره منتفخاً باطلا من قبل ذهنه الجسدي ــ (كو ٢ : ١٨) » ·

أجمع المسيحيون عامة على عدم عبادة الملائكة تمشياً مع روح النصوص الكتابية ، الا أنهم اختلفوا في نوعية تقديم الاكرام والاحترام لهم · فان كنيستنا السريانية الأنطاكية تجلهم وتكرمهم باستمداد تسابيحهم وتهاليلهم وأناشيدهم وتنظيمها في طقوسها ومختلف صلواتها وعبادتها كما أسلفنا · كما تطلب شفاعتهم وتستغيث بابتهالاتهم سيما وان من جملة وظائفهم رفع صلوات القديسين (رو ٣/٨ ــ ٤) · وقد نهت عن اقامة أعياد خاصة بهم وذلك لسببين أولا : لئلا يفسح المجال أمام دعاة الضلال فيسوقون الناس الى عبادة الشياطين بحجة عبادة الملائكة · ثانياً : لأنهم لم يستشهدوا من أجل المسيح ، لأن الذين استشهدوا في سبيل المسيح مهما بولغ في اكرامهم واحترامهم ، ومهما أقيمت لهم الأعياد والاحتفالات على مختلف المناسبات ، فلا يمكن أن يتسرب الى الذهن نسب الألوهة اليهم لكونهم جسديين بعكس الملائكة · وقد سلك الكتاب المقدس نفس الطريقة اذ نعت البشر « بالمخلوقين على صورة الله » ووصفهم « بأبناء الله » في حين انه لم يدع الملائكة سوى خدام ، ردعاً للبشر من الميل الى عبادتهم · هذا وقد جاء في القانون الخامس والثلاثين من مجموعة قوانين اللاذقية « لا يجب على المسيحيين أن يتركوا كنيسة الله ، ويتسموا بأسماء الملائكة ، ويشيدوا الهياكل ، ويقيموا المحافل ، فكل ذلك مرذول » ·

تفضيل الملائكة على البشر

طرق هذا الموضوع كلا من الملفانين مار موسى بن كيفا وابن العبري ، وقابلا طبع الملائكة بطبع البشر فوجداه أفضل وأسمى بكثير وندرج أدناه البراهين التي قدمها العلامة ابن العبري لتبيان وجه المفاضلة :

١ ـ الملائكة خلائق نورانية علوية مستنيرة ، منزهة عن الشهوة والغضب والتخيل ، الأمور التي هي حجب كثيفة تمنع تسرب أشعة أنوار الله ، وأما البشر فمهما تساموا في درجات الكمال فهم أرضيون ، مظلمون ، مرتبطون بجسد ترابي ، معرّضون للشهوة والغضب ، لذلك فالملائكة أفضل من البشر ٠

٢ ـ الملائكة هادون للأنبياء والرسل وسائر الكاملين ، وواضح أن الهادي أفضل من المهتدي ٠

٣ ـ الملاك وسيط بين الله والبشر ، فكما أن الله أفضل من الملائكة هكذا فان الملائكة أفضل من البشر ٠

٤ ـ الأجسام تكمل باتحادها بالأنفس الناطقة ، والأنفس تكمل باتباعها الملائكة وانتسابها اليهم ٠ وما يكون علة في اكمال الشيء ، هو ضرورة أفضل من المعلول ٠

٥ ـ الملائكة رسل الله الى الأنبياء ، والأنبياء رسل الى الشعب ٠ كما أن النبي أفضل من الشعب ، هكذا الملائكة أفضل من الأنبياء ٠

٦ ـ الملاك صعب الميل والانقياد الى الشر ، أما البشر فبالعكس ، والأول أفضل ٠

٧ ـ اذا كان ناسوت المسيح أنقص من الملائكة « وضعته قليلا عن الملائكة » (عب ٢ : ٧) فأين البشر اذن من الملائكة ؟!

٨ ـ من اجماع معظم الآباء القدامى المعول عليهم على ذلك ٠

وبعد أن ينتهي العلامة ابن العبري من ايراد هذه الأدلة يستطرد فيستعرض آراء الذين يعتقدون عكس ذلك أي يفضلون البشر على الملائكة ثم ينقضها انتصاراً للرأي الأول ٠

ندرجها هنا بالاختصار تعميماً للفائدة :

١ ـ ان الانسان خلق على صورة الله وشبهه كقول الكتاب (تك ١ : ٢٧) ودعي أبناء لله (مت ٦ : ٦) « أما الملائكة فلم يحصلوا على هذه الامتيازات ٠

٢ ـ لقد أعلن سر التجسد الالهي للملائكة بواسطة البشر ٠

٣ ـ الانسان يرضي الله ببذل مجهود كبير شاق ، بمحاربة القوى المضادة في داخله كالشهوة والحقد والتخيل ، أما الملائكة فيرضونه بدون عناء أو

اجهاد ، ومن يرضي الرب عن طريق الجهاد والتجارب والمحن أفضل من غيره ٠

٤ ـ الانسان بالرغم من الشكوك الكثيرة التي يتعرض لها فهو يؤمن بوجود الله ووحدانيته وتثليث أقانيمه وتوحيدها ، أما الملائكة فيدركون هذه الأمور بصورة أجلى وأوضح وبمعزل عن الشكوك ٠ وواضح من قول الرب ان الذي لا يرى ويؤمن أفضل ممن يرى ويؤمن ٠

٥ ـ للملائكة عقل فقط وليس لهم غضب أو شهوة ، وللحيوانات الغير الناطقة ، غضب وشهوة وليس لهم عقل ، أما الانسان فله عقل وغضب وشهوة ، فكما انه يصبح أحط من الحيوانات عندما يستولي الغضب والشهوة على عقله ، هكذا أيضاً يصبح أسمى من الملائكة لما يستولي عقله على غضبه وشهوته ٠

٦ ـ من قول يوحنا الرائي « وقال لي اكتب طوبى للمدعويين الى عشاء عرس الخروف ، وقال هذه هي أقوال الله الصادقة ، فخررت أمام رجليه لأسجد له فقال لي انظر لا تفعل أنا عبد معك ومع أخوتك الذين عندهم شهادة يسوع ، اسجد لله فان شهادة يسوع هي روح النبوة (رؤ ١٩ : ٩ ـ ١٠) » ٠

هذه هي أشهر آراء مفضلي البشر على الملائكة ، يستعرضها ابن العبري ثم ينقضها رأياً فرأياً/ ١ ـ يعزو ما جاء في الرأي الأول : الى تشجيع الله للانسان لئلا يستهين بحقارته وضعته لا الى تفوقه في الأفضلية على الملائكة/ ٢ ـ ويقول في نقض الرأي الثاني : ان معرفة الملائكة عن سر التجسد لم تحصل بواسطة البشر بل لكون المسيح أخذ من البشر أضف الى هذا ان الملائكة أنفسهم أعلنوا عن بشارة الفداء وكشف بعض غوامض السر كما يظهر من الكتاب المقدس/ ٣ ـ ويدحض الرأي الثالث : بما خلاصته «اذا كان الأمر كذلك لكان الأبله الغبي اذن الذي يحل سؤالا واحداً في عشرة أيام أفضل من ذكي لبق يحل عشرة أسئلة في ساعة واحدة ٤ ـ ويقول في نقض الرأي الرابع : ان من يعاين الحق جهراً ويدركه ويؤمن به أفضل ممن هو على العكس من ذلك ٠ وان الطوبى الذي أعطاه الرب للذين آمنوا به ولم يروه لم يكن الا تقريعاً للذين رأوه ولم يؤمنوا به وليس تفضيلا على الذين رأوه وآمنوا به ، والا لكان أصغر فرد بين البشر أفضل من بطرس الرسول الذي صلب منكس الرأس ومن غيره من الرسل القديسين الذين

بذلوا الأعناق حباً بالمسيح ، وهذا غير معقول ٥ ــ ويقــول في نقض الآراء الأخرى ان الانسان مهما انحط خلقياً وخضع لقواه الشهوية والغضبية فلا يمكن أن يصبح أحط من الحيوانات ، وكذلك مهمــا تسامى في عمل البــر والصلاح فلا يمكن أن يسمو على الملائكة ويفوقهم براً وصلاحاً ٠ فهو دائماً وسيط بين الطرفين ٠

ثم يختتم العلامة ابن العبري بحثه عن الملائكة ، بسرد آراء الوثنيين ، فالنظريات المنسوبة الى فلاسفتهم، أخذا عن أفلوطين والأفلاطونية المستحدثة ثم يتطرق الى نظرية الفيض لابن سينا ، وأخيراً يورد بعض الأخبار المتعلقة بعبادة الملائكة استحدثها أناس مبتدعون ٠

★ ★ ★

في الملائكة الأشرار

الفصل الأول

في وجود الشياطين

من البراهين التي تؤيد وجود الأرواح الشريرة ما يلي :

١ ـ ان ما يخطر على قلب الانسان من أفكار شريرة، وما تتولد في نفسه من ميول سيئة ، أما أن يكون سببها الانسان ذاته أو غيره والافتراض الأول لايصح لأن الانسان في أغلب الأحيان يأتي عمل الشرمرغماً ودون ارادته ، وكثيراً ما يدخل معه في صراع شديد لصده ومنعه اذن سبب الشر يكون غيره وهذا الغير اما أن يكون الله أو الملاك أو الشيطان والحال لا يمكن أن يكون لا الله ولا الملاك لأنهما صالحان والصالح لا يأتِ الا صلاحاً وخيراً وبالتالي يكون الشيطان وحده مصدر الشر ، اذن الشَيطان موجود ٠

٢ ـ ان كل شيء اما أن يكون صالحاً بكليته أو طالحاً بكليته ، واما أن يكون الصلاح فيه غالباً للشر أو الشر غالباً للصلاح ، أو أن يكون خيره وشره متساويين فالأول هو الله جل شأنه والثاني غير موجود لأن الله لم يخلق شيئاً هو شر محض والثالث هم الملائكة والرابع الشياطين والخامس هو الانسان ٠

٣ ـ من شواهد الكتاب المقدس :

« وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات » (تك ٣ : ١) وبما أن الحية حيوان غير ناطق فمن باب المستحيل أن تتحدث الى آدم بمثل ذلك الكلام ، فيكون الشيطان حتماً ظهر لآدم بشكل الحية وخدعه « فقال الرب للشيطان ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه » (١ يو ٢ : ٦) « رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء » (لو ١٠ : ١٧) ٠

الفصل الثاني

في ماهية الشياطين

لقد ذهب العلماء في تحديد ماهية الشياطين مذاهب مختلفة متعددة نستعرض منها خمسة :

١ ـ اعتقد البعض بأن الشياطين عبارة عن أجسام هوائية لطيفة لها القدرة أن تتظاهر بأشكال متعددة مختلفة ، وتتغلغل في البشر والحيوانات وتؤثر في الجمادات وسائر الكائنات ·

٢ ـ وزعم بعضهم أنها الأنفس الخاطئة التي في حالة انفصالها عن أجسادها أثناء الموت لا يحق لها الانتساب الى صفوف الملائكة القديسين لذلك تضطر أن تتحد بأجساد أخرى ·

٣ ـ وذهب آخرون أن الشياطين متغلغلون في العناصر الأربعة النار ، الهواء ، الماء ، التراب ، ففي حالة وجودهم في النار تسمى النار جهنماً كما أيّد الرسول بولس وجودهم في الهواء « رئيس الهواء » ، وكذلك عندما اعتمد الرب سحق رأس الحية التي كانت مخفية في الماء ، وأما وجودهم في عنصر التراب فيؤيدها قول المرتل الالهي « أبناء الأرض والبشر » ·

٤ ـ وارتأى آخرون أن مبعث الانفعالات الداخلية في الانسان كالحقد والغضب والشهوة هم الشياطين ·

٥ ـ واعتقد ماني وأتباعه بالهين اله الخير واله الشر ، وهذا الأخير هو الشيطان ·

أما اعتقاد الكنيسة المستمد من الكتاب المقدس ان الشيطان ملاك ساقط على حد قول الرسول بولس « فان مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات » (افسس ٦ : ١٢) هذا هو اعتقاد الكنيسة الصحيح ·

الفصـــل الثالث

في علة وكيفية سقوط الشياطين

يرى اللاهوتيون في سقوط الشيطان علتين أو سببين :

١ ــ عدم رسوخهم في الخير والصلاح ·

٢ ــ الكبرياء والعجرفة ، استناداً على الآية الـواردة في أشـعيا « كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبـح ، كيـف قطعت الى الأرض يا قاهر الأمم وأنت قلت في قلبك اصعد الى السماوات ، ارفع كرسي فوق كواكب الله ، واجلس على جبل الاجتمـاع في أقاصي الأرض في أقاصي الشمال اصعد فوق مرتفعات السحاب أصير مثل العلي لكنك انحدرت الى الهاوية الى أسفل الجب » (أشعيا ١٤ : ١٢) ·

وقد زعم بعضهم أن الله أمر الشيطان بالسـجود لآدم عند خلقه عـلى صورته ومثاله غير أن الشيطان عز عليه أن يسجد لانسان ذي طبع أدنى من طبعه فتمرد وامتنع عن السجود وقد جاء ما يشبه هذا الرأي في ميمر القديس مار يعقوب السروجي عن الأيام الستة غير أن يعقوب الرهـاوي أثبت أن هذه الآراء في ميمر السروجي ليست له انما جاءت مدسوسة فيه · هذا سبب سقوط الشيطان ، أما كيفيـة ذلك أن الشياطـين الساقطين مجموعـة من الطغمات التسعة المار شرحها سابقاً فليسوا اذن من طغمة واحدة وذلك بدليل قول الرب « هذا الجنس لا يخرج الا بالصوم والصلاة » ومن قول الرسـول بولس « ان مصارعتنا ليست مع دم ولحم الخ » ·

قال العلامة ابن الصليبي (مثل الحجارة التي تنهال من رأس الجبـل متدحرجة الى الأسفل فتصطدم بحجـارة كثـيرة غير ثابتـة فتتبعها هكـذا الشياطين كونهم غير مؤسسين في الخير والصلاح باختيارهـم وحريتهم مـع رئيسهم اللعين تهوروا نازلين الى أعماق الخطيئة) ·

ومما أشكل على اللاهوتيين والمفسرين تشخيص الطغمة التي ينتمي اليها رئيس الشياطين وقد استنتج بعضهم انهم من طغمة الكاروبيم وهو رأي خاص لا يدعمه برهان أو دليل ·

الفصل الرابع

في طبيعة الشياطين

آ ـ الشيطان جوهر روحي ، غير مرتبط بجسم مخلوق ناطق أصله ملاك أتى فكراً شريراً فسقط من رتبته وكان سقوطه عظيماً ٠

ب ـ خلقه الله في حالة البر والقداسة ، حُراً يتمتع بسلطة ذاتية غير آنه أساء التصرف بحريته وسلطته الذاتية فمال الى الشر وسقط ٠

ج ـ ان الشيطان رسخ في الشر لذلك أصبح من المستحيل أن يرجع الى حالة البر التي كان عليها في أول خلقته ٠

يتساءل البعض هل يمكن أن يتوب الشيطان فيرجع الى منزلته الأولى ؟ مَنْ يتأمل لطف الله وطول أناته ، وعدله ، وغنى مراحمه ، وعمق محبته ، يستلزم أن يعتقد دون أي ريب بقبول الله توبة الشياطين وهذا رأي عام لم يختلف فيه اثنان من علماء الكتاب المقدس ومفسريه ٠ غير أن الاختلاف يدور حول السؤال التالي : هل يتوب الشيطان ؟ « والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم الى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام » (يهوذا ١ : ٦) يعتقد بعضهم وفي مقدمتهم مار ايوانيس الداري ان الأمر من الأسرار التي لا يستطيع الانسان الاجابة عليها ٠ وذهب فريق آخر بزعامة اسطيفان بن الصديلي بأنهم يتوبون ويعودون الى منزلتهم الأولى معززين مكرمين دون أن يدعموا رأيه ببرهان ٠ وأكد فريق ثالث يتزعمه العلامة ابن العبري أن الشيطان لا يمكن أن يتوب لرسوخه في الشر ٠

د ـ ان الشياطين سقطوا من الرتب الملائكية المختلفة لذا فهم متفاوتون في الشر والقوة ، انما هم متساوون في الطبع فقط ٠

الفصل الخامس

في علم الشياطين

١ ــ أثبتنا أن الشيطان مخلوق ناطق وحيث أنه كذلك فهو يعلم ويُدرك ·

٢ ــ يعلم الشيطان أنه معلول وبالتالي يعرف ضرورة علته أيضاً التي هي الله وهذا ما يؤيده الكتاب المقدس ·

آ ــ من مجرى حديثه مع أبي الجنس البشري في الفردوس ·

ب ــ « وكان في مجمعهم رجل به روح نجس ، فصرخ قائلا آه مالنا ولك يا يسوع الناصري أتيت لتهلكنا أنا أعرفك من أنت قدوس الله » (مرقس ١ : ٢٣ و ٢٤) ·

ج ــ « صرخت (الجارية التي بها روح عرافة) قائلة هؤلاء الناس هم عبيد الله العلي الذين ينادون لكم بطريق الخلاص » (اع ١٦ : ١٧) ·

د ــ « فأجاب الروح الشرير وقال « أما يسوع فأنا أعرفه وبولس أنا أعلم (اع ١٩ : ١٥) ·

٣ ــ الانسان في أكثر أعماله يُقاوم ارادته كقول الرسول « لأني لست أعرف ما أنا أفعله اذ لستُ أفعل ما أريد بل ما أبغضه فاياه أفعل » (رو ٧ : ١٥) وذلك راجع الى وجود قوى طبيعية فيه تضاد نفسه الناطقة كقول الرسول ذاته « فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فيَّ » (رو ٧ : ١٨) وهذا يدل على أن الانسان لا يرضى في عمل الشر وأن يعمله أما الشياطين فحيث أنها جواهر روحية غير مرتبطة بأجسام مادية تلجأهم الى اتيان ما يأتيه الانسان فان كل ما يعملونه يتم بارادتهم برضاً تام ·

٤ ــ نستدل من قول الرب « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وبيت ينقسم على بيت يسقط فان كان الشيطان أيضاً ينقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته » (لو ١١ : ١٩) ان الشياطين على اختلاف درجاتهم وقوتهم وادراكهم متفقون على اتيان الشرور واضلال البشر ، وبنفس الوقت لا يحبون بعضهم بعضاً بدليل الوصف الذي خلعه الرسول بولس على أناس هم آلات للشياطين « بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رحمة » (رو ١ : ٣١) ·

الفصل السادس

في محاربة الشياطين للبشر

١ ــ وضع العلماء ثلاثة مبادىء أو أصول تسبق الأعمال البشرية عامة :

١ ــ ادراك الشيء المفيد وادراك الشيء المؤذي والمضر ·

٢ ــ اتجاه الفكر وميله لاكتساب المفيد المدرك ونبذ المضر والمؤذي المُدرك ·

٣ ــ تحريك قوى أعضاء الجسدية لاتمام الاكتساب أو النبذ ·

من الواضح النوع الثالث لا يمكن أن يكون سبباً لسقطة الانسان ، لأنه لولا وجود مبدأ الثاني أي ميل الفكر واتجاهه نحو شيء لما تحركت أعضاء الجسم لتنفيذه واكماله ، وكذلك لا يمكن أن يكون مبدأ الثاني سبباً لسقطة الانسان لأنه لولا وجود المبدأ الأول أي ادراك الشيء المُضر أو

المفيد لما مال الفكر واتجه الى اكتسابه أو نبذه ، ينتج اذن أن الشيطان يكون سبباً لسقطتنا ويحاربنا عند المبدأ الأول ، أعني أن الشيطان يبذل وسعه لاسعاد الأمور الشريرة على قلب الانسان وفكره وتجسيمها وتجميلها حتى يميل اليها فيكمل الانسان المبدأ الثاني بحريته ثم تتحرك القوى الجسدية لاكتسابها وهكذا تكتمل ارادة الشيطان ·

٢ ــ ان للشيطان في محاربته للبشر طُرقاً خاصة مختلفة فمنهم يحاربهم بالشراهة ومنهم بالفجور ومنهم بالسرقة الخ ·

★ ★ ★

الفردوس الارضي

تحديد الفردوس وموقعه

تحديده : ميَّز الآباء القديسون ما بين « عدن » و « الفردوس » فجعلوا عدن محلا واسعاً ، خصباً ، تتكاثف فيه مختلف الأشجار ، في وسطها بقعة أغدق الله عليها خصباً ، وبهاء ، وحباها جمالا وفتنة ، أضعاف عدن ، تسمى « بالفردوس » · فكما أن عدن هي أفضل من الأرض بكثير هكذا والفردوس أفضل من عدن بكثير ، والنسبة بينهما كالنسبة القائمة ما بين عدن والأرض ·

موقعه : زعم بعضهم خطأ أن موقع الفردوس هو السماء ، وذلك استنتاجاً من قول الرسول بولس عن نفسه « أنه اختطف الى السماء الثالثة ، واختطف الى الفردوس (٢ كو ١٢ : ٢ و ٤) · واذا أمعنَّا النظر في ما رواه الرسول عن نفسه أدركنا بكل سهولة أن الرسول يتحدث عن اعلانات ورؤى كثيرة لا عن اعلان واحد أو رؤيا واحدة · قال : « فاني آتي الى مناظر الرب واعلاناته » (٢ كو ١٢ : ١) · فمن المحتمل أن يكون قد اختطف الى السماء أولا ثم الى الفردوس · واذا سلَّمنا جدلا بأنه اختطف الى السماء والفردوس في آن واحد ، فما المانع من أن نعتقد أن الرسول عنى بالفردوس جمال الملائكة المدهش أو سناء الكواكب الجميل ؟

اعتقد آباء الكنيسة أن الفردوس هو في الأرض لا في السماء ، كما يتضح من الأمور التالية : (١) « رواية سفر التكوين » « وغرس الرب الآله جنة في عدن شرقاً · الخ » · (٢) من قول الرب للص اليمين « الحق أقول لك ستكون اليوم معي في الفردوس » · وواضح أن الرب بعد قوله هذا نزل الى القبر · هذا اذا ضربنا صفحاً عن قوله « وليس أحد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي هو في السماء » (يو ٣ : ١٣) ·

ومهما يكن من الأمر ، فالفردوس موجود في بقعة أرضية طبيعية لم يتفق العلماء على تعيينها وتحديدها ووصفها أكثر مما جاء في الكتاب المقدس « انها تقع شرقاً » · قال مار أفرام « الفردوس يحيط بالأرض كما

تحيط الهالة بالقمر » • وهو أكبر من الأرض أضعافا ، لا يستطيع أحد من البشر أن يبلغ اليه بالجسد ، قد يمكن ذلك عن طريق الاختطاف بالغمام وبقوة الله كما حدث لايليا النبي مثلا ، أو عن طريق الرؤيا والاعلان كاختطاف القديس بولس •

ويخلع عليه الآباء كل صفات الجمال والبهاء ، فيصوّرونه يشعّ نوراً وسناء لامعاً كالأجرام السماوية النيِّرة ، لا أثر للظلمة فيه ، صاف ، نقيّ ، لا يشوبه ما يحدث للأرض من الغبار وما أشبه ، وتختلف طبيعة أرضه وما فيها من نبات وجماد ومياه عن أرضنا وما فيها •

قال القديس باسيليوس : « اننا نتجه في الصلاة نحو المشرق ، لا لأن الله الذي لا يرى موجود في تلك الجهة دون سواها • انه موجود في كل مكان ولا يُدرك • بل لاعتقادنا أن موطننا الأول هو المشرق ، فهنالك حياة الفردوس التي فقدناها » • وقال القديس مار سويريوس الأنطاكي في ميمره المعنون ب « لماذا نسجد الى جهة المشرق » ، « لأن الفردوس هو في المشرق ، وقد طردنا منه وننتظر العودة اليه » •

زمن خلقته

لم يحدد الكتاب بصراحة زمن خلقة الفردوس • فقد جاء ذكره بعد خلقة الانسان • الا أن الاستنتاج العقلي يحدد اليوم الثالث زمناً لخلقته ، وهو اليوم الذي فيه خلق العشب والنبات والأشجار • وما الفردوس الا بقعة مليئة بالأشجار خلق لأجل آدم • وهذا أمر ثابت أكيد • أما قول الكتاب : وغرس الرب الآله جنة في عدن شرقاً بعد وجود الانسان ، فذلك يدل على التخصيص بالنسبة الى حاجة الانسان — ولم يذكر منذ اليوم الثالث لعدم الحاجة اليه يومئذ • وهنالك اعتراضان على هذا الرأي، **الأول :** اذا كانت خلقة الفردوس في اليوم الثالث ، وخلقة آدم في اليوم السادس فلماذا يذكر كتاب الله خلقة الفردوس بعد ذكر الخليقة كلها ؟ نجيب • ان خبر خلقة الفردوس كان يقتضي أن يفرد له بحث خاص مسهب ، لذلك أرجىء ذكره الى نهاية اتمام الخلقة برمتها • والدليل على خلقته في اليوم الثالث هو انه يشابه سائر المخلوقات من حيث طبيعته المادية المركَّبة من العناصر الأربعة ، ويتضح ذلك من كون أشجاره كانت حاملة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً • ومن تأثير جدة الأرض ، ونقاء الهواء ، وصفاء الجو كانت أشجاره دائمة الخضرة طيلة السنة ، ولم تؤثر فيها تقلبات

الفصول·الثاني : اذاكان الفردوس قد خلق لأجل آدم · وآدم طرد منه عاجلا ، فيبقى اذاً وجوده عبثاً · وهل يجدر بالحكمة الالهية أن تعمل شيئاً عبثاً ولا سيما كالفردوس ؟ قال مار موسى ابن كيفا : ان الفردوس سيبقى خالياً فارغاً · وأورد بعض البراهين لاثبات رأيه · أما العلاّمة ابن العبري فخالفه في الرأي قائلا : ان الفردوس لم يُخلق عبثاً ، فقد سكنه آدم وحواء في البدء ، وبعد خروجهما منه بمدة عادت اليه أنفس الصالحين الذين أرضوا الله بأعمالهم كابراهيم واسحق ويعقوب والأنبياء ، واللص اليميني ، والرسل ، والشهداء ، وأخنوخ وايليا ، وسيظل موطناً لهؤلاء جميعاً الى يوم القيامة · وأما بعد القيامة فستسكنه بعض الأنفس التي لا تستحق الملكوت كما لا تستحق العذاب · وقد قال الرب « في بيت أبي منازل كثيرة » ولِمَ لا تكون جنة عدن أو الفردوس أحد تلك المنازل ؟ واذا كانت هذه الأمور التي أيدها ملافنة البيعة حقيقية وهي كذلك ، فيكون الفردوس لم يخلق عبثاً ·

طبيعته :

تقرأ في الكتاب المقدس عن الفردوس فتراه جنة عادية تحتوي على أشجار وأثمار وأزهار ، وهي والحالة هذه مثل بقية الجنائن المعروفة الآن ، ولآباء الكنيسة نظرات تفسيرية في قضية الفردوس وهي ثلاثة آراء ووجهات نظر :

الأول : جعل الملافنة الفردوس لا يخرج عن كونه شيئاً مادياً عادياً ليس الا ، قال الذهبي الفم : « ان الفردوس رأته عين آدم وسمعته أذنه ، وخطر على قلبه » · وأكد القديس كيرلس الاسكندري ذلك بقوله : « ان أول من سكن اليهودية كان آدم بعد خروجه من الفردوس » · وقال القديس مار سويريوس : « وأما الفردوس فقد رأته عين آدم وسمعته أذنه · فانه كان يسمع بين أشجار الفردوس « من جميع الأشجار تأكل أكلا » · وأما شجرة المعرفة فكان مباحاً له أن يراها لا أن يأكل منها » · وقال يوحنا المتوحّد في مقالة عن علة هذا العالم : « لا يظنن أحد أن أشجار الفردوس لم تكن حقيقية ، لأن قول الله يؤيد ذلك · فان موسى قال عن حواء أنها مدت يدها فقطفت وأكلت · وكيف تستطيع أن تقطف ما لا يمس ، وأن تأخذ ما هو روحي ، في حين ان الشيء الروحي لا ينقسم وبالتالي لا وجود مادي له » ·

الثاني : ارتأى ملافنة آخرون ، أن الفردوس ولئن مثّل بأمور مادية محسوسة الا أنه كان روحانياً صرفاً ، فيه قوة تمتع النفس بلذات روحية وميزات نفسية لا تقع تحت الحواس الظاهرة ، وسلوك روحي بكمال القداسة والطهر ، والتأمل بالالهيات • ودونك بعض هذه الأقوال : قال القديس غريغوريوس النوسي في مقالته عن تكوين الانسان : اذن فان غرسة الله في عدن كانت اللذة المعبَّر عنها بعدن ، ومنها وبها كان يقتات الانسان بدون أي شك • فلا تفكرنَّ أن الفردوس كان عبارة عن هذا الثمر الزائل الفاني » • وقال القديس مار فيلوكسينوس المنبجي في مقالته عن شجرة الحياة « للفردوس معانٍ روحية » • وقال مار يعقوب الرهاوي في مقالة لاهوتية « ان موسى تكلمَ عن الفردوس رمزياً » •

الثالث : وارتأى بعض علماء الكنيسة أيضاً ان الفردوس كان روحياً ومادياً في آن واحد لأنه وجد لتمتع الانسان • ولما كان الانسان مركباً من نفس وجسد وهما جوهران يختلفان طبعاً الواحد مادي والآخر روحي ، وجب من ثم ومن باب الضرورة أن يكون الفردوس مادياً وروحياً أيضاً • ليمتع جزئي الانسان المادي والروحي ، فجسده يتمتع بالأثمار والأشجار والأزهار وهذا يسمى « الفردوس المادي » والنفس تتمتع بأطايب روحية وعقلية أعدها الله لها في ربوع الفردوس وهذا يسمى « الفردوس الروحي ». قال القديس غريغوريوس التاولوغوس في اثبات مادية الفردوس « خشبة ازاء خشبة » أي خشبة الصليب بدلا من خشبة شجرة المعرفة » • وقال مؤيداً روحانيته « وضع آدم في الفردوس أياً كان نوع هذا الفردوس ، وميَّزه بالحرية المطلقة ليعمل الخير باختياره » •

ملاحظة : ان الذين يؤيدون روحانية الفردوس يشيرون اليه تارة بأنه « الكنيسة » وطوراً « العهد الجديد » وأحياناً « النفس الناطقة » والأشجار « فضائلها » ، ومياهه « قواها » • ويقول آخرون : ان الكتاب حدثنا عن الفردوس رمزياً • ويؤيدون ذلك من قول الكتاب « وغرس الله الفردوس شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله » • ومعنى ذلك أن الله أوجد أعمالا روحية وأعدَّ حياة سعيدة للانسان بواسطة الناموس الذي سنَّه له •

هذه أهم آراء علماء الكنيسة في الفردوس • لا شك في أننا حين نقرأ في الكتاب المقدس « وغرس الرب الاله الخ » نفهم أن الله أعد للانسان كل شيء لمتعته نفساً وجسداً • فأعد لنفسه ككائن عاقل ، حرية وقداسة وطهراً • وأعد لجسده كل موجود حيواني للأكل • ولم يكن يفكر البتة في الشر بدليل تجواله عارياً بين أشجار الفردوس دون أن يخجل الرجل والمرأة

الواحد من الآخر . ومنذ دخول المعصية دخل الخجل أيضاً وأخذ الانسان يحاول أن يغطي شرّه . ولكنه عبثاً يحاول ذلك ما لم يعد الى الطفولة والبساطة والبراءة . وهذا ما عبَّر عنه الرب بقوله «ان لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال لن تدخلوا ملكوت السماء » .

الفارق ما بين ملكوت السماء ، والفردوس

الملكوت هو معرفة الثالوث الأقدس ، وهو أزلي روحاني سماوي كما أكَّد السيد المسيح بقوله « من عرف الآب فقد عرف الابن » (يو ٨ : ١٩) . وقد وعد باعطاء مفاتيحه للقديس بطرس الرسول ورفاقه ، وعندما كان يتأهب ليصعد الى السماء ويجلس عن يمين أبيه ، قال لتلاميذه : أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً ، وان مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم اليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » (يو ١٤ : ٣) . وقال أيضاً « ان ملكوت الله معدّ منذ انشاء العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) . وقال الرسول بولس « لأننا نعلم انه ان نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد ، أبدي » (٢ كو ٥ : ١) وقال أيضاً : «بل كما هو مكتوب ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) . هذا وان الرب قبيل صعوده أملى على تلاميذه بعض الأمور المختصة بملكوت الله (أع ١ : ٣) . وقال القديس أوغريس « أن مفاتيح ملكوت السماء هي موهبة روحية ظاهرة للعقل ، وخدمة روحية محضة وما يختص بالأمور الالهية » .

هذا هو ملكوت السموات . أما الفردوس فشيء مخلوق ، زمني ، مادي ، أرضي ، كما يظهر من تعاليم موسى والأنبياء والآباء .

اعتراضات :

أولا : اذا كان الفردوس مضاعفاً مادياً وروحياً معاً ، وان مفهوم الفردوس الروحاني هو اللذة الروحية التي تحصل للنفس عن طريق تأملّها في الالهيات ، وان ملكوت السماء هو هذه اللذة الروحية بالذات ، فيكون الأمران مسميين لشيء واحد ، أي ان الفردوس هو الملكوت وبالعكس .

الرد : ان الفردوس ولئن كان نعيماً روحياً عقلياً وتأملا في الالهيات ومفهوم الملكوت بالذات ، الا أن هنالك فارقاً كبيراً بين الاثنين ، فالفروس الروحي يعني نعيماً عقلياً وتأملا آلهياً في الكائنات والمخلوقات كالجواهر

الطبيعية المادية البسيطة والأولية والجواهر الثانية التي تتركب منها كالنبات والحيوان والأجرام السماوية ، والحركات الطبيعية والارادية لهذا العالم ، ومعرفة الطبائع العاقلة كالنفس البشرية والملائكة · وواضح أن العقل عندما يقف على هذه الحقائق ويدركها تمام الادراك ويقيم بينها ، يحصل على لذة كبيرة جداً ، وهذه اللذة تفوق لذة الحواس بادراك محسوساتها · هذا هو الفردوس الروحي الى جانب ماديته القائمة على الأشجار والأثمار الخ · أما ملكوت السموات فهو أعظم شأناً من الفردوس الروحي أضعافاً · اذ انه يختص بمعرفة الطبع الوحيد الأزلي الالهي الذي يُعرف بتثليث الأقانيم وتوحيدها · فكما أن التأمل العقلي في الله جلَّ جلاله أرفع شأناً وأسمى قدراً من التأملات العقلية في الفردوس . كذلك أيضاً اللذة الكائنة في ملكوت السماء تفوق لذّات الفردوس الروحي ·

★ ★ ★

شجرة المعرفة

شجرة معرفة الخير والشر (تك ٢ : ١٥ ـ ١٧)

يخبرنا الكتاب المقدس عن شجرة « المعرفة » هذا الخبر البسيط « وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوصى الرب الاله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٥ـ١٧) ، ثم يسكت عنه • ومع هذا فانه يحمل مع بساطته معاني كثيرة كما فهم ذلك علماء الكتاب المقدس منذ العصور المسيحية الأولى وهذه أشهر آرائهم : انهم لطالما جعلوا الفردوس مادياً وروحياً في آن واحد ، فبطبيعة الحال يكون تعبير هذه الشجرة أيضاً ذا معانٍ مادية وروحية •

أولا : روحانية الشجرة : ١ ـ قال بعضهم ان شجرة المعرفة بمعناها « الروحي » هو هبوط العقل من معرفة الله الى معرفة المخلوقات وبين هذين النوعين من المعرفة كان الخير والشر معلقين ، فما دام العقل معلقاً بمعرفة الله وحدها كان ملتصقاً بالخير ، ولكنه لما تزعزع فهبط من عليائه الى معرفة المخلوقات شعر بأن ذلك ضد الخير وبالتالي هو شرّ • ٢ ـ قال غيرهم ان شجرة المعرفة كانت رمزاً الى الناموس الموسوي الذي فيه تعلم الانسان لأول مرة التمييز ما بين الخير والشر ، وما بين الحلال والحرام ، والطاهر والنجس ، ٣ ـ وقال غيرهم وفي مقدمتهم مار موسى بن كيفا أن شجرة « المعرفة » هي الايمان بالله ، وما دام هذا الايمان قويماً فذاك هو الخير ، واذا كان هذا الايمان (هرطقة) ضلالا فذاك هو الشر • ٤ ـ وقال آخرون ان شجرة المعرفة لم تكن شيئاً حقيقياً بل رمزاً الى الزواج الذي كان قد منع الله آدم وحواء منه ، حفاظاً على الطهر والقداسة •

هذه أهم الآراء التي قدّمها آباء الكنيسة وعلماء الكتاب المقدّس في شجرة معرفة الخير والشر ، ونرى العلامة ابن العبري يستعرضها ويناقشها ليثبت الرأي الرابع •

ان الرأي الأول يناهضه بقوله أنه غير صحيح ، بدليل أن معرفة الخالق الحقيقية هي ملكوت السماء حسب رأي جميع الملافنة ، وهذه مما لا شك فيها هي أفضل وأسمى من الفردوس ومن جميع أشجاره ، وسواء أكان الفردوس شيئاً روحياً أم مادياً ، فأشجاره بطبيعة الحال تكون نظيره ، ومعنى ذلك أن معرفة الله أو « ملكوت السماء » على حد قول الملافنة هي شيء رفيع جداً لا نسبة بينه وبين الفردوس سواء كان روحياً أو مادياً ، لأنه على الوجهتين هو شيء مخلوق ، ومعرفة الله متعلقة به تعالى ولهذا تكون أكثر سمواً من الفردوس ·

أما الرأي الثاني فباطل أيضاً ، لأن ناموس موسى لم يكن قد وضع بعد ، وكيف يعقل أن يؤمر آدم بحفظه قبل اعطائه ؟! والرأي الثالث أيضاً لا صحة له ، لأن الايمان يتعلق به تعالى وهذا أيضاً كالمعرفة ، وما قيل عن الرأي الأول ، يقال عن هذا أيضاً ·

والرأي الرابع ، مع ميل ابن العبري اليه نراه يمحصه تمحيصاً دقيقاً ، ولا يسلّم به حتى يشبعه درساً ونقداً وتدقيقاً واليك ذلك : اذا كان آدم وحواء بتولين حقيقة عند خروجهما من الفردوس فهذا الرأي ليس صحيحاً أيضاً ، فالكتا بالمقدس لم يذكر شيئاً من هذا القبيل سوى أن آدم عرف حواء بعد خروجهما من الفردوس ، فحبلت وولدت ، وقد يجوز أن يكون آدم قد عرف حواء قبل الخروج ولكنها لم تحبل ، أما مؤيدو هذا الرأي فيقولون ان « معرفة » آدم لحواء كانت سبب طردهما ، ولولا ذلك لما عاقب الله حواء قائلاً « تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » (تك ٣ : ١٦) ، ثم ان خجلهما من ذلك دليل واضح على ارتكابهما هذه المعصية أي أنهما تعارفا بعد أن كانا طاهرين وكانا مثل الأطفال · فان الأطفال لبساطتهم وخلو أذهانهم من الخطيئة لا يخجلون في شيء مثل هذا ·

هذه أهم آراء معتنقي هذا الرأي ، غير أننا عند وصولنا الى هنا نجد الملفان ابن العبري يميل اليه بقوله « وهذه البراهين والتعاريف تجعل هذا الرأي الأخير سهل التصديق » ·

مادية الشجرة :

كما أن كثيرين من ملافنة البيعة قرّروا أن شجرة « المعرفة » كانت روحية أو معنوية عقلية كذلك قرر كثيرون منهم أن هذه الشجرة كانت شجرة مادية كبقية الأشجار ، ولكنهم لم يتفقوا على نوعها وماهيتها ، ولهم فيها آراء أهمها :

١ ــ قال بعضهم انها حنطة ، ويتبنى الاسلام هذه الفكرة ، والبعض من ملافنتنا عندما يريدون تأييد هذا الرأي يقولون ان ذلك صحيح بدليل أن الرب جعل جسده من خبز الحنطة . لكي بواسطة الحنطة نفسها يلاشي المعصية الأولى ·

٢ ــ قال آخرون ان هذه الشجرة كانت الكرمة وثمرها العنب ، والدليل على ذلك أن الرب جعل دمه من عصير العنب ·

ويعترض البعض على هذين الرأيين بقولهم ان الكتاب دعاها شجرة ، والحال ان الحنطة لا تسمى شجرة بل سنبلة ونبتة العنب تدعى كرمة بينما النبتة التي نحن بصددها يدعوها الكتاب « شجرة » غير أن مؤيدي هذا الرأي يقولون انه ليس غريباً أن تسمى كل من السنبلة والكرمة « شجرة » ·

٣ ــ يرتأي مار فيلوكسينوس المنبجي في ميمره عن « شجرة الحياة » أن شجرة المعرفة كانت التينة ويؤيد رأيه هذا بدليل أنهما عندما أكلا وشعرا بعريهما تمنطقا بأوراق التين (تك ٣ : ٧) ويعتنق هذا الرأي كثيرون من ملافنة الكنيسة ، وقد أيده مار موسى بن كيفا نفسه وأثبته ·

أما العلاّمة ابن العبري فيستعرض هذه الآراء برمتها ، ولكنه يجعل شجرة « المعرفة » شيئاً غير ما ذكره هؤلاء الملافنة ، وان كان معظمهم من الثقات الاثبات ، وعنده أن تلك الشجرة كانت شيئاً خاصاً أعدّه الله لاختبار طاقة الانسان الروحية وبرّه وطاعته ، وربما تكون « الوصية » نفسها مثل هذه الشجرة · وبتجاوز الوصية فقد الانسان الأول مجده ، وتعرى من طهره وبهائه · ولذا يعود ابن العبري فيناقش هذه الآراء أيضاً مناقشة لطيفة بصيغة حوار جرى بينه وبين أستاذه ، ويجعل أستاذه حجة في هذا الأمر ، يقول : وكنت أسمع أستاذي يقول ان هذا الرأي يستحق العجب « رأي مادية الشجرة أو كونها شجرة تين » اذ كيف أراد الله تعالى اختبار حرية الانسان وسلطته الذاتية بواسطة هذه « الأكلة » البسيطة ، فقال له كل كلّ شيء ما عدا التين فقط لا تأكل منه ؟! فلم تكن شجرة التين بهذا المقدار جميلة المنظر وشهية للأكل كما وصف الكتاب شجرة المعرفة (تك ٣ : ٥) ، وهل كانت أجمل من بقية الأشجار كالنخل مثلاً أو التفاح أو غيرهما ؟ ولما كان أستاذي ومدرسي يقول ذلك كان يخاطبني بقوله « يجب أن تفهم يا ابني كل هذا بالمعنى الروحي ، واتبع اللاهوتي غريغوريوس الثاولوغوس القائل « ان الشجرة كانت معنوية فقط كما يتراءى لي ، وكان محذوراً تسلقها

الا على الكاملين فقط . وكانت صالحة للذين هم أكثر بساطة وأعظم انجذاباً نحو الشهوة ، كما أن المآكل الشهية الكاملة لا تفيد الأطفال المحتاجين الى اللبن » ولما كان أستاذي يردد هذه الأقوال مسروراً بها كنت أعارضه بدالة التلمذة وأقول : «ولئن كان الملافنة القديسون قد فسروا الفردوس والشجرة كشيء روحي ، الا أنهم لم ينكروا كونه مادياً كما تزعم أنت ؟! وهنا انزعج قليلا · ثم صفا قليلاً والتفت الي ّ مبتسماً وقال : « ليس كلكم تستطيعون أن تعوا هذه الكلمة » ثم انتقل الى الكلام في مواضيع أخرى ·

نستنتج مـن هذا كله . أن كثيرين من علمـاء الكنيسـة وآبائها فهموا الشجرة فهماً روحياً أو فسّروها تفسيراً رمزياً تبعاً لنهج مدرسة الاسكندرية، ورأي العلاّمة اوريجانس · الا أن ذلك ليس من الضروري لقولـه كشيء ضروري ثابت وحقيقي . لأن كتاب الله يخبرنا عـن الشجرة ، وهي شـجرة حقيقية ، انها كانت واسطة لاختبار « محبة الانسـان لله » أو بالحري أنهـا كانت « الوصية » بالذات ، وأما الشجرة فلم تكن الا ذريعة لذلك ·

★ ★ ★

شجرة الحياة

وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة

(تك ٢ : ٩)

يخبرنا الكتاب المقدس في جملة الأشجار التي أنبتها الرب الاله : عن شجرة الحياة ، ثم يحدثنا ، أن الله بعد أن أصدر حكم العقاب الصارم على الانسان اثر أكله من شجرة معرفة الخير والشر لم يرد أن يأكل هذا الانسان الجسور من شجرة الحياة فقال تعالى « هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا الى الأبد ، فأخرجه الرب الاله من جنة عدن (تك ٣ : ٢٢) ثم بعد خروج الانسان مطروداً من هذه الجنة ، نرى الله يحافظ على شجرة الحياة محافظة دقيقة لئلا يعود الانسان ويتناول منها ، فيتابع الكتاب قوله ، فطرد الانسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقد لحراسة طريق شجرة الحياة (تك ٣ : ٢٤) ٠

هذا ما يحدثنا به كتاب الله عن « شجرة الحياة » ويسكت دون أن يوضح لنا ما تلك الشجرة وما الغاية من وضعها في وسط الفردوس ، ثم ما الحكمة في منع الانسان من التناول منها وهذه أمور كلها يوضحها علماء الكنيسة بالنسبة الى دراساتهم الطويلة للكتاب المقدس واليك أشهر آرائهم ٠

كما أنهم فسروا شجرة المعرفة وقرروا أنها كانت روحية ومادية ، كذلك نجد آراءهم في شجرة الحياة ، فهي عندهم روحية ومادية معاً ٠ وسنرى هنا ايضاحاتهم ٠ ان المعنى الروحي لشجرة الحياة هو تجرد العقل عن كل شيء وارتباطه بالتأمل بخالقه فقط دون أن يحيد هنا وهناك كما هو الأمر عند الملائكة القديسين ٠ ويبدو للبعض على ضوء هذا التعريف أن ملكوت السماء أي معرفة الخالق والتأمل به هي جزء من الفردوس ، محصورة فيه ، ولكن هذا ليس صحيحاً لا بل ضرب من المحال ، فان آباء الكنيسة ينبذون هذا الرأي نبذ النواة ، وذلك لأن الله جلَّ جلاله يتسامى عن كل المخلوقات ، وبما أن « شجرة الحياة » كانت احدى الأشجار التي غرسها

الله حسبما نستدل من العدد التاسع من الاصحاح الثاني من سفر التكوين ، فلا وحدة طبيعية أو جوهرية بين الخالق والمخلوق ، ولهذا لا تكون معرفة الخالق جزءاً من الفردوس ·

أما سبب طرد الانسان من الفردوس ، فليس فقط لأنه أكل من الشجرة المنهى عنها بل لئلا يبطل كلام الله في قوله « يوم تأكل منها موتاً تموت » فلو لم يخرجه الله لمدَّ يده الى شجرة الحياة كما مدَّ يده الى شجرة المعرفة ، وكان سيتم فيه قول الكتاب « يحيا الى الأبد » · وبذلك تكون كلمة الله باطلة وهذا محال ، بالنسبة الى قدرته ، فرأى الله من الضروري لكي يصدق في حكمه الذي أصدره على الانسان أن يطرده من الفردوس لئلا يأكل من شجرة الحياة ، وبذلك يتم فيه قول الله « يوم تأكل منها موتاً تموت » كقوله أيضاً « لذلك تراب والى التراب يعود » قال الملفان مار يعقوب السروجي في ميمره عن خروج آدم من الفردوس « قد يمكن أن يكون في شجرة الحياة قوة تجعل الانسان يحيا الى الأبد » ولذلك طرده الله لئلا يبطل حكمه الصادر على الانسان · وقال مار فيلوكسينوس المنبجي « أنا لا أعترض على هذه الحقيقة ــ شجرة الحياة ــ لأني أؤمن أن الله قادر على كل شيء ، وقد سمعنا الملافنة يتحدثون عنها · أما ماذا كانت تلك الشجرة بنوعها ، وأي ثمار كانت حاملة ، فلم نسمع أحدهم يحدثنا عنه » · وهكذا بالنسبة الى قول هذين الملفانين ، تكون شجرة الحياة حقيقية ، فيها قوة من الله تجعل الانسان يحيا الى الأبد · أما نوعها ونوع أثمارها فلم يكن معلوماً ·

تعقيبات ابن العبري

عن شجرة المعرفة ــ شجرة الحياة

ان أصوب الآراء عن هاتين الشجرتين هي آراء ابن العبري بعد دراساته الطويلة في الكتاب المقدس ، وفي كتب آباء الكنيسة الأقدمين ، وآراؤه الخاصة حرية بكل اعتبار لأنها أقرب الى الحقيقة من غيرها وهي :

قال أخذاً عن ثاودورس بركوني في كتابه الموسوم ب « الاسكوليون » أن شجرة المعرفة لم تدع كذلك لأن فيها قوة طبيعية تمنح معرفة التمييز ما بين الخير والشر لمن يتناول منها ، ان ذلك أمر مضاد للعقل ، لأن ما لا ينطق ولا يحس لا يدرك ولايعرف أيضاً ، والشجرة كائن لا ينطق ولا يدرك ، وما لا ينطق ولا يدرك كيف يستطيع أن يعطي النطق والمعرفة والادراك لغيره ؟! هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، لو خُلق آدم خالياً من المعرفة لما كان في استطاعته أن يتقبلها من أي مصدر كان ، كما أن الحيوان

لا يستطيع أن يتقبل المعرفة من البشر ، ولا البشر يستطيعون اعطاءه المعرفة ٠

ان الشجرة دعيت كذلك لأن الأكل منها يوصل آدم الى معرفة حقيقة فحواها : ان في حفظ الوصية خيراً وفي كسرها شراً ، وهذا ما حدث عقب كسر الوصية فوراً ـ هذا وقد جرت العادة عند الكتاب أن يطلق تسميات على بعض الأشياء نظراً الى نتائج مفاعيلها وما تتركه من أثر ، كما دعي « بئر الخصام » لا لأن البئر تخاصم بل لأن الرعاة تخاصموا عندها ٠ وكذلك قل عن « بئر القسم » و « حجر الشهادة » و « حجر المساعدة » الخ ٠

وكما أنه من المستحيل تصور شجرة تملك قوة التمييز ما بين الخير والشر ، هكذا أيضاً من المستحيل أن يتصور وجود شجرة فيها قوة طبيعية تمنح حياة خالدة لمن يأكل منها ، فمن لا يستطيع أن يحافظ على نفسه كيف يستطيع أن يمنح الحياة لغيره ؟! ولكن هذا هو أسلوب من أساليب الكتاب المقدس الغاية من ذلك الحث على حياة القداسة ـ ذلك أن النعمة الالهية كانت عتيدة أن تمنح الحياة للانسان فيما اذا امتنع عن الأكل من شجرة المعرفة ، وقد أيَّد هذه الحقيقة القديس سويريوس في مقالة عن الصليب قال « ان الشجرة الثانية والتي أدعوها شجرة الحياة كانت الكرامة الروحية التي كان الانسان مزمعاً أن ينالها لو حافظ على الوصية وامتنع عن الأكل من شجرة لم يحن وقت الأكل منها بعد » ٠ وقال مار فيلكسينوس المنبجي في شجرة المعرفة « أن آدم لم يمت لأنه أكل من شجرة المعرفة ، كما يأكل الانسان سماً ويموت ، والا كيف لم يمت فور الأكل منها ؟! ولم يمت لأنه جاوز وصية الله ، فان داود النبي جاوز ثلاث وصايا ولم يمت ، بل لأنه صدق قول ابليس عندما قال له انك ستكون آلهاً » وهذا عينه هو « الكبرياء » التي أوقعت الشيطان في الخطيئة ٠ والشاهد على ذلك أن آدم لم يمت موتاً حقيقياً عندما أكل من الشجرة مثلما يموت من يأكل سماً قاتلا » وهكذا الانسان لم يمت من « الأكل من الشجرة » ولا من كسر وصية الله ، بل لأنه صدق قول ابليس وتكبر وأراد أن يصير آلهاً ٠ ويعلق ابن العبري قائلا ان موتاً كهذا ليس موتاً طبيعياً كالموت الذي يتم بانفصال النفس عن الجسد، بل كان موتاً معنوياً بسقوطه في الخطيئة والذي هو الابتعاد عن الله ، وقد اتخذ الأمران في آن واحد وان صارا سبباً لموت آدم ، ففي اليوم الذي أكل مات لئلا تكذب كلمة اللّٰه والأمران هما كونه اشتهى ما لا يمكنه الوصول اليه ، ثم كسر وصية الله ٠

قال مار موسى بن كيفا في شجرة الحياة « ان هذه الشجرة دعيت بشجرة الحياة لأنها وضعت لحث آدم على حفظ وصية الله ٠ ولم تدع كذلك لأنها

كانت تحوي قوة منح حياة حقيقية لمتناوليها أو بتعبير آخر كأن الله قد هدّد آدم وقال اذا أكلت من شجرة المعرفة تموت . واذا امتنعت عن الأكل منها أسمح لك أن تأكل من شجرة الحياة فتحيا الى الأبد . وذلك واضح من هذين الأمرين « الموت والحياة » وضعا ضدين لبعضهما ، في الأولى موت رهيب وفي الثانية حياة بعيدة عن الفناء . ويستدرك ابن العبري على قول مار موسى بقوله « ان ثمر شجرة المعرفة لم يكن موضوعاً أن لا يأكل آدم منه الى الأبد لكي كلما يأكل منها يموت ويحرم من شجرة الحياة » ويؤيد ذلك القديس غريغوريوس الثاولوغوس بقوله « ان شجرة المعرفة كان يمكن أن يؤكل منها في وقت معيَّن ، والا كيف كان يمكن للحكمة الآلهية أن تدعو شجرة الحياة بهذا الاسم ؟ » وهي عديمة الحياة وليس باستطاعتها أن تكون سبباً للحياة ؟ .

ومعنى هذا كله أن الله عيَّن وقتاً للانسان ، فيه يمتنع عن الأكل من شجرة المعرفة ، فاذا قاوم شهوته في ذلك الوقت وامتنع ، يصبح مستحقاً للحياة . وهذه هي شجرة الحياة عينها .

★ ★ ★

روحانية العهد القديم
والدراسات السريانية في الكتاب المقدس

من المقرر والثابت ، ان العهد القديم كتاب فرد ، يتبوأ المكانة الرفيعة في المسيحية ، ويحتل المنزلة السامية في قلوب المؤمنين ، فقد بذلت مساع جمة في سبيل الحفاظ عليه ، وصيانته من براثين التشويه والتحريف • كما صرفت عناية فائقة في ترجمته الى لغات شتى ، ونشره في أطراف المعمور ، وأفرغت كل الجهود في درسه دراسة وافية في غاية الدقة ، وروعيت أهمية تعميم تلاوته على الكنائس ، وناهيك بأن المسيحية ضمته الى العهد الجديد وجعلت من كلا العهدين كتاباً واحداً سمته « بالكتاب المقدس » •

وهنا نقف لحظة لنتساءل : ترى علام بنيت فرديته وقداسته ؟ ما مصدر هذه القوة الكامنة فيه حتى تجذب القارىء اليه مرات دون أن يكل أو يمل ؟ ما سر انتشاره الهائل في العالم بأجمعه ، وغزوه الدنيا قاطبة ؟ أية قوة تدعمه حتى يقاوم هجمات الأعداء ويهزأ بطوارق الحدثان ، ويقف في وجه الزمان صامداً خالداً ؟ هل لكونه بحراً صبت فيه آداب الشعوب القديمة وأنظمتها وأحكامها ؟ وسجلا فرداً يحوي حقائق ثابتة عن الله والخليقة وتاريخ الانسان الأول بشكل لم يذكر له مثيل ؟ ومستقى لعلماء القانون ومرجعاً لأرباب الشرائع في تنظيم أبحاثهم وتنسيق مواضيعهم ؟ أم لاحتوائه على نماذج أدبية رائعة يقف الأديب أمام بلاغتها وبيانها مأخوذاً مسحوراً ؟ أم لأنه ساهم في اصلاح الانسان والمد في حضارته ، والعمل على تطويره ؟

مما لا جدال فيه أنه ينضج بجميع هذه الأمور التي تتجلى فيه برمتها . غير ان المسيحية ما أقرت بفرديته وقداسته ، ولا بوأته تلك المكانة الرفيعة باعتباره كتاباً تاريخياً أدبياً تشريعياً قديماً ، أو لأن حادثة تاريخية استوقفتها ، أو ان روحاً علمياً استولى على عقلها ، أو انها أخذت بتحفة فنية ـ وان كان ذلك كذلك ـ بل نظرت اليه بمنظارها الخاص ، النظرة الروحية الصرفة ، فرأت فيه « الروحانية » المشرقة تشع من خلال كل سفر أو اصحاح بل آية ، تتضاءل أمامها كل الاعتبارات الأخرى كما يتضاءل ضوء المصباح أمام وهج الشمس الساطعة ، وهي وحدها التي ترفعه الى مقام الفردية وتبوؤه عرش القداسة ، وتخوله سلطان التقديس •

وقد أجمع المفسرون المخلصون للمسيح ، على هذه الحقيقة ، وأثبتوا كون العهد القديم كتاباً روحياً قبل أن يكون شيئاً آخر ، وبناء على ذلك فهو كتاب الأجيال ، وكتاب الشرق والغرب ، والكتاب الخالد . فمثل هذه الألقاب والتسميات لا يصلح اطلاقها عليه اذا جرد من الروح .

والكنيسة السريانية ، أطلت على العهد القديم من شرفة الروح والايمان فألفى فيه آباؤها منهلا عذباً اغترفوا منه دروساً رائعة في القيم الروحية والمثل العليا ، واتخذوا منه حصناً منيعاً يقيها شر الأيام ، ويصد عنها عاديات الزمان . فمن المعلوم ان آباء كنيستنا السريانية سلكوا في تفسير الكتاب المقدس على غرار المدرسة الاسكندرية خاصة ، فأوردوا الأنواع التفسيرية الثلاثة ، اللفظي أو الحرفي ، والروحي ، والرمزي . ويمكننا أن نعتبر التفسيرين الروحي والرمزي واحداً اذ تجمعهما الروحانية في قالب واحد ، فالروحي تهذيبي موجه وقد عبر عنه الرسول بولس بقوله « وهذه الأمور حدثت مثالا لنا حتى لا نكون نحن مشتهين شروراً كما اشتهى أولئك (١ كو ١٠ : ٦) وقوله أيضاً « فهذه الأمور جميعاً أصابتهم مثالا وكتبت لانذارنا نحن الذين انتهت الينا أواخر الدهور (١ كو ١٠ : ١١) . أما الرمزي فيختص كله بالاشارة الى السيد المسيح وناموس العهد الجديد كقول السيد المسيح « موسى كتب عني » (يو ٥ : ٤٦) وقال أيضاً « فتشوا الكتب فهي تشهد لي » (يو ٥ : ٣٩) .

قال مار موسى بن كيفا مطران الموصل ٩٠٣ + « اذا اقتصر العهد القديم على التفسير الحرفي أو اللفظي فقط دون الروحي أو الرمزي ، يصبح كتاباً عادياً بسيطاً ، وضعه البشر لا الوحي الآلهي ، يشتمل على قصص وحوادث ليست بذات شأن أو أهمية ، وقد تكون تافهة ، وبنتيجة ذلك يترتب أسوأ النتائج ، كأن يغدو حدث التجسد مثلا ، خرافة أو أسطورة . ويستطرد قائلا : « من الضروري جداً أن يفسر العهد القديم روحياً ورمزياً ، اذ لولاه ، لما عرفت البشرية المسيح ، ولما أقرت بقانونية العهد الجديد »([١]) ، وقال العلامة ابن العبري ما خلاصته « ان اليهود ، والذين ليس لهم من المسيحية الا الاسم فقط ، يتمسكون بالتفسير الحرفي وحده ولا يؤمنون بالتفسير الروحي مطلقاً . فنرد عليهم بقولنا : لو ان ما ورد في الأسفار المقدسة يؤخذ على معناه الحرفي فقط ، ولا يحمل أي معنى روحي ، فما المراد اذن بالحائط الذي تحدث عنه حزقيال النبي بقوله « واحد منهم يبني حائطاً وها هم يملطونه بالطفال ، فقل للذين يملطونه بالطفال ، يسقط

---

١ ـ كتاب الفردوس الفصل الثالث .

ويكون مطر جارف وأنتن يا حجارة البرد تسقطـن وريح عاصفة تشققـه (حز ١٣ : ١ ـ ١١) وماذا كان يعني النبي نفسه بقـوله « أبوك أمـوري وأمك حثية ، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطـع سـرتك ولم تغسلي بالمـاء للتنظف ولم تملحي تمليحاً ولم تقمطي تقميطـاً » (حز ١٦ : ٣ ـ ٤) ؟ وأي نسر كان ذلك الذي وصفه بقوله « هو نسر عظيم كبير الجناحين طويل القوادم واسـع المناكب ذو تهاويـل جـاء الى لبنـان وأخذ فـرع الأرز (حز ١٧ : ٣) وكذلك الأسد ذو جناح نسر الذي رآه دانيال (دا ٧:٤) ؟ وماذا كان يقصد أشعياء النبي بتعريه ولبسه المسوح ؟ وارمياء بوثقه ؟ وحزقيال باتكائه على جنبه الأيسر ثلاثمئة وتسعين يوماً ثم على جنبه الأيمن أربعين يوماً آخر ؟ وهوشع باتخاذه امرأة زنى ؟ هذه الأمور وغيرها ان خلت من المعنى الروحي والرمزي تصبح حكايات تافهة لا تدل على أي شيء ، ان ذلك كله في عرفنا نحن الروحيين كان يشير الى حالة بني اسرائيل الروحية ، وما سببته الخطية للانسان ، والى الوعد بمجيء المسيح المنتظر »(٢) ٠

وأقوى دليل على روحانية العهد القديم هو العهد الجديد نفسه الذي يعتمد عليه مفسرو السريان بالدرجة الأولى ٠ فهو يتناول معظم ما جاء في العهد القديم على المأخذ الروحي الصرف ، فبالاضافة الى ماذكرناه سابقـاً أورد بعض الحوادث التي تشير اليه صراحة ٠ من ذلك قوله « كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الانسان » (يو ٣ : ١٤) ٠ وقولـه أيضاً « ابراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح » (يو ٨ : ٥٦) و « داود يدعوني رباً » (مت ٢٢ : ٤٥) ٠ فلـو كانت حادثتـا ابراهيم والحيـة النحاسية مجرد حادثتين تاريخيتين عاديتين ، لما أشار اليهما السيد المسيح ، ولما قال أيضاً ان موسى وداود كتبا عنه لولا أنهما قصداه بالذات ٠ هـذا من جهة ومن جهة أخرى انه اقتبس نصوصاً عديدة من العهد القديم ذاته ، مستخدماً اياها في شتى المجالات الروحية ، والمناسبات التعليمية ، كقـوله لابليس لما جاء ليجربه (راجع مت ٤ : ٤ و ٧ و ١٠) اذ لم يشأ أن يغلبـه باعلان مجده الآلهي ، ولا بقوته الفائقة الطبيعة بل بالكلمـة المكتوبة التي شددت عزم القديسين زماناً طويلا ، معلماً ايانا بهذا كيف نحارب خصمنـا العظيم ونصرعه ٠ كما أورد بعض الحوادث الأخرى ، مقدماً اياها دروسـاً روحية للسامعين ، كقصة لوط وامرأته ، وانقلاب سدوم وعمورة ، ونزول ايليا عند أرملة صرفة صيدا ، وابراء نعمان السرياني وغيرها ٠

---

٢ ـ كتاب منارة الأقداس ، الركن الثاني عشر ، الباب الرابع ، المقدمة ٠

وفي الرسائل البولسية نجد من هذا النوع زخما . ففي الرسالة الى أهل غلاطية يتخذ الرسول من قصة ابني ابراهيم اسحق واسماعيل رمزاً للعهدين القديم والجديد « وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان » (غل ٤ : ٢١ ــ ٣١) ومن قول الرب « يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » (تك ٢ : ٢٤) يتخذ رمزاً للمسيح والكنيسة « هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣٢) ومن اجتياز العبرانيين في البحر بالمعجزة المعروفة ، رمزاً للمعمودية (١ كو ١٠ : ١) ٠ ومن الصخرة التي كانت تتبعهم ، رمزاً للمسيح (١ كو ١٠ : ٤) ٠ كما صرح أيضاً بشكل شامل عام بأن كل ما جاء في أقوال الأنبياء انما كان يشير الى المسيح المنتظر « الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة » (عب ١ : ١) ٠

وفي الرسائل الجامعة يقدم يعقوب الرسول ابراهيم أنموذجاً للمؤمن الحقيقي (يع ٢ : ٢٢) ومن راحاب الزانية مثالا للتبرير بالأعمال (يع ٢ : ٢٥) ومن قصة أيوب مثلا في الصبر واحتمال المشقات وطول الأناة (يع ٥ : ١٠ ــ ١١) وأوضح بطرس الرسول أيضاً ان ما كان يبحث عنه الأنبياء لم يكن الا سر الفداء بالذات (١ بط ١ : ١٠ ــ ١٢) وان الحجر الذي رذله البناؤون كان رمزاً الى السيد المسيح (١ بط ٢ : ٧) كما يقدم سارة امرأة ابراهيم وغيرها من فضليات النسوة مثلا للمرأة الفاضلة (١ بط ٣ : ٥ ــ ٦) ٠ ونرى يهوذا الرسول أيضاً يذكر المؤمنين بحادث خروج العبرانيين من مصر (يهو ١ : ٩) وقصة سدوم وعمورة (١ : ٧) كدرس وعبرة للمرتدين وغير المؤمنين ٠

هذا غيض من فيض ووشل من محيط أوردناه من العهد الجديد لاثبات روحانية العهد القديم وكفى به دليلا ٠

★ ★ ★

اليوم السابع

« فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً » (تك ٢ : ١ ــ ٣) ان ما جرى في اليوم السابع وهو اليوم الذي فيه أكمل الرب خلق السماء والأرض ، وفرغ من عمله واستراح كما ورد في الاصحاح الثاني من سفر التكوين ، شغل بال المفسرين وعلماء الكتاب ، وأثار التساؤل ، فتنوعت الآراء في تأويله وشرحه وتضاربت حتى كاد يحتدم النقاش بينها • وتقوم نقطة الخلاف على ألفاظ معينة أخذت على معناها الظاهري • فتخيل علماء الكتاب ان هنالك تناقضاً صريحاً ما بين (اكمل ، فرغ ، استراح) و (بارك ، قدس) فالألفاظ الثلاث الأولى ، بحسب فهمهم ، تدل على اكمال العمل والفراغ منه والاستراحة ، بينما اللفظتان الأخريان تدلان على العمل •

بيد ان اللاهوتيين والمفسرين في كنيستنا السريانية الأنطاكية ، الذين تعمقوا وتبحروا في علم الكتاب العزيز وبذلوا مجهوداً كبيراً في خدمته ، ترجمة وشرحاً وتفسيراً وحلا لمشكلاته وكشفاً لغوامضه ، بطريقة مسيحية ايجابية ، يسعفهم الروح القدس ويؤازرهم الوحي الآلهي حتى فاضت قرائحهم بالتفاسير الرائعة والبحوث الشيقة ، والفوائد النادرة ، قد تركوا لنا شرحاً كافياً شافياً منقطع النظير لما نحن بصدده(١) اذ فتحوا مغلق معانيه في ثلاثة أنواع من التفاسير ، هي اللفظي أو الحرفي ، الروحي ، والرمزي ، واليكم خلاصتها :

---

١ ــ اعتمدنا في تلخيص هذا البحث على ١ ــ رسالة القديس مار يعقوب السروجي ٥٢١ + كتبها جوابا على رسالة وجهها اليه مار مارون يطلب فيها ايضاحا لخمس معضلات كتابية منها قضية اليوم السابع ٢ ــ ميمر في الأيام الستة بالسريانية ، ليعقوب الرهاوي٧٠٨ + ٣ ــ تفسير العهد القديم للعلامة ابن صليبي مطران آمد ١١٧١ + ٤ ــ كنز الأسرار للعلامة ابن العبري مفريان المشرق ١٢٨٦ + •

التفسير اللفظي أو الحرفي : استراح :

لا تعني نقيض (تعب) لدى نسبتها الى الله تعالى ، لأن الرب الاله روح لا جسم ، والتعب والاعياء وما أشبه من العوارض التي تطرأ على الأجسام الهيولية المادية فقط ، وحاشاه تعالى أن تلحق به مثل هذه العوارض الطبيعية • وقد قال النبي قديماً « لا يكل ولا يعيا » (اش ٤٠ : ٢٨) هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يكن هنالك أي داع الى التعب لأن الكتاب المقدس يخبرنا بأن الله خلق الكائنات بأسرها في ست عبارات ليكن نور ليكن جلد، لتجمع المياه وتنبت الأرض ، لتكن أنوار في جلد السماء ، لتفض المياه ، لتخرج الأرض نفساً حية ونعمل الانسان على صورتنا ، وأنت ترى أن عملا يبدأ وينتهي وينتظم على هذا الشكل المدهش ، وفي هذه الطريقة العجيبة في ست كلمات لا يحتاج الى صرف تعب أو تجشم اعياء وبالتالي لا حاجة هناك الى الاستراحة • غير أن الكتاب اذ يتكلم بلغة البشر ، متحدثا الى الانسان الساقط ، فقد ناسب واستصوب أن ينسب الى الله بعض العوارض الطبيعية كالندم ، والغضب والفرح ، والحزن ، وذلك من باب الاستعارة وتمشياً مع عقلية الانسان القاصرة ، وهكذا ناسب أن ينسب اليه « الاستراحة » لأنه حيث وجد عمل فلا بد من حصول تعب تعقبه استراحة •

فرغ :

لا تعني « الكف عن العمل » نهائياً سواء نسب ذلك الى الله أو الى الانسان أو الى أي جوهر عاقل ولا يمكن أن يستغني هذا الجوهر والحي العاقل عن العمل ما دام حياً فهو في كل لحظة يعمل على الأقل « فكرياً » أو عملا محسوساً بسيطاً وهذا ما كان يعنيه السيد المسيح عندما كان يوبخ اليهود لعدم ادراكهم معنى الاستراحة في يوم السبت بقوله « أي انسان منكم يكون له خروف واحد فان سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه فالانسان كم هو أفضل من الخروف اذا يحل فعل الخير في السبوت » (مت ١٢ : ١١ ـ ١٣) •

وبناء على ذلك نقول : ان الله لم يكف عن العمل لحظة واحدة بدليل قوله « أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل » (يو ٥ : ١٧) وحتى في اليوم ذاته الذي قال عنه الكتاب انه فرغ فيه من العمل كان يعمل كقول الكتاب « وبارك الله اليوم السابع وقدسه (تك ٢ : ٣) فمنح البركة والقداسة يعد عملا بحد ذاته ، هذا اذا ضربنا صفحاً عن انه تعالى كان ولا يزال يدير المخلوقات التي خلقها ، ويرعاها ويلحظها بعين عنايته ، بل يخلق النفوس البشرية الجديدة في أجسادها بالقوة ، وهذه كلها تعد أعمالا •

غير ان ذلك قد قيل للدلالة على انهاء عمل الخلقة الذي هو ايجاد الشيء من العدم كقول الكتاب « فرغ من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً » (تك ٢ : ٣) ولئلا يظن أن هنالك خليقة أخرى ستخلق فيما بعد ٠ فكلمة « فرغ » قطعت خط الرجعة بوجه من سيجرؤ على القول بذلك وأيدت « ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد » (جا ١ : ٩) ٠

اكمــــل :

وما قيل في شرح فرغ يقال في « أكمل » أيضاً ، وحيث ان الكتاب ذكر بداية لعمل الخلقة الذي عمله الرب « في البدء خلق الله السموات والأرض » (تك : ١) فكان لابد من ذكر الانتهاء منه أيضاً ٠

التفسير الروحي :

ان هدف موسى النبي من وراء الناموس روحي بحت ، همه الوحيد الحفاظ على عبادة الاله الواحد ، وانقاذ حياة الانسان من داء الخطية الوبيل الذي ابتلي به ، والاشارة الى مجيء الفادي الذي سيحرر البشرية من عبودية الشيطان ويعيده اليها كرامتها الأولى وجمالها البكر ، باذلا في سبيل ذلك كل ما في وسعه ، سالكاً شتى السبل ومختلف الطرق ٠ واننا لنجد في الآية التي وضعناها على محك النقاش ، الدرس الروحي البليغ الذي يقوم على :

١ ـ بذل كل الجهود ، وتوجيه أقصى العناية والاهتمام في الاعلان عن وجود اله واحد ، له وحده صفة الخلق والابداع وهو الذي خلق الكائنات من العدم على الشكل الذي يرويه الاصحاح الأول من سفر التكوين وذلك ردعاً لمن سيتواقح ويجرؤ على ادعاء الخلق أو الابداع جاعلا نفسه آلهاً ، أو ينسب وجود الكون الى المصادفة وما أشبه ٠

٢ ـ تحذيراً للشعب العبراني من التمرغ في حمأة عبادة الأصنام وابعاده عن الاشتراك في نجاساتهم ، وتقوية لايمانه بالآله الواحد ٠ وقد فرض عليه الاستراحة يوم السبت لينصرف فيه الى قراءة الشريعة وذكر اسم الرب ٠

٣ ـ جذب الأمم الوثنية المحيطة بالشعب العبراني الى عبادة الاله الواحد عن طريق يوم الراحة لأنه تعالى « يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون » (١ تي ٢ : ٤) ٠ فعندما تلاحظ تلك الأمم

ان العبرانيين يستريحون كل يوم سبت لا بد من أن يأتي بهم حب الاستطلاع الى التساؤل عن الأمر . وعن طريق ذلك يتاح لهم التوصل الى معرفة الاله الحقيقي الذي خلق العالم ٠

التفسير الرمزي :

وأما من الوجهة الرمزية فان قصة الخلقة في ستة أيام ، والاستراحة في اليوم السابع ، ان هي الا رمز الى سر الفداء العظيم والذي يسميه الرسول بولس « الخليقة الجديدة » (٢ كو ٥ : ١٧ وغل ٦ : ١٥) فالله الذي أمضى في عمل الخلقة القديمة ستة أيام وأكملها واستراح في اليوم السابع ، هو ذاته أخلى مجده آخذاً صورة عبد ونزل الى الأرض ليجدد خلقة الانسان بعد أن أصابها فساد الخطية ٠ وقد سلك في سبيل ذلك طريقاً مغايراً للطريق الذي سلكه في سفر التكوين . مظهراً فيه محبته الكثيرة اللامتناهية للانسان ، وعنايته الفائقة به واهتمامه البالغ في تجديد خلقته ، ذلك هو درب الصليب والفداء الذي يبدأ منذ اللحظة الأولى التي أخلى فيها الأقنوم الثاني مجده حالا في أحشاء العذراء ، متتبعاً اياه خطوة فخطوة حتى ينتهي فوق ذروة الصليب في الساعة التاسعة من يوم الجمعة كما هو اضح في العهد الجديد ٠ فكما قيل في الخلقة الأولى انها (كملت) في اليوم السابع كذلك قيل أيضاً في الخليقة الجديدة « قد أكمل » (يو ١٩ : ٣٠) ٠ وكما كان آدم الأول بكر الخليقة الناطقة ، كذلك صار المسيح بكر الخليقة الجديدة (كو ١ : ١٥) ٠ وكما استراح الله في اليوم السابع بعد اكماله الخلقة القديمة كذلك استراح المسيح مبدع الخلقة الجديدة في القبر يوم الأحد بعد أن قاسى آلام الصليب المبرحة ٠ وكما ثبت لنا أن (كملت) الواردة في التكوين لا تعني الكف عن العمل ، بل كان الله يعمل ويبارك ويقدس ويدير، كذلك (قد أكمل) الواردة في العهد الجديد لا تعني الكف عن العمل فقد نزل السيد المسيح يوم السبت الى أعماق الهاوية ، وكسر أمخالها ، ودك أساساتها مفتقداً النفوس التي ماتت على رجائه وكانت تنتظره ٠

ويشير عمل الخلقة أيضاً ، الى العالمين المادي والروحي ، فما جرى في الأيام الستة الأولى من عمل وخلق وابداع يشير الى عالمنا المادي الهيولي، عالم الأتعاب والأحزان ، واستراحة الرب في اليوم السابع تشير الى العالم الروحي ، عالم الراحة الخالي من الأتعاب ، والذي سيحل يوم القيامة ٠

★ ★ ★

منديل المسيح

وابجـر الملـك وادى البشـير

منزلة الحادث :

تبرز قصة المنديل وابجـر الملك في فجر العصر الرسولـي فوراً ، وتتبلور بصورة واضحة لتنتظم في سلسلة الأحداث الانجيلية ، وتأخذ مكانتها في مصاف الأعمال الرسولية فتغدو على مستواها تماماً ٠

من المعلوم أن ما جاء في الأناجيل الأربعة يتناول أحداث السنوات الثلاث الأخيرة من حياة السيد المسيح بدءاً من عماده وحتى صعوده الى السماء ، باستثناء الفصلين الأولين من كل من بشارتي متى ولوقا اللذين يدوران حول طفولته ٠ واذا ما قارنا كمية الأحداث المذكورة بالنسبة للزمان لرأيناها قليلة ضئيلة ٠ فهي أي الأحداث تقوم على ثلاث نقاط رئيسة ، الأولى تعاليم السيد المسيح وقد لخصها الانجيليون في تسعة وعشرين مثلا ، وثلاثة وعشرين حديثاً على وجه التقريب ٠ والثانية عجائبه ومعجزاته ذكر منها ثلاثون معجزة ٠ والثالثة طهارة حياته ونهايتها على الأرض ٠ ولا يعقل أن يكون هذا كل ما حدث طيلة السنوات الثلاث والنصف ، فلا بد من أن يكون هنالك أمور أخرى جرت لم يسجلها الانجيليون في أسفارهم كقول القديس يوحنا « وايات أخرى كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هـذا الكتاب »(١) ٠ وأما لماذا لم تكتب فذلك تم كله بارشاد الروح القدس الذي ساق الانجيليين لاختيار أحداث وترك أحداث ٠

بناء على ما تقدم نجزم جزماً قاطعاً على أن هذا الحادث من نوع الأحداث الانجيلية الغير المكتوبة ، وبمنزلة الأحداث المكتوبة ـ ، لا بل نرجح مع العلماء الثقاة(٢) ان يوحنا الانجيلي كان يشير الى وفد أبجر الملك بقوله « وكان أناس يونانيون ـ الأمم ـ من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد ، فتقدم هؤلاء الى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليـل وسألوه قائلين يا سيد نريد أن نرى يسوع »(٣) ٠

---

١ ـ يو ٢٠ ـ ٣٠ ٠

٢ ـ تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية مج ١ ص ٨٥ ٠

٣ ـ يو ١٢ ـ ٢٠ ، ٢١ ٠

حقيقــة الحــادث

الحادث هذا حقيقة تاريخية ثابتة ، تعززها شهادات مؤرخي السريان والكلدان والأرمن واليونان ، وتسنده الأدلة التقليدية المتوافرة وتجله أي اجلال وتلقي عليه ضوءاً كاشفاً حتى غدا في مصاف الأحداث الانجيلية كما سلف • قال المستشرق الانكليزي وليم رايت « وقصة أبجر الأسود ــ أوكومو ــ ملك الرها أصبحت حالا بعد الصعود حقيقة »(٤) • وان أوسابيوس أبا التاريخ الكنسي المتوفى سنة ٣٤٠ + أفرد لذلك في تاريخه الكنسي الفصــل الثالث عشر برمتــه من الباب الأول مــن ص ٦٧ ــ ٧٥ طبعة بيجان بالسريانية ، باريس ١٨٩٧ ، ومن ص ٥٧ ــ ٦٢ ترجمة مرقس داود بالعربية • ولم تخل ميامر مار أفرام السرياني ٣٧٣ + من الاشارة الصريحة الى الأمر • ووجد نص مهم تام لنفس القصة في تعليم أدى الذي ترك في السريانيــة كاملا في مخطوطــة بسنت بطرسبورج مــن القرن الخامس • ويوجد أيضاً في بقايا مخطوط آخر من القرن الخامس والسادس « دائرة المعارف البريطانية مج ٢٦ » • ونظم القديس مار يعقوب السروجي ٥٢١ + ميمرا في اطراء الرها وابجر الملك ، ويعتبره أول ملــك مسيحي ، وأسلوبــه في هــذا تماماً كأسلوبــه عنــد استعراضــه الأحداث الكتابية « مج ٥ ص ٧٣١ ــ ٧٤٧ طبعــة بيجان ، باريس ، ١٩١٠ » • كما علق على عبارة « لا يتسلط أعداؤك على مملكتــك » الواردة في رسالة السيد المسيح الجوابية لابجر » • « رسائل مار يعقوب السروجي ، رسالة ٢٩ ، طبعة اولندر لوفان ١٩٥٢ » ووردت الاشارة الى الحادث في ميامر أخرى أيضاً • وأشار الراهب الزوقنيني المؤرخ ٧٧٥ الى الرسالتين المتبادلتين بين أبجر الملك والسيد المسيح « مج ١ ص ٩٥ ، ٢٤٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ طبعة شابو ١٩٥٣ ، والمنسوب الى التلمحري وهماً » • وجاء ذكر ذلك أيضاً في تاريخ الراهب القرتميني ٨١٩ ص ١ طبعة شابو ، لوفان ١٩١٦ » •

وأشهر من كتب في هذا الموضوع مــن مؤرخي السريان الراهب الرهاوي المجهول ١٢٣٤ ، فقد أفاض في الكتابة ، وتميز عن غيره بايراده معلومات جديدة هامة « تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ١١٩ــ١٢٤ طبعة شابو لوفان ١٩١٦ » • وأثبته العلامة ابن العبري في تاريخه مختصر الدول بالعربية « ص ٦٦ ــ ٦٧ ، ١٦٥ المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٥٨ » ونفس التاريخ بالسريانية ص ٤٧ طبعة باريس ١٨٩٠ • وان

---

٤ ــ عن دائرة المعارف البريطانية مج ٢٦ •

مثل ابن العبري الفيلسوف لولا تأكده من الأمر ، وجزمه بصحته لما أثبته في تاريخه بهذا الشكل أبداً وهو من عرف بتحريه الحقائق التاريخية وكتابته بدقة ، لا يتحيز ولا يحابي ، ولا ينساق وراء العاطفة البشرية التي تقف الى جانب الغايات الشخصية والطائفية انه في كل جرأة يكشف عن رأيه في موضوع ارتيابه في صحة نسب « سفر الرؤيا » الى يوحنا اللاهوتي ، ويقترح عدم تلاوته في الكنيسة · « منارة الأقداس ، الركن ١١ ف ١ » · وقد أسهب في اطرائه المؤرخ النسطوري ماري بن سليمان في القرن الحادي عشر ، والمؤرخ يحيى بن انطاكي الرومي ، وغيرهما · غير أن بعض المستشرقين أنكروا صحة هذا الحدث واعتبروه أسطورة ، ولكن زعمهم هذا باطل ، لأن أوسابيوس القيصري المتوفى عام ٣٤٠ يذكره كواقعة تاريخية لا ريب فيها استقاها من نبعها الأصيل من المستندات السريانية في الرها ذاتها · فلو كانت أسطورة كيف قدر ملفقوها في تلك المدة القصيرة أن يموهوا على العقول ؟ هذا وان المطران السيد ادى شير الكلداني قد استعرض مزاعم هؤلاء لمستشرقين وفنّدها ، وأثبت الحقيقة التاريخية (٥) ·

كان الأب بولس بهنام « المثلث الرحمات مار غريغوريوس بولس بهنام مطران بغداد والبصرة » قد كتب قصة أبجر الملك ومنديل المسيح كما وردت في المراجع السريانية مستنداً الى المؤرخين الرهاوي المجهول ، وابن العبري « مجلة لسان المشرق ـ السنة الأولى ـ العدد ٦ و ٧ » · ونظراً لأهمية هذا الموضوع وطرافته فقد عقدت النية على استعراضه ثانية مستنداً بالاضافة الى المرجعين السريانيين المذكورين الى مراجع أخرى سريانية وعربية ، وعلى الله الاتكال ·

تفصيل الحادث

أجمع المؤرخون على أن أبجر(٦) الخامس ـ أوكومو ـ ملك الرها كان مصاباً بمرض البرص الوبيل ، وقد عانى منه كثيراً وطويلا ، ولما طرق سمعه خبر السيد المسيح ، وتواردت اليه أنباء آياته ومعجزاته التي كان

---

٥ ـ كلدو واثور مج ٢ ص ٣ ـ ٧ ·

٦ ـ ابجر لفظة سريانية تعني الأعرج ، تجمع اباجرة وهم ملوك آراميون سريانيون أسسوا امارة سريانية عام ١٣٢ جعلوا قاعدتها مدينة الرها ، وظلوا يتعاقبون على الحكم حتى سنة ٢٤٤ حيث انقرضت وكانت لغتها السريانية الفصحى · وهذا ابجر الذي نحن بصدده كان معاصرا للسيد المسيح ويعتبره التاريخ الكنسي أول ملك مسيحي ، وتقيم له الكنيسة السريانية تذكارا يوم الأربعاء الذي يقع في منتصف الصوم الكبير في كل سنة ·

يصنعها في اليهودية والجليل ، من شفاء الأمراض المتنوعة بقوته الالهية ، فقد تاق الى رؤياه وحنَّ الى لقائه ليشفيه من مرضه ٠

أبجر يرسل وفداً الى السيد المسيح ويتبادلان الرسائل

بعث أبجر الى السيد المسيح وفداً برئاسة حنانيا المصوّر وحمله رسالة بالآرامية السريانية يسأله القدوم اليه ليشفيه من مرضه ،ويعرض عليه السكن معه في مدينته الجميلة الصغيرة الرها ، وفيها أيضا يعترف بألوهته هذا نصها :

« من أبجر الأسود حاكم الرها الى يسوع المخلص الصالح الذي ظهر في أورشليم :

سيدي سلام عليك وبعد :

فانه بلغني عنك وعن طبك الروحاني ، انك تبرىء الأسقام بغير أدوية ولا عقاقير ، تجعل العميان يبصرون ، والعرج والمخلعين يمشون ، وتطهر البرص وتخرج الأرواح النجسة والشياطين ، وتشفي المصابين بأمراض مستعصية ، وتقيم الموتى ، فقررت في نفسي من ثم وحملت أمرك على احدى الحالتين ، انك إما إله نزل من السماء أو ابن الله ٠ فاني أسألك أن تكلف نفسك وتأتي الي لتشفني مما بي من سقم ٠ وقد بلغني أيضاً أن اليهود يتشكون منك ويريدون الايقاع بك ، ويبيتون لك السوء ، فان لي مدينة صغيرة حسنة جداً تكفيني واياك نسكن فيها بهدوء وسلام »٠

ولما وصل أعضاء الوفد الى أورشليم ، وقابلوا السيد المسيح ، وسلموا اليه الرسالة فقرأها ، واذ لم يلب طلب الملك بشأن الذهاب اليه ، فقد أنعم عليه بكتابة رسالة جوابية هذا نصها :

« طوبى لك يا من آمنت بي دون أن تراني ، لأنه مكتوب عني أن الذين يرونني لا يؤمنون بي ، والذين لا يرونني يؤمنون ويخلصون ، أما بخصوص ما كتبت الي لكي آتي اليك فانه يجب أن أتمم هنا ما أرسلني أبي من أجله ، وبعد اتمامه أصعد ثانية الى أبي الذي أرسلني ، وبعد صعودي سأرسل اليك أحد تلاميذي يبرىء سقمك ويمنحك ومن معك حياة الأبد(٧) « ولتكن مباركاً ومدينتك فلا يتسلط عدو عليها »(٨) ٠

---

٧ ـ أثبتنا هنا نص الرسالتين كما أوردها أوسابيوس القيصري أمام المؤرخين البيعيين ، وقد استقاهما من نبعهما الأصيل من المجلات السريانية التي كانت محفوظة في المكتبة الملكية في الرها وقد تولى نقلهما الى اليونانية عن أصلهما السرياني ٠ أما المؤرخان السريانيان الرهاوي المجهول وابن العبري فقد أورداهما بتغيير طفيف في بعض ألفاظ وحذف أخرى مع الحفاظ الشديد على المعنى ٠

٨ ـ هذه العبارة الأخيرة لم ترد عند أوسابيوس ولا عند ابن العبري ٠ اثبتها الراهب الزوقنيني ←

روى المؤرخ أوسابيوس القيصري أن السيد المسيح أملى الرسالة على مار توما الرسول(٩)٠ ويعتقد الروم أن هاتين الرسالتين خطتاعلى ورق طومار بالسريانية سنة ٣٢ ، وظلتا محفوظتين في الرها في المكتبة الرهاوية حتى القرن الحادي عشر ٠

وفي تشرين الأول سنة ١٠٣١ استولى الروم على الرها فسار صاحبها سليمان ابن الكرجي الى رومانس الثالث ملك الروم في القسطنطينية فصحب معه الرسالتين ،وخرج الملك والكسيوس البطريرك، وجميع أهل المدينة لاستقبالهما وتسلمها الملك بخشوع وورع تعظيماً لكتاب السيد المسيح ، وأضافهما الى الآثار المقدسة في بلاط الملك(١٠) وقد أكد ذلك أبو نصر بن يحيى بن جرير التكريتي الذي شاهدهما والمنديل بأم عينه وتبارك منهما ٠ هذا وان الرسالتين ترجمتا الى اليونانية ثانية ، فالعربية ٠ وفي القرن الثالث عشر لما التهمت النار البلاط الملكي في القسطنطينية حرقت الرسالتين أيضاً مع خزانة الكتب حيث كانت محفوظتين(١١) ٠

صورة السيد المسيح تنطبع على المنديل

كان أبجر قد أوصى حنانيا المصور أن يجلب له صورة السيد المسيح على لوح ليراها فيما اذا أبى المسيح أن يصحبه ، ولما أخذ حنانيا الجواب من المسيح ، جعل ينظر اليه ويصور صورته في منديل لأنه كان مصوراً ، غير أن السيد المسيح كاشف الخفايا ، علم بالأمر فطلب ماء وغسل وجهه وأخذ منديلا وتمندل به ماسحاً به وجهه ، وللحال انطبعت به صورته وأعطاه الرسالة لوفد أبجر(١٢) ٠

المؤرخ ٧٧٥ في تاريخه مج ١ ص ٢٤٠ و ٢٨٤ و ٢٨٨ ، ويحيي بن سعيد الأنطاكي في تاريخه ص ٢٦٣ ، ووليم رأيت في دائرة المعارف البريطانية مج ٢٦ ، ومار يعقوب السروجي « في رسالة ٢٩ ص ١٢٩ ، ويظهر من هذه الرسالة أن هذه العبارة كانت مثار أخذ ورد كلما نزلت الكوارث في مدينة الرها ، غير ان مار يعقوب أثبتها وكشف مغلق معناها ٠ أما المؤرخ الرهاوي المجهول فقد أوردها بشكل آخر « فلا يقهرك ملك اثور » ، الرهاوي المجهول مج ١ ص ١٢١ ، وربما عنى بالاثوري العدو من باب المجاز ، لأن الاثوري في نظر السريان كان أعنف عدو وأقساه حتى دعوه ب (قضيب الغضب) أخذا عن الكتاب المقدس ٠

٩ ـ تاريخ أوسابيوس في السريانية ص ٦٧ طبعة بيجان ٠

١٠ـ تاريخ يحيى الأنطاكي ص ٢٥٢ ـ ٢٦٣ ، ومدينة الله أنطاكيا مج ٢ ص ٢٠٣ ، وعصر السريان الذهبي ص ٣٠ ٠

١١ـ ذخيرة الأذهان مج ١ ص ٣٧ ٠

١٢ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ١٢١ ، ومختصر الدول بالعربية ص ٦٧ وبالسريانية ص ٤٧ ٠

عودة الوفد الى أبجر ، والمنديل

بعد أن استلم أعضاء الوفد الرسالة والمنديل ، قفلوا راجعين الى سيدهم الملك أبجر فبلغوا مدينة منبج ليلا ، ولجأوا الى كوخ قريب منها ليبيتوا ليلتهم ، وبما انهم كانوا محافظين على المنديل أشد الحفاظ ، فقد وضعوه فوق الكوخ وأخفوه بين قرميدتين في موضع نظيف لائق ، وبينما هم نيام فاذا بنور ساطع يهبط من السماء الى الموضع الذي كان فيه المنديل ، ولما رأى أهل المدينة ذلك المشهد العجيب تقاطروا الى محل الحادث ، ولما لم يستطع أعضاء الوفد من اخفاء الأمر ، رووا لهم تفاصيله ، ولما علم أهل المدينة سبب هبوط النور طلبوا أن يتباركوا من المنديل بعد أن عاينوا هذه الأعجوبة العظيمة بأم عينهم ٠ ولما مدّ حنانيا يده ليأخذ المنديل وجد أن صورة السيد المسيح قد انطبعت على القرميدتين ولما رأى أهل المدينة هذه الأعجوبة الثانية شغفوا بحبه ، وطلبوا الى حنانيا أن يترك لهم القرميدتين لبركة بلدهم وحفظه من الآفات ٠ فأخذوا القرميدتين(١٣) وحفظوهما في موضع مكرم في معبدهم وكانت تجري منهما الكرامات والعجائب الكثيرة حتى جاءهم فيلبس الرسول وتلمذهم وبنى كنيسة كبيرة ووضع فيه القرميدتين المقدستين ٠ ولما مات الرسول شهيداً من أجل المسيح وضع جثمانه الطاهر في تلك الكنيسة أيضاً(١٤) ٠ ثم أخذ أعضاء الوفد المنديل وأتوا به الى الرها واستقبلهم أبجر الملك وأهل المدينة عن بكرة أبيها ، بكل حفاوة واكرام ، وتبارك ابجر من المنديل المقدس ونال به الراحة من سقمه حتى جاء الرسول ادى اليه بعد صعود المسيح فعمده ومنحه الشفاء الكامل(١٥) ٠

ادى البشير في الرها عند ابجر

بعد قيامة السيد المسيح من بين الأموات ، وصعوده الى السماء أرشد الوحي توما أحد الرسل الاثني عشر فأرسل أخاه ادى أو تداوس أحد

١٣ـ يستنتج من سياق الأحداث التاريخية ان أهل منبج أخذوا قرميدة واحدة فقط بدليل ، أولا ان نصر بن يحيى بن جرير التكريتي حدث ان المنديل ظل في مذبح البيعة الكبيرة في الرها موضوعا مطويا بين آجرتين ، ثم نقلتا القرميدتان مع المنديل الى القسطنطينية كما سيأتي ، وقد شاهد ذلك بأم عينه (المجلة البطريركية القدس ـ ص ٣ السنة الثالثة) فلا تصح رواية ترك القرميدتين في منبج الا اذا كانت القرميدتان اللتان وجدتا في الرها غيرالقرميدتين اللتين تركتا في منبج٠ ثانيا : لما أغار نيقيفورس فوقاس على الجزيرة عام ٩٦٦ ودخل منبج استولى على الآجرة المقدسة أي القرميدة لا (قرميدتين) التي كانت تحمل صورة السيدة العجائبية ، والله أعلم ٠

١٤ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ٠

١٥ـ تاريخ الرهاوي المجهول ص ١٢٣ ومختصر الدول ص ٦٧ ٠

المبشرين الاثين والسبعين الى الرها ، لينادي بالانجيل هناك ، وليتم على يديه وعد السيد المسيح لابجر ، ولما وصل ادى الى الرها نزل في بيت شخص يهودي يدعى طوبيا بن طوبيا وأخذ ينادي ببشرى الخلاص ويجترح الآيات والمعجزات ويشفي الأمراض بقوة الله ، حتى تعجب جميع أهل المدينة وذاع أمره • فلما سمع ابجر بكل ذلك بدأ يشتبه بأنه هو التلميذ الذي أشار اليه المسيح في رسالته ، فاستدعى طوبيا وقال له : سمعت أن رجلا ذا سلطان أتى الى المدينة وهو ساكن في بيتك ، أحضره اليّ • فأتى طوبيا الى ادى وقال له : استدعاني ابجر الملك وأمرني أن آخذك اليه لتشفيه، فقال ادى سأذهب لأني أرسلت اليه بسلطان • وفي اليوم التالي بادر طوبيا فأخذ ادى وجاء به الى الملك حيث كان مجتمعاً الى عظماء مملكته • وحالما دخل ظهرت رؤيا عظيمة لابجر في وجه الرسول ادى ، ولما رآها ابجر ألقى بنفسه أمام قدمي ادى ، وقد انذهل الحاضرون لأنهم لم يروا الرؤيا التي ظهرت لابجر • وسأله هل أنت هو حقاً تلميذ يسوع ابن الله الذي وعدني بارساله اليّ ليشفيني ؟ قال ادى لأنك آمنت بمن أرسلني ايماناً قوياً فقد أُرسلت اليك ، فان كنت ثابتاً على ايمانك فليكن لك سؤل قلبك • قال ابجر لقد آمنت به ولا زلت راسخاً في ايماني ، حتى اني وددت ارسال قوة لاهلاك أولئك اليهود الذي صلبوه ولكن ملك الروم حال دون ذلك • قال ادى لقد أكمل سيدنا ارادة أبيه ، ثم ارتفع اليه • أجاب ابجر اني آمنت به وبأبيه • قال ادى لذلك سأضع يدي عليك باسمه القدوس ولما فعل ذلك شفي للحال من المرض الذي كان مبتلى به • فذهل ابجر لأنه كما سمع من المسيح ، هكذا نال بالفعل على يدي تلميذه ادى الذي أبرأه بدون دواء •

وكان في بلاط الملك شخص يدعى عبدو بن عبدو كان قد أصيب بداء النقرس (المفاصل) هذا لما رأى اعجوبة شفاء ابجر سقط عند قدمي ادى طالباً منه الشفاء فصلى ادى عليه فشفي • وابرأ أيضاً الكثيرين من سكان المدينة وصنع عجائب وأعمالا مدهشة ونادى بكلمة الله •

بعد هذا كله قال ابجر أنت يا ادى تصنع هذه الأمور بقوة الله ونحن نتعجب ، ولكني علاوة على ذلك أتوسل اليك أن تحدثنا عن المسيح ، كيف جاء ، وولد ، وعن موته ، وسائر أعماله • قال ادى الآن سألتزم الصمت ، ولكن غداً اجمع الي كل أهل المدينة ، وسوف أتحدث الى الجميع عن الموضوع المطلوب بالتفصيل • وعلى اثر ذلك أصدر ابجر أمره لأهل المدينة فاجتمعوا في الصباح الباكر لسماع كرازة ادى ، فقص لهم أحداث سياسة المسيح الخلاصية برمتها • ثم أمر الملك بأن يعطى لادى ذهباً وفضة ، فرفض قائلا ان كنا نحن قد تركنا أموالنا الخاصة ، فكيف نأخذ ما هو لغيرنا ؟!(١٦)

١٦ـ اوسابيوس القيصري بالسريانية ١٠ ـ ١٣ ص ٦٧ ـ ٧٥ وبالعربية ص ٦٠ ـ ٦٢ :

المنديل في الرها : لنعود الى أمر المنديل فنقول : ان أول عمل عني به ابجر بعد تنصره كان تشييده كنيسة كبرى كرسها مار ادى البشير ، وأقام فيها الذبيحة الالهية ، واشترك في الأسرار ابجر وأهل المدينة ۰ وقد رجح الأب بولس بهنام المثلث الرحمات مار غريغوريوس بولس بهنام مطران بغداد والبصرة احتمال وضع المنديل في هذه الكنيسة في أول الأمر(١٧) ۰ والمراجع التاريخية تؤكد نقله الى كنيسة مار قوزما في القرن الرابع(١٨) وسبب ذلك ان رجلا شرقياً زار كنائس الرها وكان قد سمع بخبر المنديل وقرر سرقته ، فدخل كنيسة الرها القديمة التي كان فيها المنديل وسرقه وأخفاه في عبه ، وخرج من باب المدينة الشمالي مساء ، وبات في كنيسة مار قوزما ، فأضرم المنديل عبه ناراً ، فذعر وألقاه في بئر في الكنيسة نفسها ، فظهر حالا عمود ناري يهبط من السماء الى البئر . فتقاطر الناس ليشهدوا الحادث ، ولما حدقوا في البئر رأوا أشعة تتدفق من شيء يشبه قرص الشمس فنزل بعضهم الى البئر ووجدوا المنديل وأخرجوه ووضعوه في كنيسة مار قوزما ثانية وبقي محفوظا فيها(١٩) ۰

البئر المقدس : قبل أن نتتبع المنديل في التاريخ ، لنقف عند البئر وقفة قصيرة فنقول : كل شيء مهما كان بسيطاً اذا حل فيه المسيح يغدو مقدساً رفيعاً يتبوأ منزلة الاكرام والاجلال ۰ فقد حل في أحشاء العذراء تلك الفتاة القروية البسيطة الوضيعة فذاع أمرها وارتفع شأنها وعلا مقامها حتى أصبحت سماء ثانية ۰ ووضع في المذود عند ميلاده ، فأضحى هذا المذود البسيط مزاراً يؤمه البشر من مختلف أنحاء الدنيا على كرّ العصور. اعتمد في نهر الأردن فصار هذا النهر مقدساً وتميَّز عن باقي أنهار الدنيا ، وهكذا الأمر في البئر فقد طرح المنديل المنطبعة عليه صورة المسيح فأضحى بئراً مقدساً ، ونبع الشفاء ، يتقاطر اليه المرضى من كل صقع فيشفوا جميعهم عند استحمامهم بمائه ۰ وظل هذا البئر المقدس يشفي المرضى المصابين بالأمراض المستعصية مدة طويلة من الزمن ۰

ولما افتتح الرها عماد الدين الزنكي في القرن الثاني عشر كان مصاباً بداء النقرس في احدى رجليه فأخبره مطران الرها عن أمر البئر فخف مسرعاً اليه قائلا : انني على ايمان وطيد أن السيد المسيح قادر

١٧ـ لسان المشرق ـ السنة الأولى ١٩٤٨ ـ العددان ٦ ، ٧ ۰

١٨ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ١٠٧ ، وعصر السريان الذهبي ص ٣١ ۰

١٩ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ۰

أن يعيد لي قوتي ويطهر جسمي من جميع أوصابه ، فانتشل بنفسه دلواً من مائه واغتسل به فشفي من مرضه(٢٠) ٠ وأمر فبني فندق عظيم بقرب البئر لينزل فيه المرضى ، وحبس عليه أرزاقاً طائلة تكون مورداً للفندق ونزلائه المصابين بأنواع الأمراض ٠ وهكذا أضحى هذا البئر ينبوعاً للشفاء يؤمه المصابون من مختلف الملل والنحل فينالون الشفاء من أمراضهم(٢١) ٠

لنتتبع المنديل في التاريخ ، انه الآن كما علمنا في كنيسة مار قوزما في الرها وبقي هناك زمناً طويلا قبل أن يستولي عليه المسلمون ٠ خلال هذه الفترة ما بين القرن الرابع واستيلاء المسلمين على الرها ، تمكن الرهاويون الخلقيدونيون من الاستيلاء على معظم كنائسنا في الرها عنوة بقوة ملوك الروم الذين على مذهبهم ٠ فقد روى المؤرخون السريان طرفاً من ذلك منها : أن موريقي أثار اضطهاداً عنيفاً على الأرثوذكسيين وأوعز الى ابن شقيقه دوميطانس مطران ملاطية ان يتبنى هذا الاضطهاد فأصلى هذا المطران الخلقيدوني ناراً حامية على الأرثوذكسيين ، نفياً وقتلا ، واغتصاب الكنائس ، فذاق مؤمنو ما بين النهرين ألواناً من العذاب ٠ فلما وصل هذا المطران الغاشم الى الرها صب جامات غضبه على الرهاويين وتمادى في الشر بشكل بشع حتى انه طلب الى رهبان آحد الأديرة في الجبل المقدس بترك أرثوذكسيتهم والا قُتلوا ذبحاً ، وبعد أن بذل قصارى جهده بشتى الوسائل لم يستطع تهديده ووعيده أن يؤثر فيهم اذ كانوا راسخين في أرثوذكسيتهم رسوخ الجبال ، فأمر من ثم سقلاريوس قائد معسكر موريقي ، فساقهم خارجاً وذبحهم دفعة واحدة وكان عددهم أربعمائة نفس(٢٢) ٠ وظلت كنائسنا بيد الخلقيدونيين مدة عشر سنوات حتى سنة **٦٢٢** لما تولى كسرى على الامبراطورية الفارسية واستولى على بلاد ما بين النهرين طرد الروم ، وأمر باعادة الكنائس الى الأرثوذكسيين ٠ وقد محي ذكر المجمع الخلقيدوني من الفرات حتى المشرق ، وأرسل كسرى فجلب أساقفة من المشرق وأقامهم على أبرشيات مابين النهرين(٢٣) ولما تولى هرقل الامبراطورية الرومانية جاء الى الرها ومكث فيها مدة ، ووُجد في أحد الأيام في البيعة الكبرى ورغب في أن يتناول القربان المقدس غير أن أشعياء مطران الرها منعه من التناول ما لم يحرم المجمع الخلقيدوني وطومس لاون ، فاتقد القيصر

٢٠و٢١ـ تاريخ حلب ١ : ٥٥٢ ، وتاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٣٢٠ ٠

٢٢ـ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٢١٨ ٠

٢٣ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٤٥ ٠

غضباً وطرد المطران من الكنيسة الكبرى وسلمها للروم أتباع مذهبه ، وكان أبناء كنيستنا يتوقعون العودة الى كنيستهم مع مطرانهم بعد ذهاب الملك الى العاصمة ، فحال فتح العرب للبلاد دون ذلك اذ أقر هؤلاء لكل ملة ما وجدوه في حوزتها من الكنائس عند الفتوح ، وعلى هذه الطريقة اغتصب ملوك الروم كنائسنا الكبرى في الرها وغيرها(٢٤) · وفيما استولوا عليه ولا شك المنديل المقدس كما أثبت ذلك مار ميخائيل الكبير بقوله « أما ان الصورة كانت في حوزة الرهاويين الملكيين « الخلقيدونيين » قد صارت اليهم منعهد ملوك الروم »(٢٥) · ثم استعادها منهمأثناسيوس بن جومية في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، اذ كان أثناسيوس هذا من علية القوم في الرها وقطب أسرة آل جوميا الرهاوية السريانية ٦٨٥ ـ ٨٠٤ وجدّها الأعلى ، اشتهر بايمانه وعفته وأفضاله ، وقد حظي بمنزلة مرموقة عند الخليفة عبدالملك وعينه مستشاراً لأخيه الفتى عبدالعزيز بن مروان عندما أقره على أمرة مصر(٢٦) · ومن أجلأعماله استعادته المنديل المقدس من الملكيين الرهاويين وكيفية ذلك :

فظلّ على أهل الرها في بعض السنين خمسة آلاف دينار من الخراج ولم يكن لديهم ما يدفعونه الى غريمهم فأسرّ رجل خبيث الى الجابي محمد بقوله : ان وضعت يدك على صورة السيد المسيح المعروفةبصورة المنديل باع القوم أولادهم ونفوسهم وافتدوها فلما فعل جزع الرهاويون وقالوا له انهم يبذلون كل ما ملكت أيديهم بل يفضلون المنية على أن يفقدوا الصورة ولما أعياهم الأمر قصدوا الى الزعيم النبيل اثناسيوس وسألوه أن يؤدي عنهم المال المطلوب ويرتهن الصورة منهم حتى يوفوه حقه فلبى الرجل سؤلهم مغتبطاً مسروراً وجاء بمصور بارع تقدم اليه بتصوير مثلها ولما أتم عمله وقد حاذت الصورة الجديدة الصورة القديمة جهد الطاقة عالج أصباغها بما يوهم قدمها ، وبعد حين وفى القوم دينهم وطالبوه بالصورة فأعطاهم الجديدة ولم ينتبهوا لها وبعد بضع سنوات ابتنى بيت المعمودية وشاد هيكلا فخماً عجيباً بالغ في تزيينه وزخرفته فغشاه بالرخام وصفحه ذهباً وفضة اكراماً لتلكالصورة الثمينة والتحفة الطريفة التي وضعها فيه وعمل له قنوات للماء كما صنع الأسقف أمازونوس (هو الأسقف الملكي الذي كان حياً سنة ٥٥٣) في بيعة الرها

٢٤ـ تاريخ مار ميخائيل الكبير ٢ : ٤٠٨ ـ ٤١٠ والرهاوي المجهول مج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ ·

٢٥ـ نقلا عن المجلة البطريركية ـ القدس ـ السنة الثانية ـ العدد السادس ص ١٦٥ ·

٢٦ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ·

العتيقة الكبرى باذلا في هذا المشروع العظيم أموالا لاتحصى ودعاه بيت الصورة المارانية « الرئيسية » وبعد مدة من الزمان أخبر الرهاويون بحيلة الأمر(٢٧) ٠

نقل المنديل الى القسطنطينية :

ظل المنديل المقدس كما قلنا محفوظا في كنيسة مار قوزما في الرها زمنا طويلا قبل أن يستولي عليها المسلمون ثم نقل الى القسطنطينية ٠

روى أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي أن نقل المنديل الى القسطنطينية تم في القرن الحادي عشر ودونك قوله : « وبقي المنديل وجواب الرسالة مدفوناً في مذبح الرها الى سنة ٤٢٠ هـ ١٠٢٩ م وتسلم الروم مدينة الرها من المسلمين ووجدوا المنديل مطوياً موضوعاً بين آجرتين في مذبح البيعة الكبيرة في الرها ومعها انبوب من ذهب فيه رقعة مكتوب فيها ما قال المسيح للرسول (رسول الملك أبجر) فأخذ الجميع وحمل الى القسطنطينية وهو موجود في البيعة الكبيرة بها المعروفة باجيا صوفيا وشاهدته هناك في سنة ١٠٥٨ وتباركت منه ، وهذا خبر مشهور لا شك فيه ٠ والمنديل والقرميدتان والانبوب الذهبي تظهرها الروم في كل سنة في يوم مشهور ، وتحضر الجموع العظيمة ويتباركون منه ، ولا شك في ما رأيت والسلام »(٢٨) ٠

ان نقل الرسالتين في هذا التاريخ لأمر ثابت ومقرر كما سبق ذكره، أما بالنسبة للمنديل فان أكثر المؤرخين أثبتوا نقله الى القسطنطينية في القرن العاشر ، عندما طلبه ملك الروم رومانس الصغير من المتقي الخليفة العباسي ، قال ابن العبري « في سنة ٣٣١هـ ٩٤٢ م أرسل ملك الروم الى المتقي يطلب منه منديلا مسح بها المسيح وجهه فصارت صورة وجهه فيها وانها في بيعة الرها وذكر انه ان أرسلها اليه أطلق عدداً كبيراً من أسرى المسلمين ، فاستفتى المتقي القضاة والفقهاء فأنكر بعضهم تسليمها فأجاب بعضهم قائلا : ان خلاص المسلمين من الأسر والضر والضنك الذي هم فيه أوجب ، فأمر المتقي بتسليم المنديل الى الرسل وأرسل معهم من يتسلم الأسرى »(٢٩) ٠ وقال عمر ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩هـ ١٣٧٠ م في

٢٧ـ المجلة البطريركية ـ القدس ـ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ السنة الثانية العدد السادس ٠ والخريدة النفيسة مج ٢ ص ١٢٨ ٠

٢٨ـ المجلة البطريركية ـ القدس ـ السنة الثالثة ١٩٣٥ ـ ص ٣ ٠

٢٩ـ مختصر الدول ص ١٦٥ ، ويحيى الأنطاكي مج ٣ ص ٩٨ ، وأبو الفداء حموي ٢ : ٩٠ ٠

كتابه خريدة العجائب وفريدة الغرائب : ان منديل المسيح الذي مسح به وجهه كان في كنيسة الرها العظمى فأرسل ملك الروم الى الخليفة رسولا وطلبه منه وبذل له فيه أسارى كثيرة فأخذه وأطلق الأسارى(٣٠) وقال الدبس « ولما استلم الوفد المنديل شخصوا فيه فرحين الى القسطنطينية . وقبل وصولهم ببضعة أميال هرع لملاقاته رئيس الأساقفة والأكليروس وجمع من المؤمنين متوجهين الى بيثينيا . ومنها الى العاصمة يهتفون بأناشيد السرور والتراتيل الروحية قاصدين كنيسة اجيا صوفيا . وأدخلوه بحفلة رائعة شهدها الملك فتبارك منها وأسرته ورجال الندوة وعامة المؤمنين وذلك في ١٥ آب ٩٤٣ م . ثم نقل الى القصر الملكي(٣١) » .

ومما يؤيد صحة هذه الرواية التي تثبت نقل المنديل الىالقسطنطينية في منتصف القرن العاشر الحادث التالي« في سنة٩٤٣ احتال تورون التركي خليفة المتقي ودعاه اليه الى بغداد وصحبه بني حمدان ، ولما وصلوا الى حيث خرج تورون لملاقاتهم وأنزلهم فيمضربهثم قبض عليه وسُملتعيناه وقتل من معه ثم أخذه الى بغداد وهو أعمى جزاء له لاستخفافه بتسليم الوديعة الثمينة ، والأمانة النفيسة(٣٢) .

آخر عهدنا بالمنديل :

قيل ان المنديل ظل في القسطنطينية حتى أواخر القرن الثالث عشر اذ أهداه ملكها الى دوق الجنويين ، والآن هو في يد الأرمن الميكاتاريين في كنيستهم المعروفة باسم مار برتلما الكائنة في جنوا احدى مدن ايطاليا ، وقد أخذت عن الصورة الأصلية صورة فرعية هي الآن في لان من أعمال فرنسا(٣٣) .

★ ★ ★

٣٠ـ المجلة البطريركية ـ القدس ـ السنة الأولى ١٩٣٣ ـ ص ١٧٩ .
٣١ـ تاريخ يوسف الدبس الماروني مج ٥ : ص ٣٨٨ .
٣٢ـ أبو الفداء في تاريخ سنة ٣٣٢ و ٣٣٣ ، وتاريخ الدبس مج ٥ ص ٣٨٨ .
٣٣ـ ذخيرة الأذهان مج ١ ص ٣٧ .

المواضيع الأدبية

١ ـ مار افرام الشاعر والفيلسوف :

المجلة البطريركية ـ دمشق ، المجلد ٢١ السنة ١٩٨٣ ، العددان ٢٨ و ٢٩ ص ٤٣ ـ ٥٥ ۰ والمجلد ٢٢ السنة ١٩٨٤ العدد ٣٢ ص ٩٨ ـ ١٠٢ ۰

٢ ـ بين الموت والشيطان :

المجلة البطريركية ـ دمشق ، المجلد ٢ السنة ١٩٦٤ ، العدد ١٧ ص ٣٤٤ ـ ٣٥١ ۰

٣ ـ قصة بيع مار توما الرسول :

المجلة البطريركية ـ دمشق ، المجلد ١٠ السنة ١٩٧٢ ، العدد ٩٢ ص ٨١ـ٨٤ ، العدد ٩٣ ص ١٤٧ـ١٥٠ العدد ٩٤ ص ٢٠٢ـ٢٠٥ .

٤ ـ موت هارون الكاهن :

المجلة البطريركية ـ دمشق المجلد ٢٠ السنة ١٩٨٢ ، العدد ٨/ص ٢٨ ـ ٣٨ ۰

٥ ـ الحب في شعر ابن العبري :

المجلة البطريركية ـ دمشق المجلد ١ ، السنة ١٩٦٣ ، العدد ١٠ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٧ ۰

٦ ـ الطقوس السريانية في دراسات المستشرقين :

المجلة البطريركية ، المجلد ١٩ السنة ١٩٨١ ، العدد ٣ ص ١٧٣ـ١٧٦ والعدد ٤ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥ ، العدد ١٠ ص ٤١٤ ـ ٤٢١ ۰

٧ ـ مكتبة دير مار متى :

المجلة البطريركية ، المجلد ٢٠ السنة ١٩٨٢ العدد ١١ ص ٤٣ـ٥١ ۰

٨ ـ الموتى الراقدون :

المجلة البطريركية ـ المجلد ١٩ السنة ١٩٨١ عدد ٤ ص ٢٣٥ ۰

مـــار أفـــرام الشـــاعر

مكـــانـــة مـــار أفـــرام في المسيحية

القديس مار أفرام السرياني ، ملفان الكنيسة الجامعة ، امام اللغة الآرامية ، عملاق الأدب السرياني ، قطب من أقطاب الفكر المسيحي على الاطلاق .

ترنّمت الأجيال باسمه منذ أن ألقت شمس القرن الرابع خيوط الفجر في أحضان وديان نصيبين وعلى أكتاف جبال الرها . وغدا نغمة عذبة في حناجر السريان ، وشفاه بني آرام . وسيبقى ذكراه خالداً الى الأبـد .

ولد في نصيبين وقضى حياته كلها متردداً ما بين نصيبين والرها وديار بكر ومدن ما بين النهرين ، معلماً ، واعظاً ، كاتباً ، شاعراً ، ناسكاً . وهو في رتبة شماس حتى انتقاله الى السماء عام ٣٧٣ + حيث دفن جثمانه الطاهر في مقبرة الغرباء طبقا لوصيته ، وبني فوق ضريحه دير بجوار الرها . ودعي « نبي السريان » و « شمس السريان » .

أكرمته المسيحية شرقاً وغرباً ، وقيّمت جهوده في سبيل خدمة الانجيل، وثمّنت مواقفه المشرفة في خدمة الكنيسة الجامعة .

فالكنيسة السريانية تعيّد له في السبت الأول من الصوم الأربعيني ، والكنيسة الكلدانية تقيم تذكاره في جمعة أسبوع صوم نينوى ، والكنيستان المارونية ، والملكية تحتفلان بذكراه في ٢٨ كانون الثاني . والكنيسة الأرمنية في السبت الأول من كانون الثاني .

ونظراً لمكانة مار أفرام في العالم المسيحي ، فان البابا بندكتس الخامس عشر ١٩١٤ ـ ١٩٢٢ اعلن مار أفرام السرياني ملفاناً في الكنيسة الكاثوليكية شرقاً وغرباً ، متجاوزاً آراءه الأرثوذكسية التي تتنافى والعقيدة الرومانية في مجالات عديدة ، وقرر أن يقام تذكاراً في ١٨ حزيران على توالي الأجيال . كما أن مجمع اللغة السريانية في بغداد أقام له مهرجاناً ضخماً في مدينة بغداد ما بين ٤ ـ ٧ شباط ١٩٧٤ .

مار أفرام والشعر

مار أفرام من أقطاب النسك ، وبلغ القمة في الزهد . انه خدن الجبال الجرداء ، وأليف الصحارى القاحلة ، وربيب الوحدة والانفراد ، وعاشق العزلة والصمت • لكن قلبه لم يزهد في الشعر مطلقاً ، وأحاسيسه لم تبتعد عن القصيدة شبراً • فبين القلب والشعر وشائج وثيقة لا تنفصم ، وبين المشاعر والقصيدة روابط متينة قوية لا تتفكك • ففي سبيل الشعر تمرّد مار أفرام على الوحدة ، وهجر حياة الانفراد في الجبال ، ومجّ العيش معتزلاً في الصحارى . فاتصل بالحياة ، وبالمجتمع ، وبالوجود ، يجتمع مع الناس ، يخوض معركة الحياة شعراً ، يدافع عن حق الكنيسة شعراً ، يقارع أهل البدع شعراً ، يعلّم ويعظ شعراً •

لقد جثا عابداً في هيكل الشعر حياته كلها ، وقدم نفسه قرباناً على مذبح القصيدة • قال سوزمين المؤرخ اليوناني « ان مار أفرام صنف أكثر من ٣٠٠ مليار بيت شعر» وأكد مار ايرنيموس «أن شعر مار أفرام بلغ ثلاثة ملايين بيتاً » وقال القديس مار يعقوب السروجي « أنه كان نبعاً غزيراً ، وينبوعاً فيّاضاً » وقيل ان الموهبة الالهية حلّت على مار أفرام منذ نعومة أظفاره ، وهيأته ليكون ملفاناً في الكنيسة ، وقد أشار الى ذلك هو نفسه اذ قال « لما كنت طفلا رأيت في الرؤيا كرمة نابتة في لساني نمت وارتفعت في الفضاء وأينعت عناقيد جمّة وأوراقاً بلغت حدّ الكثرة ، وامتدت أفنانها وتبسطت حتى كادت تملأ الأرض جميعها ، وأقبلت طيور السماء فوقها وجعلت تلتقط العنب من عناقيدها • وكانت كلما التقطت منها ازدادت وكثرت » • وذكر أيضاً أن مار أفرام نفسه كان يضرع الى الله أن يوقف هذا الفيض الذي يرهقه في قوله « أوقف اللهم موهبتك عن كنارتك لترتاح قليلا ، لأنك أنت الذي علمتني كل ما قلت . فأنت علّمني كيف أصمت » •

شاعرية مار أفرام

(الشعر الغنائي)

لا شيء يفجر نبع الشعر في القريحة مثل الحب والجمال • ولا يمكن للشعر أن يكون غنائياً ما لم يَجثُ في محراب هذين الالهين • وان أجواء الحب والجمال رحبة ، وآفاقهما واسعة ، فهي لا تنحصر في القلب والجسم فقط ، ولا تستقر عند الأمور الجسدية فحسب ، فالشاعر يستقي مادة هذين العنصرين من جمال العزة الالهية ، ومن ذوبان المتصوف في حب الذات الالهية • وكما يستقيها من الطبيعة التي حباها الله جمالا وفتنة ، من الرياض

الخضراء ، من النسمات العليلة ، من روعة التاريخ وآثاره القديمة ، بل من سمو التضحية ، من خلود العباقرة ، من حب الوطن والأرض والتربة ٠

تناول شعر مار أفرام أغراضا دينية متنوعة ، وطرق مواضيع كنسية عديدة ، وتخلل كل هذه الأغراض والمواضيع ألوان زاهية من الشعر الغنائي ٠ فالذي يطَّلع على شعره بتمعن ، يدرك تماماً أن مار أفرام غمس ريشته في محبرة مملوءة بالفن ، والذوق ، والجمال ٠ فتراها كلها تتسابق في الحلبة وتتلقى في نقطة معينة لتؤلف حشداً جمالياً ، وينساب الغناء من قصائده الدينية في مجار عديدة من مقومات الأدب والشعر ، ولو خلا شعر مار أفرام من هذا اللون الجميل من الفن الأدبي ، لما تسلم امارة الشعر السرياني على مرّ العصور ٠ ولو لم يرشّ هذا العطر في قصائده ويبللها بقطرات نداه لما عُدّ مار أفرام أجمل زهرة في رياض الأدب الآرامي ٠

ودونك بعض نماذج من شعره :

الأرض الظمأى(١)

لو كان للأرض نطق ،
لصبَّت علينا جامات الغضب ،
وقذفتنا بوابل من التوبيخ والتأنيب ،

وتقول :

ما أظلمكم أيها الناس(٢) ٠
ان ملامح أبيكم الأول تظهر في جباهكم ،
لقد لُعنت بسبب خطيئة أبيكم ،
والآن تلاحقني اللعنة مرة أخرى بسببكم ،
أنتم أيها الناس تخطئون ،
وأنا ألعَن ٠
أخطأ أبوكم آدم ، فنبتَ الشوك الرديء ،

---

١ ـ في ميمر « احتباس المطر » ٠
٢ ـ لا نبالغ اذا قلنا ان جبران خليل جبران في « أرضه » اقتبس الفكرة من مار أفرام ٠

وأخطأتم أنتم فجف الزهر الجميل .
أنا أم لكل الناس
كان الأولى بكم أن تقدموا لي الولاء ،
فتكرموني وتهابوني .
غير أنكم احتقرتموني ، ودستم كرامتي .
مزدرين بالقيم وبكل المثل .
انكم أبناء عاقون .
أنتم تخطئون وتذنبون ،
وتتنعمون بعيش رغيد هنيء ،
وأما أنا فرياضي الغنّاء انقلبت الى قفار ،
وحقولي النضرة ، استحالت الى صحارى .
أنتم تحتسون الخمور ، وتشربون كل لذيذ وشهي ،
أما أنا فقد جف قلبي عطشاً وظمأ .
أنتم تغسلون أجسادكم بالأطياب والعطور
وأما جسمي فقد علاه الغبار ،
فامتقع لوني وتشوه جمالي .
كم لقنتكم دروساً وعبرا ،
وكم وجهتكم نحو الخير ،
ولكن بدون جدوى .
لم تتعلموا التواضع من أحضان أوديتي ،
ولم تستوعبوا الوداعة المنشورة على سطح سهولي .
لم تتلقنوا الدرس من عزم صخوري ،
ولم تدركوا هيبتي في أعماق بحاري ،
ولا عرفتم قيمتي من قمم جبالي ،

حقاً انكم لجهلة أغبياء ٠
أنا شابة وعجوز في آن واحد ٠
أنا أم عجوز لآبائكم وأجدادكم ،
وأم شابة لكم ولأولادكم ،
فاحترموا شيخوختي ووقاري ،
وهابوا قوتي وشبابي ٠

السحابة والأرض

في احتباس المطر

ان الماء قد تجمد في السحب ،
فلا ذوبان ، ما دامت خطايانا مجمدة في داخلنا ،
أيتها السحابة : أنت عاقر ،
الماء لا يجديك نفعاً ،
لأنك لا تحسين بالظمأ قط ،
أما الأرض فانها لاغبة ظمأ وعطشاً ٠
أيتها السحابة :
ألا تشعرين أن عبئاً ثقيلا على كاهلك ؟٠
اطرحيه عنك في أعماق الأرض ،
ان الأرض مستعدة لتتحمله بسرور وشوق ،
ان الأرض أم لها أطفال رضَّع ،
وهؤلاء الأطفال بحاجة الى حليب ،
وان الحليب قد انحبس فيك أيتها السحابة ،
انك عاقرة أيتها السحابة ،

لا أطفال لك يطلبون الحليب ليرضعوا ،
فامنحي حليبك أيتها العاقرة ،
للأرض ، المرضعة اليائسة ،
فلا تدعي ، أيتها العاقرة ، حليبك يضيع سدى ،
في رحم لا ينجب أطفالا ،
ولا تدعي المرضعة ٠
أم الأطفال تتعذب ٠
فيموت الأطفال ظمأ في أحضانها ٠

ان مار افرام يعزو انحباس المطر الى خطايا البشر الذين ابتعدوا عن الله ، وحادوا عن شرائعه المقدسة ٠ وان هطول الأمطار مقترن بالتوبة ، فاذا ما قدم البشر توبة نصوح وبدموع حارة ، وندموا على خطاياهم ، فان الله سيسكب عليهم الأمطار الغزيرة فاسمعه يقول :

التوبة

ان السماء عطشى الى دموع التوبة ،
بقدر ظمأ الأرض الى مطر السحابة ،
فما دامت الأرض تطالب السماء بالمطر ،
فالسماء تطالب الأرض بالعبرات والدموع ،
ان أصوات الرعود تبهج البشر على الأرض ،
وأصوات الاستغاثة تسر الملائكة في السماء ،

ويقول أيضاً :

اذا ما أوصد الله أبوابه بوجهنا ٠
فلنفتح له أبواب قلوبنا ،
واذا ما فطمت السماء من الأمطار ،
فليكن بكاؤنا قربانا وتقدمة ٠

ثم يصف الشاعر مار افرام شهر نيسان ، ويعتبره شهر الأفراح والمسرات ، فاذا ما انحبس فيه المطر . سينقلب الى شهر المآتم والحداد ، فيقـــول :

ربـــاه !
لا تصنـــع حِـداداً في نيســـان ،
ولا تقـم مأتمـاً في الربيـــع ،
انـــه شهـــر البهجـــة والسرور ،
وموسم النور والورود .
ان ازاهـير نيســـان ، وورود الربيـــع ،
هـــي دومـاً رهن اشارتـــك ،
تقـدم لـك الولاء والطاعـة ،
عندمـا تبـدو نضـرة زاهيـة ،
تجدهـــا متجهـة اليـك ، واشراقـة البسمـة علـى ثغرهـا ،
لتعرب لك عن آيات الشكر والامتنان ،
وكأنها استمدت جمالهـــا مـــن فيض جمالـك ،
وأخذت نضارتها مــــن نضـارة بهائـك ،
وعندما تذبـل تراهـا تحنـي هامتهـا باتضـــاع ،
وهـــي تبدو ساجدة معربـــة عـــن ولائـها وخضوعهـا ،
لأنــك أنت غارسهـــا ومقيتهـــا ،

ثم يستطرد واصفاً نفسية البشر الذين لا يذكرون الله الا في وقت الضيق ، ولا يصلّون الا عند اشتداد المحن ، فاسمعه يقول :

عندما يهطل المطـــر علـى الأرض ،
وتتساقط قطـرات الندى على الزهـــور والورود ،
تكون الشفاه صامتة جافـــة من تقديم الشكر لله ،
وعندما تجف الأرض ،

وتذبل الزهـــور ،

تنــدى الشفــاه بالطلبـــة والاستغاثـــة ·

ثم يأخذ مار افرام بالتركيز على عمل « ارادة الله » في البشـر فيقول : « ان عصا هارون ، لم تسق ماء ، ولم يداعبها النسيم ، ولـم تقاوم عواصف نيسان ، ولكن هي ارادة الله جعلت أن تزهر تلك العصا اليابسة وتنمو وتنبت بطريقة غير طبيعية » ثم يناجي الله قائلا : « أعطنا ربنا ارادتك ، التي هي مستودع كل الخيرات والعطايا والنعم ، فاذا أردت فان بيادرنا تفيض غلة ، وتمتلىء مخازننا خيراً ، وان شئت فان حزمة واحدة من القمح تسدّ جوع الآلاف ، فاسكب اللهم خيراتـك وبركاتك علينا جميعاً » ·

الســهر ينقــي النفس

وفي حديث مار افرام عن حياة الرهبانية ، وما يمارس الناسـك الزاهـد من أنواع عديدة من هـذه الحياة النسكية ، يتحـدث عن السهر فيقول :

اذا لم يختف النور ،

فالظلمة لا تقوى علـى الظهور ،

واذا لم يلم النـــور أشعتـــه ،

فالظلمـــة لا تبسط جناحيهـــا السوداوين ،

ما دام الكرى بعيداً عن عينيك أيها الساهـــر ،

فالظلام لا يمكنه أن يسود عليـــك ·

وما دمت يقظـاً أيهـــا الجبـــار ،

فالشر لا يستطيـــع أن ينشب فيـــك مخالبـــه ،

وما دام لسانك يلهـــج بالتسبيـــح ،

فالعدو لا يقدر أن يتطاول عليـــك ،

وما دامت شفتاك تترنمان ،

فقوى الشرير تبقى محطّمة ·

★ ★ ★

خلال ساعـــة النـــوم ،
يزحف الشريـــر للغـــزو والاعتـــداء ،
حيث لا مقاومـــة ، ولا قتـــال ،
يتلاشـــى الضبـــاب ،
وينحرف مجـــرى الشتاء ،
تكثـــر الثلـــوج بلا سحب ،
ويتساقط البـــرد بـــلا بروق ،
وتسفـــك الدمـــاء ، بلا سيوف ،
وتتراكم الأشـــلاء بلا حـــروب ،
فلتكـــن عينـــك حارســـة ،
يـــا رب .

في الظلـــم

أيها المسيـــح الاله :
يا مـــن ظلمـــك الأشرار ،
كن عزاء للمظلومـــين الأبرياء البررة ،
هنيئـــاً لمـــن يتعرض لجور الناس الأشـــرار ،
فانه يصبح من أبنـــاء السماء ،
ونعمـّاً لمن يعانـــي مـــن الظلم والطغيـــان ،
فقـــد صـــار ملاكاً نورانيـــاً ،
من يتحمـّـــل الظلم مثـــل المسيـــح ،
فمن يقدر أن يقيـّم جزاءه ؟ !
ومن يجار عليه كالمخلص ،
فمن بامكانه أن يثمـّن مكافأته ؟ !

من يحتمل الاهانة ظلماً كالأنبياء ،
يصبح شريكاً معهم في المواعيد ،
ومن ظهرت عليه سيماء الرسل ،
فيعقد على مفرقه أكليل النصر ٠

★ ★ ★

ان ضربت على خدك ،
فقد أصبحت زميلا لميخا النبي ٠
وان قضيت رجماً بالحجارة ،
فأنت اسطيفانس جديد ٠
وان طُرحت في حمأة الأقذار ،
فانك ارميا ثانٍ ٠
وان ربطت بوثق ،
فيحق لك أن تدعى « بولس »
وان قطع رأسك ،
فقد تشبهت بيوحنا المعمدان ،
وان نشرت بمنشار ،
فقد صرت نداً لأشعيا بن أموص ٠
وان طرحت في أتون نار ،
فقد أحصيت « الرابع » بين أولاد حنانيا ٠ ؟
وان طرحت فريسة للأسود ،
فقد وضعت يدك بيد دانيال ٠
وان رفعت على المشنقة ،
فهوذا المسيح مرفوع على الصليب ٠

في السهر والصلاة

وأيوب الصديق

لولا الحرب لما كان نصر
ولولا ساحة الوغى لما ضفرت الأكاليل ،
فالجهاد هو الذي يعلن شجاعة الشجعان ،
وباشتباك الطرفين تعرف البسالة ،
يشتهر القواسون ، لدى تبادل رشق السهام ٠
ويشار الى الأبطال ، لما تسبح السيوف بالدماء ٠
كان أمر أيوب مجهولا قبل نزوله الى ساحة الوغى ٠
وبعد أن خاض غمار الحرب ، اشتهرت شجاعته بين الشعوب ٠
ان تحمله اصابات السهام ، أعلن للملأ ، محارباً فذاً ،
والسنان التي اخترقت شرايينه ، سجلت له نصراً مبيناً ٠
ما دام المسح والرماد متمسكين بأهداب التواضع ،
« فرئيس السقاة » لا يتجاسر أن يتطاول ٠
ومتى ذرفت الدموع بغزارة ،
فيعود « سنحاريب » على أعقابه فاشلا مخذولا ٠
ما دامت الأيدي مبسوطة الى العلاء ،
فان « عماليق » لا يقوى أن يرفع رأسه ٠
في الصلاة يُضرب الابليس فيقع صريعاً ،
كما وقع جلياد الجبار بحجر المقلاع ٠
وقوة العباد ، توثق جبروت شمشون الا يتحرك ٠

عندما يحلّق النسر في السماء عالياً ،
فمن المستحيل أن يدرك طيفه ،
وما دام سابحاً في الجو ،
فلا يمكن أن يُصطاد ظلّه ،
وما دام الناسك محلقاً في الصلاة ،
فلا يمكن لقوة في العالم أن تلقي القبض عليه ·

★ ★ ★

التـــواضـــع

أشـرقت شمس البـر(١) ،
فذابت الجبال أمامـــه ،
بسط أشعتـــه المتواضعـــة على الربى فانخفضت ،
رأته النجاد فتوارت حتى تساوت مع السهول ·
أبصرته الأعماق فامتلأت حتى وازت مستوى الأرض ·
تطلعت اليه الأودية ، فأضحت سبلا ممهدة الى ملكوته ·
تأمل الطريق الوعر في سلامه وبساطته ، فاستحال سهلا أخضر ·
استوعب الأعداء الحاقـدون محبتـــه ،
فأحبوا بعضهم بعضاً ·
رآه الأسد والثـور ، فربطـا تحت نـير واحـد ·
لاقاه الذئب والحمل ، فصارا جســداً واحداً ·
حملقت البواشق بالنسر الشـــاب ،
فعقدت صلحاً مـع الطيـور ، ونزعت مخالبها ،
وخفضت أجنحتها ، لتحيتـــه ·

---

١ ـ السيد المسيح ·

الميــــلاد

في المـذود

سبحان الاله الرفيــع الشأن ،
الذي يسكن في السماء العالية الفسيحة ،
شـــاء :
فحــلّ في مذود بسيط لا تتجاوز مساحته شبرا ٠
البحر الخضم ملء حفنته ،
شـــاء فولـد في مغـــارة ،
السماء مملوءة مـــن مجـــده ،
والمذود قد آمتلأ من بهائـــه ،
تاق الناموس أن يرى مجـــده ،
ولكنـــه لـم ينـل أمنيتـــه ،
ليأت اليوم لـيراه ملفوفـاً بالأقمطـــة ،
قيل الاولين : من يتجاسر أن يرى الله ويحيا ؟ !
واليوم يُقال : من يراه يحيا وينجو من الموت ٠

القـلب الجـديـد

لمار افرام قصيدة رائعة بموضوع « القلب الجديد » نقلنا بعض أبياتها الأولى نظماً وكالآتي :

يا الهــي ان قلبي قد فسـد	بذنــوب وشــرورٍ لا تعـُـد
فأعطني قلبــاً جديداً سيدي	يمقت الدنيا ويزري بالجسد
أعطنـي قلبـاً مليئـاً بالسنى	لا ينال السوء قطعاً من أحد
ينشر الحب نقيّـاً صافيـاً	سالمــاً من كل حقـد وحسد
أشتهي قلباً تنقـــى بالتقـى	وبروح الله باهى واعتمـــد
لا يبالــي بعروشٍ وغنـــى	لا ولا يبغـي ثناء أو مــدد
يعشق الزهـد صـلاة مثلمـا	يعشق الصوم حيـاة والجلد
مثل هــذا القلب ان أعطيتنـي	بعـدت عني الخطايـا للأبد

مـــار أفـــرام الفيلســـوف

ولئن يقول العلامة ابن العبري . أن مار افرام لم يذق الحكمة الاغريقية ، غير أن قصائده العديدة . وميامرة الكثيرة ، تنم عن«فلسفة روحية » سامية واراء حكيمة جليلة مما تجعل من مار افرام فيلسوفاً مسيحياً كبيراً . ولج الفلسفة الروحية من أوسع أبوابها ·

لقد تناول مواضيع فلسفية عديدة ومختلفة ، في القضاء ، والأجل، والحرية ،والسلطة الذاتية ، والارادة وغيرها وطرحها على بساط البحث والنقاش مستنداً الى معطيات الوحي ، ومسلطاً أضواء العقل والمنطق · وخرج بنتائج تعتبر مادة فلسفية دسمة بل مرجعاً في هذا العلم الجليل. ولنتناول بعض دراساته الفلسفية :

الحريـــة : يجعل مارافرام « قدرة الله على كل شيء » أساساً لبحثه في موضوع الحرية فيقول : الله قادر على كل شيء ، فهو اذا أراد يستطيع أن يغيِّر الخواص الطبيعية ، ويقيد شرائع الطبيعة ، فقوته فوق كل قوى الطبيعة · فهو بقدرته يجعل الحلو مراً والمر حلواً ، والبياض سواداً ، والنور ظلاماً ، وبالنسبة للانسان ، فيقدر الله أن يحوّل ظلمه عدلا ، وشره خيراً ، ورذيلته فضيلة ، ولكنه لا يفعل ذلك لأنه يريد الحفاظ على الترتيب الانساني ، وصيانة التنظيم البشري ، وهو جلّ شأنه لا يتصرف مع البشر كما يتصرف مع الكائنات الصماء التي لا حرية لها لذلك فهو يخضعها لقوته ولارادته متى شاء · أما الانسان هذا المخلوق العجيب فقد جمَّله بالحرية التي لا يريد أن يسلبها منه · فالله يقود الانسان نحو الخير والعدل والفضيلة عن طريق الوعود والارشاد لا عن طريق القسر والاستعباد ، وأن الخير الناتج عن القسر ليس خيراً بالمعنى الصحيح ،وان العدل الحاصل عن الاضطرار ليس عدلا حقيقياً · فنستنتج من هنا أمرين :

أولا : أن الله يمنح الوعود للانسان ليظهر ارادته الصالحة تجاهه ·

ثانياً : أن حرية الانســان ولئن تحول دون استعمال الله قوتــه في الانسان قسراً ، غير أن هذه القوة الخفية المستترة تظهر لتجابه حرية الانسان عند تأديبه وصب جامات غضب الله على أبناء البشر ، فهــو يستعمل مع قوى الطبيعة قوة قسرية ، ويستخدم مع البشر الغضب ، فلو

استخدم الله مع البشر الالزام والقهر لتغيير سلوكهم وتنظيم خلقهم ٠ لما كانت هنالك حرية ٠ وحيث لا حرية . فلا يجب من ثم أن ينتقم الله على ذنوب الناس ٠

ان الله تعالى هو عادل ، فهو لم يحمّل حرية الانسان عبئا ثقيلا ،ولا يطالبه بما فوق طاقته . فالله لا يطالب الأعرج بأن يعدو سريعا ، ولا يريد من الأعمى أن يميز الألوان . ولا يفرض على الأخرس أن ينطق نطقاً فصيحا بليغا . وليس ذلك فقط بل انه أي الله يغضب على من يطالب الغير بما لايقوى عليه لأنه عادل ٠ في العهد القديم طالب بلعام من الاتان بما لا تستطيع اتيانه ولا القيام به ٠ لذلك غضب الله على بلعام وحاكمه بواسطة الملاك ٠ هكذا أيضا لا يطالب الانسان الضعيف فوق طاقته . فان كان الله قد غضب على بلعام لأجل طلبه غير الشرعي فكم بالأحرى الصالح العادل لا يلزم ضعفنا بما لا نقوى على احتماله ٠ وبالمقابل ، كما أن العدل لا يطالب الانسان بما هو فوق طاقته . كذلك لا يتسامح معه ان أهمل القيام بما يترتب عليه ويقوى على أدائه ٠

الحرية هي سبب أعمال البشر : يؤكد مار افرام الفيلسوف السرياني . أن الحرية هي مصدر أعمال البشر صالحة كانت أم شريرة ٠ وان كل عمل يأتيه الانسان لا بد من أن يمر بثلاث مراحل أو يقوم على ثلاث ركائز هي وبحسب الترتيب ١ ـ الفكر ٢ ـ القول ٣ ـ العمل ٠ وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة تصدر عن « الارادة » : والارادة تأتمر ب « الحرية » وبالتالي فان حرية الانسان هي السبب الأول والأخير لما يأتيه الانسان من عمل الخير أو الشر ، الصلاح أو الطلاح ٠ ويقول أيضا « ان الارادة هي عمل فعلي ، فالذي يريد وان لم ينفذ ارادته ، فكأنه قام بذلك الفعل سواء نفذه أم لم ينفذه » ثم يستطرد قائلا « ان مجرد التفكير في عمل شيء ما ، يقوم مقام العمل ٠ فان التفكير بالسوء يقوم مقام العمل السيء ، والنظرة الدنسة تقوم مقام العمل الدنس ، والغضب يقوم مقام السيف ، والحسد الصامت يقوم مقام السهم » ٠ ثم يعظ الانسان قائلا : « لنبتعد اذن عن الفكر الدنس ، لأن التفكير بالشيء هو عمل بالذات ، ولنفكرنَّ تفكيراً صالحاً ، فان التفكير الصالح هو عمل صالح » ٠ ويضيف : « ان الله الذي يتحرى كل ارادة بشرية ، يعتبر تلك الارادة بمثابة عمل » ٠ وينتهي الى نتيجة أخيرة يجعلها مسك الختام فيقول : « ان حرية الانسان دفينة في تلك الارادة التي تفعل كل شيء ، فكما أن ارادة الله هي عمله ، هكذا يتطلع الى ارادتنا كأنها أفعال » ٠ ويورد قوله

تعالى « ان الله خلق الانسان كصورته ومثاله » ويفسر قوله تعالى : ان هذه الصورة ان هي الا السلطة الذاتية في الانسان . والحرية الكاملة ليفعل ما يشاء ·

الارادة : في الميمر الرابع من حصار نصيبين يتحدث مار افرام عن الارادة فيقول : ولئن كان لهم (الفرس) ارادة خاصة بهم ، الا انهم خاضعون لارادة أخرى ، ولئن ملكوا حريتهم الخاصة أيضاً ، ولكنهم تحت نفوذ سيادة أخرى · صحيح أن لهم سلطة ذاتية ولكن في الوقت نفسه يتواجد الى جانب ذلك اضطرار وقسر · وبحسب ما يلي :

١ ـ « لا كل ما يريده الانسان يستطيع أن ينفذه » فالارادة شيء والعمل شيء آخر ، فكثيراً ما تصمم الارادة باتيان عمل ما ، ولكنها تبقى عاجزة عن تنفيذ ذلك العمل اذ يتداخل في الأمر عائق ما يحول دون تطبيق العمل الذي نوت الارادة القيام به · غير أن هذا العائق الذي حال دون تنفيذ ذلك العمل ، لا يستطيع أن يمنع الفكر أو أن يصده عن التفكير بتنفيذ ذلك العمل · وهكذا ينتهي الأمر « ان الانسان يريد أن يعمل ولكنه لا يقدر أن يعمل » ·

٢ ـ نجد مار أفرام في ميمره هذا يعلق الأهمية على الارادة أكثر من العمل ، فيقول : « لكل انسان ارادة ، ولكن ليس لكل انسان عمل » فأحياناً يفكر الانسان أن يفعل شيئاً ، ولكنه لا يستطيع أن يكمل ارادته· فمعناها أنه لم يكن هنالك عمل في الوسط ، انما توجد ارادة فقط ، ففي هذه الحالة يبدو أمران ، أولا : عجز الانسان عن تنفيذ العمل ، ثانياً : حرية الانسان في التفكير ، وبناء على ذلك ، يقاس خير الانسان وشره على نوعية الارادة ، فان كانت الارادة صالحة ، فهو أيضاً صالح، وان كانت الارادة شريرة فهو أيضاً شرير ·

٣ ـ بعد أن يطرح مار افرام هاتين النقطتين الفلسفيتين اللتين أوردهما كواسطة للتوصل الى الأمر الذي يرمي اليه وهو الغاية ، يعود مخاطباً الانسان بقوله : « أعلن كل ارادتك سواء تمت أم لم تتم ، فان تمت فقد فزت بالظفر ، وان لم تتم فأنت بريء » **والمثال على ذلك :** ان الانسان الذي يتألم عندما يرى الشر متفشياً والرذيلة سائدة بين الناس ، وهو لا يملك سلطاناً للقضاء على ذلك الشر وقمع تلك الرذيلة، وهو وان لم يتمكن من اتمام رغبته والحصول على غايته ، ولكن بما انه تألم على هذا الوضع السيء ، فهذا الألم أكسبه أجراً · **مثال آخر :**

من يفرح بالشر أو يحثعلى اتيانه ، فمثل هذا وان لم يأت بالشر بنفسه الا انه يستوجب القصاص لأن ارادته رغبت في الشر · فالشخص الذي يدفع شخصاً آخر ليقدم على القيام بفعل القتل ، فانه يستحق نفس القصاص الذي يحكم به على القاتل ، لأنه دفع الى اتيان فعل القتل فهو مذنب ومجرم بارادته · وفي هذه الحالة ممكن أن يتبرأ القاتل ولئن قام بفعل القتل ، وأما المسبب فلا يتبرأ أبداً · ثم يورد مار افرام أمثلة أخرى مشابهة لا حاجة لايرادها ·

كيف يعاقب الله الانسان : الانسان في نظر الله عزيز جداً ، فهو مخلوق على صورته ومثاله ، يبالغ في اكرامه واسعاده ، ورفع مستواه الروحي · ومن مظاهر هذا الاكرام والعناية ، موقف الرب الاله تجاهه في الشدائد والمحن « من يحبّه الرب يؤدبّه » فيقول مار أفرام في ميمره في احتباس المطر : هلموا أيها الأحباء نتأمل في أمر احتباس المطر ، والجفاف الذي سيطر على الزرع ، فان كنا نحن قد أخطأنا ، فما ذنب الزرع ؟ واذا كانت حريتنا انحرفت عن الخير واتجهت نحو الشر ، فما هو ذنب هذه الكائنات الصماء ؟ واذا كانت الأنفس هي التي اقترفت الخطيئة ، فلماذا تقاصص الحقول والزروع ؟· ثم يعود بعد هذا فيتساءل : ان كان الله جل شأنه ليس بظالم ، وان كان الزرع ليس بخاطىء ، فما سبب احتباس المطر عن الزرع اذاً ؟ فيجيب الفيلسوف مار افرام بقوله : ان في هذا الأمر لا ينتج ما يعني ظلم الله بل يتجلى في الأمر نعمته للبشر ومحبته لهم ، واكرامه اياهم ، وعنايته بهم · ويستطرد قائلا : ولئن كان الانسان هو المخطىء غير انه مخلوق على صورة الله ، أما الزرع وغير ذلك من الكائنات الصماء فليست مخلوقة على صورة الله تعالى · فعندما يخطىء الانسان المخلوق على صورة الله يقاصص ما يمتلكه لكي يتعظم اكرامه ، وترتفع منزلته · فما أكرم الانسان عند الله وما أسمى منزلته ، فانه يقاصص ممتلكاته في حين أن القصاص يجب أن يكون له ، مثله مثل من يمزق ثيابه تعبيراً عن التعذيب الذي يلاقيه الجسم ·

ونرى صورة أخرى واضحة لهذا الاكرام ، يوم أخطأ آدم في الفردوس لُعنت الأرض بسببه ، ليظهر الله ، ان الانسان وان كان قد تجاوز أمره تعالى واقترف ذنباً كبيراً الا أنه مكرّم معزز عنده ، وهكذا يقال ان الله أشفق علينا وأدبنا في احتباس المطر عن حقولنا · فلو نجت الزروع من العقاب والقصاص ، لهلك أصحاب الزروع ، ولو جرى الأمر هكذا ،

لكانت الكائنات الصماء أرفع شأناً من الانسان · ولكن هذا لم يحدث . انما ما حدث كان دليلا على مكانة الانسان عند الله · وبالمقابل نجد أن الحية عندما أخطأت ، وأتت ذنباً . فقد عاقبها الله بشخصها « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسحفين . وتراباً تأكلين أيام حياتك » ولم يعاقب أحداً آخر بدلا عنها مشيراً الى طبيعة الحية الوضيعة · ثم ينهي مار افرام الفيلسوف ميمره هذا بقوله ان الله عظَّم الانسان أكثر من الملائكة اذ أعطاه جسده ودمه ·

وفي الميمر الذي يليه يقول امتداداً للميمر الأول . لقد غضب فرعون وأغضب الله ، فتحمل النهر قصاصاً وعقاباً بدل فرعون · ثم يدخل في موضوع « بنوة الانسان لله » مبيناً سموه وكرامته ويقول : ان الأب الطبيعي ، يقدم كل ما لديه لانقاذ ابنه والحفاظ على حياته ،هكذا أيضاً ان الله تعالى يؤدب الممتلكات بدلا من الملائكين ·

الأجل : في ميمر رائع يرد فيه مار أفرام على برديصان المبتدع ، يتحدث عن مقتل هابيل ، وموت آدم ، ويتطرق الى موضوع الأجل فيقول : هنالك فارق كبير ، وبون شاسع ما بين موت آدم ،ومقتل هابيل · فان الموت الذي قضى به الله على آدم نتيجة اقترافه الخطيئة يختلف عن قتل هابيل الذي يعتبر « جريمة » قام بها قائين · فان موت آدم المذنب جاء صادراً عن « العدل » أما قتل هابيل فقد أتى منبثقاً عن « الحرية » ولا يجوز بأية حالة من الأحوال أن نقول أن موت هابيل البار قتلا ، قد سبق موت آدم المذنب ، فيكون هابيل قد مات أولا بالموت الذي أصدره الله وفقاً لحكمته · فقد رسم للموت منذ البدء طريقان ، الأجل والقتل · فكما قضت « الحرية » « القتل قبل الموت » ، هكذا قرر العدل « الموت بعد الذنب » · ان الله سبق وعرف أن في عملية القتل لا بد من وجود قتيل وقاتل وفعل القتل · فحدد حياة القتيل ، بموته قتلا ، وفي هذه الحالة فان الله غير مسؤول عن ذنب القاتل وجرمه · كما لا يُسأل عن القتيل الذي مات بأجله · وان كان قضاء القتيل قد جاء بغير أجله فالأمر اذن كان صدفة ، وان قضى بأجله ففي الأمر شك ، والقاتل في هذه يكون بريئاً في كلتا الحالتين · وبما أن الله يترفع عن الصدفة والشك ، فالأمر اذن لم يحدث صدفة بل وقع لأن الأجل قد دنا ·

□ قصيـــدة :

بين الموت والشيطان

للقديس مار يعقوب السروجي الملفان

القديس مار يعقوب السروجي(١) أحد فرسان الشعر السرياني الثلاثة(٢) الذين يمثلونه على حقيقته . فهو يحتفظ بطابع سريانيته الأصيلة الخالصة(٣) . كما يحتفظ بجوهر نفسيته وشخصيته بالرغم من تأثره بمن سبقه من أمراء الشعر كمار افرام السرياني مثلا ·

ان شاعرية السروجي بحاجة ماسة الى من يجوب في جوانبها ، ويغوص في أعماقها ، فيضعها في اطارها الصحيح ويقدمها آنموذجاً رائعا للأدب السرياني خاصة والأدب الشرقي القديم عامة · فهي بلا شك مضيئة مشرقة . واسعة الآفاق ، فياضة القريحة ، تأتي عفوية مطبوعة دون أي كد أو عناء · فالسروجي يصلي ويعظ شعراً ، ويتوب شعراً . ويفرح ويحزن شعراً ، ويفسر العقائد الأرثوذكسية شعراً(٤) ، وتجتمع في قصائده كل القوى لفظاً ومعنى ومبنى وبيانا ومادة وسحراً وأدباً · وقد تولى الطيب الذكر مار أغناطيوس افرام الأول تقديمه بما يلي : « شاعر مفلق مطبوع لا يُلحق غباره ولا تُدرك آثاره · شعره يهجم على القلب بلا حجاب يلذه من سمعه لا تقرأ له ميمرا حتى تألفه وتعشقه الى

---

١ ـ ولد في قرية قورتم عام ٤٥١ وتخرج في مدرسة الرها فاصاب من علومها اللغوية والفلسفية واللاهوتية السهم الأوفى · وترهب وتنسك وفي الثانية والعشرين من عمره ارتجل قصيدته المشهورة في « مركبة حزقيال » في محضر خمسة أساقفة اقترحوها عليه · فاقروا له بالشاعرية الممتازة · ورسم قسا ثم قلد رتبة الزائر (البريودوط) لبلدة حورا · وفي عام ٥١٩ سقف على برشية بطنان سروج ومضى الى جوار ربه عام ٥٢١ فعيدت له البيعة وبعد دهر طويل نقل بعض رفاته الى هيكل خاص به في مدينة ديار بكر ترك قرابة الـ ٧٦٠ قصيدة . ورسائل وخطب نثرية ·

٢ ـ ان فرسان الشعر السرياني الثلاثة هم القديس مار أفرام ٣٧٣ + ومار اسحق الآمدي ٤٣٥ + ومار يعقوب السروجي ٥٢١ + ·

٣ ـ ان الشعراء الذين ظهروا بعد السروجي . سيما من القرن الثالث عشر فصاعدا . تأثروا بالآداب الأخرى ، فلم يحتفظوا بطابع الشعر الأصلي ·

٤ ـ كان السروجي أرثوذكسيا لحما ودما ، متمسكا بالمعتقد القويم كل التمسك (راجع كتاب خمائل الريحان تأليف نيافة مار غريغوريوس بولس بهنام مطران بغداد والبصرة) ·

حد الشغف . فمن روائع وبدائع تبهر العقول ، ومحاسن تأخذ بمجامع القلوب ، الى جزالة في الكلام وحسن في اللفظ وحلاوة في المذهب ودقة وعذوبة في المعنى وبراعة في التعبير واحكام في السبك على صفاء في الرونق(٥) .

أجل انه نسر من نسور الشعر . وما قصيدته (بين الموت والشيطان) الا صدى لاصطفاق أجنحته . انه في قصيدته هذه شأنه في سائر قصائده الكثر اطلاقاً ، يلج الموضوع بعد أن يحلّق في أجواء الروح ، وآفاق السماء جاثياً أمام الجالس على العرش مستلهماً الفكرة ومستمداً القوة والمضاء ، ثم يشرع برحلته الشعرية بعد أن يكون قد كون من ذلك « نجوى » ، هي قطعة أدبية رائعة نستخلص منها الأبيات التالية :

النجوى : الهي اذن لي أن أدخل الى روضة آلامك لأقطف زهور الصليب ، فأجمع منها باقة الموت ، وأقدمها هدية لكنيستك فتستنشق منها نسيم الحرية وعبير الحياة الأبدية . فجّر في داخلي جدول الشعر ينساب في عواطفي وقلبي وروحي ، هادراً بأناشيد الآلام والصلب والموت .

مد أصابعك الروحية لتلمس أوتار قيثارتي فتوقع نشيد الرجاء ، وأهزوجة النصر المبين .

دعني رباه أن ألج كرمة الأحزان فأعتصر منها خمرة الصليب ، فأقدمها ، للمؤمنين باسمك كأساً مترعة يشربونها فيرتوون بحبك .

لقد جعلت قصة موتك موضوعاً لكلامي ، فوفقني لأنسج خيوطها .

غموض السياسة الخلاصية : بعد أن ينتهي من نجواه يندفع بقوة ومضاء ليقيم برج قصيدته فيرسي قواعده على غموض السياسة الخلاصية ثم ينهض ببنائه حتى يبلغ الذرى فوق أعالي الجلجلة . تلك هي النقطة المركزية التي تدور حولها القصيدة ، بل هي نواة الموضوع ، اذ كان ذلك بالنسبة للشيطان « معضلة » أودت بمملكته المسماة ب (مملكة الظلمة) . يقول الملفان السروجي « رأى الآب أن جنس آدم قد لحقه الخزي والعار والكد والفناء من جراء العبودية التي لاقاها في قبضة الشيطان والخطيئة، فأرسل ابنه الوحيد لينتزعه من بين أشداقهما فيستعيد له كرامته الأولى

---

٥ ــ انظر كتاب اللؤلؤ المنثور ص ٢٧٣ .

ويرجعه الى بيته الأصيل ويعيد اليه جميع امتيازاته ، وقد لزم منذالبدء في طريقه هذا الصمت والهدوء وتجنب الضجة والضوضاء ، فتنازل من السماء بمنتهى الهدوء وحل في أحشاء العذراء في غاية الصمت ، وولدفي مغارة بسيطة بشدة التواضع في بعد كلي عن دلائل الجاه والعظمة دون أن يرافقه شيء من مظاهر القوة والسلطان ، وظهر انساناً كاملا بنفس عاقلة وجسد كجسدنا • وقد كان الهدوء ظاهرة ملازمة له طيلةسياسته على الأرض كما كانت دلائل الضعف البشري بادية من خلال حياته ، الأمور التي أربكت الشيطان وحيرت الموت والهاوية لأن المعضلة كانت مشتركة بين الحلف الثلاثي • وكم بذل الشيطان محاولا كشف السر مجهداً تفكيره ولكن عبثاً حاول أماطة اللثام عن حقيقته • فيسوع لم يفه بكلمة واحدة لتنير له السبيل • وحيث ان الأمر أشكل عليه راح يتلصص ويتجسس ويفرغ كل جهوده للايقاع به والتآمر عليه ولم يفلح في جميعها• وآخر محاولة كانت أن غرر بأنصاره اليهود فعلقوه على خشبة الصليب ليموت ظناً منه أن أمره سينتهي وان نوره سيخبو الى الأبد ، وستنقرض مبادئه ورسالته • وهكذا يكون المسيح ضباباً قد تلاشى وحلماً قد انقضى •

المسيح فوق الصليب : وهنا دق ناقوس الخطر معلناً نهاية قوى الشر الزرية ، هنا المعركة الفاصلة ما بين النور والظلام، ومابين الخير والشر• يقول الملفان « ما ان ارتفع الملك فوق الصليب حتى شعت أنوار الخلاص» وأخذ صوته يدوي في أعماق الهاوية موقظاً الأسرى الغارقين في سبات عميق قائلا : بشراكم أيها الموتى لقد ذقت الموت لأمنحكم الحياة ،فاهجروا قبوركم وهلموا عاينوا الخلاص • أجل كان صوته في تلك اللحظات يملأ أرجاء الهاوية معلناً بشرى الفداء والحرية والانعتاق • وكأني به ينادي قائلا : هلم يا آدم خارجاً وانظر كم ذقت من خسف الذل من أجلك ،تأمل عظم محبة أبي لك ، فقد أرسلني لأعتقك وأعيدك الى الفردوس ، وأنت يا هابيل المقتول استيقظ وتطلع الى الرمح الذي طعن به جنبي ، فقد سلكت طريق الدم الذي سال منك ، فليصمت اذن دمك لأن دمي يصرخ الآن للحساب من القتلة المجرمين عني وعنك ، وانهض يا نوح من نومك وهلم سريعاً وانظر خلاصي فقد انتصرت على الأعداء ، وأنت يا ابراهيم اترك القبر وتعال تأمل صليبي ، وليرافقك ابنك ووحيدك اسحق لينظر معك جراحاتي على الصليب ، استيقظوا يا يعقوب ويوسف وموسى ويشوع بن نون وارفعوا الحمد الى الآب، اذ كملت أقوالكم وتمت نبواتكم وتحققت أحلامكم » أجل دوى صوت المسيح في الهاوية فاهتزت أساسانها

اهتزازاً عنيفاً واختلجت فيها العظام المبعثرة . وانبسط عليها العصب والتقت الأعضاء المنفصلة والتصقت ببعضها . وأخذت الأجساد تتجدد وتستعيد نضارتها ٠

مؤتمر الشيطان والموت والهاوية : سمع الموت ضجة غير طبيعيـة في أرجاء الهاوية ، فتوجس منها خيفة . وذاب قلبه هلعاً . وأدرك مصيره المحتوم ، فطار صوابه واحتار في أمره واستفرغ ما عنده من جهد لدرء الخطر ولم يدر ما العمل ٠ بادر الى الباب مسرعاً ليوصده في وجـه « الذين كانوا ينتظرون الخلاص » فلم يفلح ٠ فلقد دكت أساسات السجن دكاً ، وانهارت قوائمه . ووقع الرعب في قلوب الحراس فذعروا ووقفوا بوجوم يرتجفون ٠

كان لحالة المـوت هـذه وقع أليم في قلب الهاوية فاقتربت منه تسأله :

الهاويـة : ما لي أراك أيها الموت منهوكاً وفي ضنك شديد ، تنحدر شيئاً فشيئاً الى النهاية المخزية المزرية، أنت وحدك القابض على صولجان الملك ، والمزين مفرقه تاج النصر والظفر ٠ وأنت أنت صاحب الأمـر والنهي والمشورة ، وتقلـق وتذعر الى هـذا الحد ؟ من هذا الذي سـد في وجهك كل سبل الحيلة ؟ وألقى الرعب والخوف في سائر جوارحـك ؟ فان كان انساناً فهو ليس في قوتـك ، فلمَ الخـوف ؟ وان كـان يتظاهـر بشكل انسان فلا بـد أن يخضع مرغماً لسيطرتك وأحكامـك ، فابعث عزيمتك ، فمن يستطـع الانسلال الى حجرتنا وكل شيء فيهـا موصد محكم الرتاج ؟٠

المـوت : لقد كنت حتى الآن مخدوعا من أمره . اذ غرتني بساطة منظره ، ظننته انساناً بحتاً ولم أعلم أن اللاهوت محتجب فيه ، وكثيراً ما ترددت في تقرير ذلك ، ولكنه الآن ظهر لي انه ابن الله حقاً ، لأن مَن مِن الأرضيين يستطيع أن يقيم الموتى ؟ ومَن مِن جنس الترابيين يقدر أن يبعث الرميم ؟ فلو كان انساناً بحتاً كيف اذن تسنى له أن يسيطـر على مملكتنا ؟ انه يحيي الموتى كمن له سلطان وليس بواسطة ٠

الهاويـة : لا تجعل لليأس سبيلا الى نفسك ، فالأمر أهون مما تظن، وأبسط مما تقدر ، فهنالك كثيرون أمثال هذا أحيوا موتى ، كأيليـا واليشع النبيين اللذين أحيى كل منهما ميتاً ، ومع هـذا لم تتزعزع ثقتـك بنفسك ، تشجع ، اني ما رأيت قط في وجهك مثل هذه السيماء ، فقد-

تجلى الجزع في قسماته بوضوح . مع العلم انه لم يستطع أحد من الأبرار الأولين أن يحرج موقفك بهذا الشكل .

الموت : ان ما أتاه ايليا كان أمراً بسيطا . فقد أحيى صبيا بعد جهد جهيد . امتد عليه وهو يبتهل ويتضرع . واستغرق في التجهد حتى تصفَّد العرق من جبينه . وبموازرة النعمة عادت نفسه الى جسده . وكذلك قل عن اليشع . فانه ظل يصلي ويطلب فترة طويلة . لقد أرسل عصا بيد جحزي ولم يؤثر فيَّ . وحاول أن يرعبني ويعلن هزيمتي ولم يفلح . وظل يصرخ ويضرع ولم أكترث له . غير انه ما أن رسم علامة الصليب حتى أرغمت على الفرار . أما هذا يسوع فانه يختلف عن ذينك كل الاختلاف . فهو يحيي الموتى دون أي كد أو عناء كأنه الاله صاحب السلطان . ويضطرني على الفرار رغم أنفي . سمعته يصرخ قائلا « لعازر هلم خارجاً » فأرهبني صوته وللحال أعدت اليه الميتحياً . ونادى ابنة يايراس « أيتها الصبية قومي » فقامت للحال وكأنها نهضت من النوم . وقال لابن الأرملة « لك أيها الشاب أقول قم » فقام . وهكذا فأشارة بسيطة منه تكفي لاحياء الموتى بل كل ذلك يفعله دون اللجوء الى الصلاة والتضرع .

حقاً ان أمره ليرهبني . وها قد صمم الدخول الى مملكتنا وسيرغمنا لا محالة على الاستسلام .

الهاوية : اذا كان الأمر ذا بال فاستأثر كل اهتمامك . لأنخروجك من هذا المأزق بات أمراً ضرورياً والا هلكنا جميعاً . وأضعنا كل شيء . حاذره ولا تدنون منه وابعث اليه من ناداهم فذلك خير من أن يأتي الينا هو بنفسه فيزعزع بنياننا ويقوض دعائمنا . نعم . حذار حذار منه . لا تقاوم ارادته لئلا يأتي ويزيحك عن الحكم . خذ الأمر بقوابله . فان لم تتعرض له لن يتعرض لك . اني أؤكد لك ان ثبت في مكانك بقي هو أيضاً عند الصالبين بعيداً عنك . في اعتقادي انه لا يمكنه أن يزيحكمنا ويقضي على سلطاننا ما دام لا يشرب كأسنا .

الموت : ان الأمر فوق ارادتي وطاقتي . انه يأمرني أن أقبل اليه رغم أنفي . فقد فتح فاه ليشرب الكأس بارادته . وليس بامكاني قط مخالفة أوامره . ان آلامه المبرحة تحذرني من التأخير أو التأجيل أو التملص . ليت من أنزله عن الصليب ورفع المسامير من يديه ورجليه أو أطلق سبيله . ليت من أشار على الصالبين لينزلوه من الخشبة ويتركوه وشأنه . اذن لابتعد عني فبقيت محتفظاً بسلطاني ونفوذي .

الهاويـــة : أين الشيطان ساعدك الأيمن وصديقك الحميم ،اليك به ليساعدك على توطيد دعائم ملكنا ضد عدونا الألد · دعــه يمضي ويحثهم بمكره ودهائه · كيف لا وقد اعتاد أن يمحض أنصاره نصحاً في المواقف الحرجة ، فهو لا يني يرسم الخطط الناجحـة بيسر وسهولـة ، فليأخذ على عاتقه هذه المهمة الخطرة · أليس شريكك في الحكم فلماذا تركك وحيداً في الميدان ؟ لا شـك في أن القضاء عليك هو قضاء علـى ثلاثتنا في آن واحـد · فسيقلص نفوذك ويقضي عليـك ، ويضـرب الشيطان ضربة قوية فيسقط كالبرق ، وأما أنا فسيدمرني ويحيلنـي خراباً يباباً ، فنصبح كلنا أثراً بعد عين ·

المـوت : الأمر عسير جداً وهو فوق طاقتي ، وقد وقعت بين حيص بيص ، ولا بد لي من أن أرفع يدي مستسلماً ، انه يطلب الحياة عـــن طريقي أنا الموت ، ويفتش عن الخلاص في أعماقك أيتها الهاوية ، ألا ترين في الأمر صعوبة ؟

الهاويـــة : أيها الداهية الدهياء أرى في أمرك كل العجب · ففيك التقى التشاؤم والجبن والبلاهة ، لا تفهم ولا تعي ، اعلم أن العاقبةوخيمة والمغبة شنيعة ، والمصيبة عظيمة ، والنتائج ذل وهوان واندحار وعـار وشنار · أقدح فكرك واشحذ سيف ذكائك ، علك تنزع المسامير من يديه ورجليه ، فيطلق سراحه حياً · أنت الذي علقته علىالخشبة وعليكيتوقف أمر انزاله عن الصليب · رحمة بأمك الخطية فقد سمرها معه · عليـك أن تفك قيودها وتحل رباطاتها مع ابن مريم المصلوب · انه أحد الأحدين، انه ملك الحياة ، انه المرتقب الموعود به · فاذا ما دخل الي فسألقـى مصيري المحتوم منخذلة · انك كدست في دياجي الظلمـة جثث الأجيـال والدهور ، فاذا مات هذا سوف نزج في مأزق ونبقى عرضـة للفضيحـة والازدراء ، وسيكون عقابنا أليماً شديداً · ان آدم وزمرته الذين يناديهم المصلوب ويبشرهم بالانعتاق والحرية ، اذا ما خرجوا من مخادعي المظلمة الى أجواء الحرية ، سيكشفون أسرارك كلها ، ويشهرونك ، ويشمتون بك · ألا تعلم أن للسارق ودافعه الى السرقة مصيراً واحداً ؟ نعم نعم ، أفرغ جهدك وهيىء الأسباب وأعد العدة وأطلق سبيل يسوع ·

موقف الشيطان : كان الشيطان يصغي الى المحـاورة ما بين المـوت والهاوية ، ويرقب سير الأمور باهتمام بالغ ، وقد تصور هول المصيبةالتي ستنزل به ، وتطلع بفزع الى نهايته المزرية ، أجل ، لقد أقلقته آلاميسوع واقدامه على الموت ، وتصميمه على الدخول الى الهاوية ، فشـرع يدرس

الأمر ويتخذ الترابير لملاقاته قبل وقوعه ، وقد انهدم رجاؤه وانهار أمله ، وسدت في وجهه سبل الحيلة ، ولكنه يبذل آخر محاولة يائسة · انه يضع في أيدي الصالبين آخر سلاح يشهرونه في وجه الفادي « وآخر الداء الكي » · همس في أذنهم ليحثوه على اطلاق نفسه بارادته ، فهاجوا وماجوا وصاحوا بصوت عظيم « أنقذ نفسك ان استطعت وانزل عن الصليب فنؤمن بأنك ابن الله » وهكذا كان الصالبون يرددون صدى قول الشيطان ليس الا · غير أن يسوع كان يلقى ضوضاءهم وضجيجهم بهدوء ورزانة· وكأني به يقول « ما بالك أيها الشيطان تخبط خبط عشواء ، وتسعى الى ما لا يمكن أن يتحقق لك ؟ لقد جئت من عند أبي حاملا رسالة الموت ، لأنزل الى أعماق الهاوية ، وأبشر المأسورين فيها بالعتق ، وأفدي من كدستهم في الهاوية · أجل ، أتيت لأقضي على آخر عدو الذي هو الموت : « فأين شوكتك يا موت وأين غلبتك يا هاوية » ؟

وهكذا أخفق الشيطان فيما سعى اليه ، ولم يبلغ وطره فيما رغب فيه ، فقد مات يسوع وأنزل بالموت والهاوية والشيطان أفدح خسارة ·

لك الحمد أيها الملك الظافر الى أبد الآبدين آمين ·

★ ★ ★

قصة بيع مار توما الرسول
في شعر القديس مار يعقوب السروجي الملفان

تمهيد : بعد أن قام مار توما الرسول بجولة تبشيرية واسعة النطاق، عمت معظم بلاد المشرق ، ختم رسالته في بلاد الهند ، فهو أول من وضع حجر الأساس في صرح المسيحية في تلك الديار . ورفع فوقها لواء الانجيل. لذلك نُعت برسول الهند ·

ان قصة ذهابه الى الهند يرويها التقليد الكنسي على النحو التالي : ألهم الروح القدس الرسل الاثني عشر فعقدوا اجتماعاً طارئاً في العلية السرية ، وافتتحوه كالمعتاد بالصلاة ، ثم أوحي اليهم أن يقترعوا على أقطار المعمورة فأصابت مار توما الرسول بلاد الهند · فاغتم كثيراً ، وعظم عليه الأمر جداً ، وأخذ يحاجج زملاءه ويناقشهم بعنف متمنعاً عن الذهاب · وفيما هم كذلك ، بلغه أن تاجراً يدعى حابان أم هذه الديار موفداً من قبل ملك الهند · فأراد الرسول توما أن يتصل به ليستفسره عن أوضاع الهند · وبينما كان شاخصاً اليه ، تراءى له الرب بهيئة تاجر ، أمسكه بيده ، وأدخله الى حابان وقال له : انه أحد عبيدي ، وهو نجار ماهر ، يمكنك أن تشتريه ان كنت بحاجة اليه · فاشتراه حابان ودفع ثمنه(١) ·

هذه هي الرواية التقليدية لهذه الحقيقة ، غير أن الملفان مار يعقوب السروجي ٥٢٠ + تناولها وسكبها بقالب شعري بديع ، مزج فيهاالخيال والعاطفة ، واختلق لها صوراً رائعة ، وأضفى عليها فناً أدبياً رفيعاً ، حتى أخرجها ترفل بحلة زاهية قشيبة ، تلتمع فيها خيوط ذهبية من تاريخ وأدب ودين ·

استهوتني قصيدة السروجي هذه ، ما حداني أن أستخلصها وأعرّبها وأقدمها للقراء لوناً من ألوان الشعر السرياني البديع ، بأسلوب حواري ممتع يؤثر في النفس والقلب والروح ، وأنا أبغي من وراء ذلك أن أنبه القارىء الى ما يحوي الأدب السرياني من روائع وفرائد وما حفلت به الثقافة الآرامية السريانية من الكتابة الجميلة والتفكير الرفيع ·

---

١ ـ التاريخ الكنسي لابن العبري ، في ترجمة مار توما الرسول · والدرر النفيسة ص ٢١٣ ـ ٢١٤ · راجع ذلك كله في تاريخ الكنيسة السريانية الهندية تأليف قداسة البطريرك يعقوب الثالث ص ١٦ ـ ٢٠ ·

الاستهـــــــلال
« مناجـــاة »

يستهل الشاعر قصيدة مأخوذاً بعاطفة دينيـة روحية ، فيجثو أمـام عرش النعمة ساكباً قلبه وروحه ، متوسلا الى الله ليسعفه بارشاد روحـه القدوس كي يتحدث عـن هـــذا الرسول العظيم الشأن ، ومما جـاء في مناجاته هذه :

« أيها المسيح ، يا من حررت الجنس البشري من العبودية بواسطة بيعك ، أطلق لساني من عقاله ليتحدث عن التلميذ الذي بعته عبداًرقيقاً · يا محرر العبيد الذي شاءت حريتك أن تصبح عبداً . هب لي أن أتحدث عن ابن الأحرار الذي صار عبداً ·

الولـــوج في الموضـــوع
« مفاعيــل الـــروح القـــدس »

بعد أن حلّق النسر الجبار ، المسيح الاله ، الى عشـه في السمـاء ، أرسل روحه القدوس الى تلاميذه في العلية السرية بحسب وعـده لهـم ، فملأهم قوة وبسالة وجبروتاً ، واستقر على كل منهم بشكل ألسنة نارية، ومنحهم قوة تفسير الأسرار الغامضة وشفاء الأمراض المستعصية · أجل في تلك العلية تأسست الكنيسة ، وانبعث منها صوت الانجيل . وتفجر في وسطها ينبوع الخلاص ، والتمعت في سمائها أنوار الهدى ·

لقد أضحى الرسل أجنحة لتلك الحمامة التي استقرت على المسيح عند عماده ، فحلّقوا في أجواء المسكونة عالياً ، وكان اصطكاك أجنحتهم يُسمع البشرية أهازيج الفـداء ، وأنغام الحريـة ، وأغانـي الخلاص وملكوت السماء ·

اجتمـــاع مفاجـــيء

أوحى الروح القدس الى الرسل فاجتمعوا في العلية دون أن يعرفوا سبب اجتماعهم ودون أن يفهموا من أمرهم شيئاً ، فتدرعوا بترس الايمان وتمنطقوا بالرجاء واستعدوا للصلاة ، والتضرع والابتهال يطلبون ولا يعلمون ما يطلبون « ولكن الروح نفسه كان يشفع فيهم بأنّات لاتوصف» · وفي خلال الصلاة استنارت أذهانهم فأنزل عليهم الوحي الالهي ما ينبغي أن يفعلوه ·

شاءت حكمة الله أن توزع في ذلك الاجتماع أقطار المسكونة بين التلاميذ لينادي فيها كلٌ على انفراد ، وذلك لاعتبارين : اعتبار عالمي واعتبار روحي ، فبالنسبة الى الاعتبار العالمي ، ليكون عملهم واضحاً ، وليحثهم

على السعي والتفوق ، وليُعرف الخامل من النشيط • وبالنسبة الى الاعتبار الروحي ، لتظهر قوة الله في الضعف ، ولينتصر الانجيل بأعجوبة لا باستخدام الوسائل العالمية المألوفة • فشبه الشاعر الرسل بالحملان ، والعالم بالذئاب الخاطفة وقال : « جمع الراعي أغنام قطيعه الى العلية ، وأمرهم أن يتوجهوا الى الذئاب الخاطفة آحاداً لا سوية ، لئلا يتعرضوا للاتهامات الباطلة ، وينسبوا نصرهم الى أمور بشرية محضة • ولكن ذلك كان مخالفاً للواقع ، لأن الغنم كلها لا تستطيع مقاومة ذئب واحد ، ما لم يرفع الراعي عصاه ويُرعب الذئب • ان ذئباً واحداً يقدر أن يفترس ألف حمل • بينما هنا في خراف المسيح ، فان حملا واحداً انتصر على ألف ذئب ، وذلك بقوة الحمل الذي ثغى فوق قمة الجلجلة » •

الاقتــــراع
حصيلـــــة الاجتمــــاع

تم توزيع أقطار المسكونة بين التلاميذ بموجب « الاقتراع » وهي الخطة التي رسمها الروح القدس بالذات ونفذها الرسل القديسون • فألقوا القرعة وكانت على الوجه التالي : أنطاكية لبطرس ، افسس ليوحنا ، أورشليم ليعقوب ، اليهودية لمتى ، أما توما فكانت الهند من نصيبه •

موقف توما من الاقتراع

وقف توما من ذلك موقف المخاصم المحتج وكأنه يمثل دور النبي يونان • وأخذت تطوف صور الهند السمجة في خياله ، شعب بربري تتطاير منه شرارات الغضب ، وجوه سوداء قبيحة المنظر ، قوم شرير سيىء الخَلق والخُلق ، قاسي الطباع عنيفها ، ان القبر يكره أن يضحك لهم ، قلوب أشد صلابة من الصخر ، لغة غريبة كل ذلك جال في خلده ، فاحتقر من ثم الهند وانبرى للجدل والاحتجاج • تأمل انطاكية برياضها الغناء وخمائلها الفيحاء ، فاشتد احتقاره للهند ، تخيل افسس بجمالها الأخاذ وفتنتها الساحرة فما كان ذلك الا ليزيده كرهاً للهند « الفاحشة القذرة » ، وغضباً على أهلها • لقد تعين برتلماوس أستاذاً لأثينا مدينة الفلاسفة وتبوأ متى مكانته بين علماء اليهودية واهتز فيلبس سروراً ، وتاه ابنا زبدى فخراً • وهكذا جميع الرسل فرحون مطمئنون ، الا توما ، فقد بدا كئيباً مُطرقاً !

حوار ما بين الرسل وتوما

تطلع الرسل الأحد عشر الى توما ورأوه في هذه الحال المؤلمة فدار بينهم الحوار التالي ؟ :

الرسل : ما بك أيها الزميل الحبيب مغتماً كسيراً ولِمَ علت الكآبة محياك وبدت عليك سيماء القلق والاضطراب ؟ انظر كلنا بهج مغتبط ، ازاء عمل الروح القدس الذي ألهمنا أن نقترع ونوزع الأقطار بيننا فعيِّن لكل حصته فابتهج معنا يا أخانا الحبيب ·

توما : الابتهاج لكم ، والغبطة من نصيبكم أما أنا فليس لي الا الألم والبؤس ومن كانت الهند قرعته فهذا شأنه ·

الرسل : ان أمر المسيح لا رد له ولا دفع ولا مجال لمقاوم ومعتذر انسجم مع الأمر واذهب بلا تردد ·

توما : أمر المسيح ؟ أنتم اقترعتم وتغسلون أيديكم وتقولون أمر المسيح ! ارادة الله ! عمل الروح القدس ! لن أذهب الى الهند أبداً · أفهمتم ؟!

الرسل : لا تهذِ يا توما انه أمر المسيح حقاً ·

توما : لماذا يفرض علي المسيح هذا الأمر الصارم ؟ المسيح لا يفعل هذا أبداً ·

الرسل : هذه حكمته التي لا تدرك ، من يعلم ربما لأنك شككت في صحة قيامته بادئ بدء ، وذاع خبر شكّك هذا في كل مكان · ولا يستطيع أحد غيرك اقناع المرتابين العنيدين انك وحدكتصلح لهذا الأمر ان ذهبنا كلنا هناك قد لا يصدقوننا فاذهب وحدك أنت وناد هناك في الهند قائلا « لقد رأيته بعد قيامته ووضعت يدي وأصابعي في جنبه » ·

توما : انه لتعليل سقيم جداً لا يدعمه منطق ولا تسنده حجة · اذاً كيف ستبشرون في العالم بدوني ؟ ان كان قبول الناس للكلمة مرتبطاً بمناداتي فقط ، فامكثوا أنتم هنا ولا تبرحوا أورشليم ، ولا تتحملوا الأتعاب وتتجشموا عناء السفر فسأنطلق أنا وحدي ليس الى الهند فحسب بل الى كل العالم · اذا كانت الهند تتطلب توما لأنه شك وجسّ وآمن ، فأنطاكية لا تصدّق بطرس وأثينا لا تقتنع بمناداة برتلماوس ، وافسس ترفض أن تسمع الى يوحنا ·

أنا لاأذهب الى الهند دون غيري انه أمر فوق طاقتيوأعلى من قدرتي.

الرسل : أخيراً يا توما نحن لم نجتمع للجدل بل للعمل ·

توما : ان حل المعضلة ليس كما تقولون ·

الرسل : كيف اذن ·

توما : أما نقترع ثانية أو نذهب معاً ، أو دعوني من الذهاب الى الهند · نعم أريد اقتراعاً بالعدل والقسطاس لتكشف الحقيقة ، أريد أن تكون قرعتي مماثلة لقرعتكم · فان أصابتني الهند فسوف لا أعاند بل أرضخ لأن الأمر من الله ، لا يمكن أن أكون بعلا للبيَّة كليلة البصر ما لم آخذ معها راحيل جميلة المنظر ·

أنا لا أرى في الهند جواً ملائماً للوعظ والارشاد بين قوم أشرار ، الرسالة في الهند ستكون محفوفة بالمخاطر مليئة بالصعاب · لذلك فهي تحتاج الى جهد تعجز عنه قوتي والى نشاط لست أنا من أربابه· أنا لاأكفي وحدي لهذا العمل الشاق الواسع ليتطوع الجميع · انها أرض مليئة بالحسك والأشواك مفعمة بالأدغال وأنا وحدي لا أستطيع أن أحرث وأقلع وأزرع واسقي · ما أكون قد بدأت بحرث الأرض حتى تكون أشجاركم مثقّلة بالأثمار ولا يمضي على تبشيركم وقت قصير حتى يصبح تلاميذكم مبشرين يعدون بالمئات والألوف بينما أنا لم أكن قد بدأت ولو باعلان اسم المسيح وحده · صدقوني أنا الى الهند لا أذهب ما لم نذهب معاً · ومن ظنّ أني سأقبل ذلك فقد ضل ضلالا اتهموني بالخمول ، بالعجز ، بالاهمال كيفما شئتم ·

الرسل : خذ الأمر بقوابله يا توما· بلضع مقياساً لكل كلمة تلفظها · لماذا تلومنا نحن التلاميذ · نحن براء من كل ما حدث ، أن يسوع يرسلك الى الهند لا يوحنا ، وابن الله قد عين لك هذه البقعة من العالم فما دخل برتلماوس ؟ وكل ما تمّ انما تمّ بارشاد الروح فارفع اللوم عن ابني زبدي. اترك الجدل والاعتذار ، واهجر العناد والاصرار واذهب وبشر في الهند وقل لهم « لقد اقترب منكم ملكوت السماء » نحن كاخوة لك نرشدك وننصحك ألا تقاوم الحق بل تشجع وكن جندياً أميناً للمسيح يجابه الحرب ويتصدّى للعدو وجهاً لوجه · لنا فيك ثقة بأنك ذكي الفؤاد ، ذلق اللسان راكز التفكير ·

توما : قلت لكم لا أستطيع أن أفعل هذا اذهبوا أنتم فانكم تفوقونني ذكاء ومهارة وشأناً ومكانة · أنتم السابقون في الرسالة وأنا السابع لا تسترسلوا في النصح والتوجيه ، كل هذا مفهوم بالبداهة ، علموا الأمم وأظهروا طريق الخلاص للضالين ، أما أنا فقد تعلمت كل شيء من سيدي ، فقد طمر في قلبي زرع كلمتهفلست بحاجة الىتعليمكم وارشادكماذهبوا الى الهند ووجهوا وعلموا ، أما أن أذهب أنا فذاك أمر مستحيل ، مثلي مثلكم ·

الرسل : يظهر انك مفطور على الخصام ومجبول على العناد وان قاموسك لا يحوي سوى هاتين اللفظتين · هذه ليست أول مرة تعاند

وتخاصم ، بالأمس وقعت في أزمة الشك وكادت أمواجه تغرقك فيمحى ذكرك من سفر الايمان · واليوم تعود وتغوص في أعماقه ثانية · احذر الغرق · ان تاريخك معروف يا توما وماضيك ليس بخاف ولكنك عبثاً تحاول التملّص والتنصل ·

توما : أرجو ألا تقذفوا فيّ التهم الباطلة · لا حق لكم أن تعيّروني عن شكي أبداً · ان حرية الرأي هي من حقوق الفرد · لا أرضى أن يعاد هذا الكلام ثانية ، أنا لست أقل منكم حباً للمسيح ، رسول مثلكم وأكثر . أنا لم أنكره كبطرس ، ولم أسع وراء مآرب عالمية مثل ابني زبدي · رجاء نحن في موضوع نقاش لا في موضوع هجاء ·

الرسل : قلنا لك نحن لم نجتمع للجدل بل للعمل كفاك كفاك لا تقاوم الحق لا تلق بذار الشك بين صف التلاميذ ثانية ولا تحدث شقاقاً في وحدة الرسل · ولاَ تكن مثالا سيئاً لغيرك · لقد أنيطت بنا اذاعة كلمة الله فلا تكن عائقاً في سبيل ذلك · فان لم ترضخ وتحطم عنادك على صخرة الطاعة فلا يمكن أن تدعى تلميذاً للمسيح ·

توما : قلت لكم ان المعضلة لا تنحل الا اذا اقترعنا ثانية ، أو نذهب كلنا معاً · يجلس بطرس مع زملائه يصطاد السمك ويمتع النظر بمفاتن الطبيعة الساحرة ، ومشاهدها الخلابة ، يستمع الى خرير الماء وزقزقة العصافير ، يستنشق روائح زهور أنطاكية ورياحين اليهودية ، وتوما يذهب الى أرض الجن والأبالسة !! أنا مستعد أن أطوف العالم كله مبشراً الا الهند فلتكن لكم ، أنا جاهز أن أبشر الحيات السامة ولا الشعب الهندي ، لا بل اذهب الى سدوم فمن الآن لا تسمعوني خبر الهند كفى · كفى ·

مفاجأة مدهشة :

انتهت المحاورة بين الفريقين ، وتوما لم ينفك عن عناده · فاذا بصوت هامس يباغته ، هو صوت المسيح يكلمه بلهجة نصفها لوم ونصفها تشجيع ومواعيد قائلا : توما توما ، لقد وقفت على كل ما جرى بصدد جدالك مع اخوتك وعنادك القوي · وهنا وجم توما وعراه الذهول وجمد الدم في عروقه · ثم استطرد الصوت : تشجّع ولا تخف · أنا وحدي أستطيع أن أهدى روعك وأمنحك ما تريد · ان بطرس ويوحنا لعاجزان عن ارضائك ، لِمَ لم تلقَ سؤلك ؟ لِمَ تخاصم وتشاجر ؟ وهنا انقلب الموضوع الى حوار ما بين المسيح وتوما ·

المسيح : لقد دعوتك لأمر خطير ، لتنشر اسمي في الهند ، وسأكون ملازماً لك هناك ، أدعمك وأمد لك يدي ، تماماً مثلما فعلت مع موسى في

مصر • سأجعل ملك الهند فرعوناً ثانياً وسيرى آيات ومعجزات تعمل على يديك • ان موسى قبض على العصا أما أنت فستقبض على الصليب بالذات. تشجع وكن أسداً وازأر في غابات الهند وسوف نرى كيف ستتشتت من زئيرك الثعالب الصغار هنا وهناك وتختفي في كل غار حالك ووجر قاتم •

لا تلق الملامة على اخوتك فانهم براء • أنا الذي عيَّنت الهند مسرحاً لرسالتك ، وقد تم الاقتراع بحسب توجيهي وارشادي •

توما ، لا تحسد اخوتك على افسس وأنطاكية • لقد أعطيتك كرسياً ، وأعددت لك مجداً مؤثّلا • لم ينل زملاؤك ما حزته أنت ، لم يجس جنبي بطرس ولا ابنا زبدى ، حتى ولا يوحنا الحبيب الذي اتكأ على صدري • سأبيعك كعبد لأنك شككت في قيامتي • سأكتب لك صك العبيد موقعاً باسمي تحت اسمين مستعارين ، أنا ابن يوسف وأنت لابان • وكما اني لست ابن يوسف ولا أنت لابان كذلك وعبوديتك أيضاً مجاز لا حقيقة • ان هذا ما تقتضيه الرسالة • ان الاسخريوطي باعني للموت وقبض ثمني ، أما أنا فأبيعك للحياة ، لأحررك • لك الفخر بهذا يا توما ، أي « حسب التلميذ أن يكون كمعلمه » •

موقف توما ازاء البيع

هنا فارق العناد توما ، ولكن حلّ محله التعلل • سمع انه سيذهب الى الهند ويباع كعبد فصعق على ذلك،وعراه ذهول كبير وامتلأ خوفاً ورهبة وبدأ يبكي دماً • بدا له نصيبه يعجّ بالمصائب ، فأخذ يلتمس من المسيح بصوت واجف معتذراً مرتعداً كابراهيم قائلا : ان لم يكن هناك مجال لتبدل الهند بمحل آخر سيدي فسأذهب مسروراً مغتبطاً طالما هذه هي ارادتك الالهية • سأذهب وحدي • أنا رهن اشارتك ربي والهي ، ولكن دعني رباه أن أذهب حراً طليقاً لا عبداً رقيقاً • لا تجعلني صنواً لكنعان • انه يصعب عليّ أن أكون في مستواه • ذاك أتى عملا شنيعاً أما أنا فلم آت ذنباً يستوجب أن أباع عبداً ، وأنت العالِم بكل شيء لا تنظمني في مرتبة العبيد ، فاني تلميذك الأمين ورسولك الوفِي •

يبكي وينهمل دمعه ويقول : سيدي ، تلميذك يباع ويشرى ؟! سيسمع الناس ويؤولون هذا تأويل شتى تتفق وغاياتهم العالمية ونواياهم الدفينة تحت نيران الحقد • من يعلم ربما سيعزون الأمر الى حاجتك في حين انك غير محتاجٍ • فان كل غنى العالم هو لك • لقد نهيتني عن أن أحمل عصا أو مزوداً، فلمَ اشتهيت ثمني سيدي ؟! لو كنت أباع على أساس سد الحاجة لكنت بذلك مسروراً سعيداً • سيدي ، أخشى من اشاعة هذا الخبر بين اليهود

والأمم فتكون قهقهتهم عالية . سيلحقنا ازدراء هؤلاء ويصيبنا تعيير أولئك . لا تفسح المجال ليقولوا ان المسيح باع تلميذه عبداً .

الرسالة والعبودية نقيضان ، لا يمكن أن يلتقيا ويجتمعا على صعيد واحد . أجل لا يمكن أن أكون رسولا وعبداً في آن واحد . فان كنت عبداً فارفع عني الرسالة لئلا تفقد معناها ، وتذهب كرامتها .

لقد خصصت لي كرسياً مع اخوتي الرسل لادانة أسباط اسرائيل الاثنيعشر ، فكيف يصح أن يتربع العبد على العرش ويدين ؟!

لقد ولدت حراً طليقاً ، فلو حدث أن كان الأمر على خلاف ذلك ، لكنت أتحرر بك . لقد حررت جنس آدم الذي كان مستعبداً ، وتحرر الجميع بدمك المقدس . كيف لا وقد أعلنت جهاراً اننا قد أصبحنا أحراراً فلا عبودية بعد اليوم . فما بالك تجعل الحر عبداً للعبيد ؟!

سيدي : اجعل مكاني من مكان اخوتي الرسل رسولا . فان كانت العبودية أمراً ضرورياً للرسالة ، فاجعل من زملائي أيضاً عبيداً ، وبع الكل. حينئذ لا أعارض ولا أجادل . أرني صك عبودية بطرس ويوحنا ، وسجلني من ثم عبداً ثالثاً . أقبض ثمن فيلبس أمام عيني وبعني بأبخس ثمن . بع يعقوب وبرثلماوس لسيد واحد رحيم ، وبعني من ثم لعشرة أسياد قساة . أنا لا أبغي أن أجعل من زملائي عبيداً، انما أرغب في أن يكون الجميع جسداً واحداً بروح واحدة وأنت أنت الرأس .

سيدي : ان كانت ارادتك الالهية تأمر ببيعي لوحدي دون زملائي ، فهاأنذا أرسلني حيثما تشاء ، وكيفما تشاء . ادع سيدي ليستلمني ، فأنا حاضر . الموت سعادة من أجلك ، وتحمُّل السيف والنار من أجل اسمك حياة . انما رجائي ألا تتركني وحدي .

السيد المسيح : تطلع السيد المسيح الى توما فرأى قلبه قد ذاب فرقاً من هول الأمر ، ففاض حنانه ، وجاشت رأفته . أجل رآه وقد أوشك أن يغرق في لجج القلق ، تماماً مثل بطرس . فمد يده الحنونة وأنقذه . أرعبه الذهاب الى الهند ، وبالأخص أن يذهب عبداً ، أكثر من رهبة البحر . فبدأ يوبخه بلهجة رقيقة ملؤها العطف والحنان قائلا : تشجع يا توما : ما لي أراك واجفاً وقد خارت قواك ؟ علام العَبَرات والبكاء ؟ انك تبرهن بهذا على قلة ايمانك وفتور محبتك . يظهر أنك لا تثق بوعودي الصادقة ، ولم يؤثر

فيك كلامي قيد شعرة . كان عليك ألا تحاجج ولا تتعلّل . ان الرسول الحقيقي لا يتعلل ولا يحتج ولا يماحك أبداً . والرسالة الحقيقية تدعمها الطاعة العمياء .

لا يعظم عليك بيعك عبداً ، ففي الأمر سياسة وخطة ، تماماً مثلما حدث ليوسف الذي طرحه أخوته في الجب ، وباعوه كعبد ، وسيق الى مصر كمجرم، مكبل بالأغلال ومهان . ولأنه كان متكلا علي فقد اعتلى عرش الملك وقبض على الصولجان . تأمل أنه بيع من قبل أخوته ولم يتذمر ، أما أنت فيبيعك سيدك ! وبدلا من العرش الأرضي ، فقد وعدتك بعرش سماوي ، وبدلا من حلة الديباج والحرير . فقد أعددت لك أكليل البهاء وحلة النور . وبدلا من هتافات المنادين : « عش أيها الملك » ، فسيبتهج بك الملائكة الروحيون قائلين : مرحباً : بالرسول الأمين . وبدلا من اشباع مصر خبزاً ، سيشبع الهنود روحاً وحياة .

لو علمت يا توما ، آي أكليل ينتظرك في السماء ، اذن لبادرت الى الهند على جناح السرعة .

أجل ، لو علمت أي مجد قد أعدّ لك عند أبي ، لطفت الهند مرات عديدة .. ان ما في الهند من مصاعب وأخطار وآلام ، تتضاءل كلها أمام البهاء الذي سيكتنفك في السماء .

النهاية

توما يرضخ مسروراً

أبصر توما الحق ، وعاد الى الصواب ، ودبّت القوة في نفسه ، وزال عنه الخوف ، هتف مسروراً مغتبطاً : أنا في خدمتك سيدي ، وطوع بنانك . لقد التهبت شوقاً الى أن أباع عبداً ، فحرر صك عبوديتي ووقع عليه بامضائك ، وبعني الى عشرة أسياد . وان كان هنالك أمر أشد من العبودية وأقسى ، فأنا مستعد لأقبله . لقد أثار فيّ كلامك الالهي ، الشجاعة والعزم على احتمال المكاره والمصاعب ، فسأنزل الى معترك البشارة مغتبطاً وأقتحم الحرب ما بين انجيلك والوثنية فرحاً مبتهجاً . لا أخشى الردى ولا أهاب الموت ، ولن ترعبني قوات العالم مهما عظمت . وسأعلن صارخاً بأعلى صوتي انك المسيح الاله الحقيقي الذي نزل من السماء وتجسد وتألم وصلب ومات وقام من القبر ، وأنا عبدك ، لك المجد الى أبد الآبدين آمين .

□ قصيدة :

موت هارون الكاهن

للقديس الشاعر مار يعقوب السروجي

سبق أن كتبت بعض المقالات في المجلة البطريركية تحت عنوان « دراسات في الأدب السرياني » تناولت في بعضها دراسة تحليلية موجزة عن شاعرية القديس مار يعقوب السروجي الملفان(١) مع عرض نماذج من أدبه · وغايتي من ذلك اعطاء التراث السرياني حقه من الدراسات المختلفة والبعيدة عن الاعادة والاجترار ، لأننا نفتقر الى دراسات سريانية لكل منها طعم خاص ومذاق يختلف ، تستوعب كافة ألوان الثقافة ، ولا يكفي أن تحتضن جانباً معيناً فقط ·

أود الآن أن أقدم عرضاً تحليلياً لقصيدة مار يعقوب عنوانها « موت هارون الكاهن » معرَّبة بتصرف · مع الاحتفاظ بالفكرة والأسلوب ·

الشعر السرياني ومار يعقوب الشاعر :

الشعر السرياني بصورة عامة هو صدى المشاعر الروحية وأحاسيس المرء الدينية ، يتناول القيم الانسانية ، والموعظة ، والتوجيه ، والتفسير ، والعقيدة ، ومواضيع الأحداث الكتابية · فهو والحالة هذه ، يكتسب توازنه عندما تقف وقفة موضوعية أمام أطره الدينية التي تشكل حضارته وشموخه · وليس بمقدورنا مطلقاً أن نفهمه خارج هذه الأطر حيث صبَّت

---

١ ـ ولد مار يعقوب في قرية قورتم عام ٤٥١ وتخرج في مدرسة الرها · فأصاب من علومها اللغوية والفلسفية واللاهوتية النصيب الأوفر · ترهب ، وفي الثانية والعشرين من عمره ارتجل قصيدته المشهورة في « مركبة حزقيال » في محضر خمسة أساقفة اقترحوها عليه فأقروا له بالشاعرية الممتازة · ولما أراد مار سويريوس بطريرك أنطاكية فحص ملفنته وجه اليه عدة أسئلة منها ، « كيف يكون الله فوق الكل وتحت الكل وداخل الكل وفي الكل وخارج الكل ؟ أجبني ببرهان طبيعي ملموس ومنظور ومعقول ؟ فأجابه مار يعقوب جوابا جعل مار سويريوس يقول « حقا ان الحكمة التي فيك هي من روح الله » (الحكمة : العدد الثالث ١٩١٤) نقلها عن مجلة الحكمة المثلث الرحمة مار أغناطيوس يعقوب الثالث في كتابه هبة الايمان ص ١٩ دون أن يشير الى المصدر · والحقيقة كما ترى · وفي عام ٥١٩ صار أسقفا على أبرشية بطنان سروج ، توفي عام ٥٢١ + ترك قصائد شعرية تعدّ بالمئات ·

فيها كل العطاءات الكتابية والروحية · غير أنه يتداخل في ثنايا هذه الطروحات الدينية ، خيال خصب ، وعاطفة ، وغناء ·

وأسلوب السروجي ، يبتدىء بمقدمة ومناجاة ، ثم ينطلق الى سرد الحادث الكتابي كما جاء ، أو طرح المثل الانجيلي كما ورد ، أو تناول القول الالهي بحرفه الواحد · ثم ينتقل الى التوسع في الدرس والتحليل ، والغوص في أعماق الطروحات الكتابية فيكتشف من قعرها أروع الأسرار ، وأسمى الحقائق · وكثيراً ما يعتلي ذرى الخيال ، ويضرب بجذور الحس الشعري الى أبعد غور من صميم الشعور ، فيقدم لنا من خلال ذلك صوراً أدبية جميلة ، فيها وصف بليغ ، وتصوير رائع ، وعاطفة جياشة ، فيأتي والحالة هذه شعراً دينياً روحياً رفيعاً تمتزج فيه العاطفة بالفكرة ، وتفيض أبياته بالموسيقى ، وهذا هو عنصر الاغراء في شعره وارتباط القراء به · وقد نال في عالم الشعر حظاً من الشهرة لم يدانه فيها الا مار أفرام السرياني ٣٧٣ + ·

واليك القصيدة التي نحن بصددها

نعود الى كتاب الله لنطرح الحادث كما ورد :

« فارتحل بنو اسرائيل الجماعة كلها من قادمش وأتوا الى جبل هور · وكلم الرب موسى وهارون في جبل هور على تخم أرض ادوم قائلا : « يُضم هارون الى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي أعطيت لبني اسرائيل · لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة · خذ هارون والعازر ابنه واصعد بهما الى جبل هور · واخلع عن هارون ثيابه وألبس العازر ابنه اياها · فيضم هارون ويموت هناك · ففعل موسى كما أمر الرب · وصعدوا الى جبل هور أمام أعين كل الجماعة · فخلع موسى عن هارون ثيابه وألبس ألعازر ابنه اياها · فمات هارون هناك على رأس الجبل · ثم انحدر موسى والعازر عن الجبل · فلما رأى كل الجماعة أن هارون قد مات بكى جميع بيت اسرائيل على هارون ثلاثين يوماً » عدد ٢٠ : ٢٢ ـ ٢٩ ·

تتصدر القصيدة فكرة عامة عن الموت والكهنوت مروراً بالخطوات التالية :

الانسان قبل الموت :

خلق الله الانسان الأول آدم في حالة البر والقداسة ، وأقامه كاهناً لخدمته ، وسنّ له شريعة ، أجاز له بموجبها أن يأكل من جميع ثمار

الفردوس ، ونهاه عن الاقتراب من الشجرة المغروسة في وسط الفردوس ، وفي حالة مخالفته الوصية سوف « يموت » ٠

آدم يخطىء ويمـوت :

حسد الشيطان آدم المخلوق على صـورة الله ، وأغراه بأن يأكل مـن ثمرة الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها ٠ غـير أن آدم خالف الأمـر ومدَّ يده الى الشـجرة وقطف الثمرة وأكـل ٠ وبذلك نفذ عليه الحـكم القاضي « موتاً تموت » فمات آدم لأنه أخطأ ٠

الموت يشمل كل أبنـاء آدم :

مات آدم ، وسرى الموت في جميع ذريتـه ، وتمشياً مع هذا القـانون وصل الموت الى موسى النبي ، وجميـع الأبـرار ، والآباء ، والأنبيـاء ، والملـوك ، والكهنـة ٠

الكهنـوت الهـاروني :

يتحدث الشاعر عن نشأة الكهنوت ٠ ويعتبر آدم أول كاهن ، وبطريق التسلسل وصل الى هارون ، الذي كان يحمـل المبخرة ويدخل الى قـدس الأقداس مقدماً البخور ، طالباً الغفران للشعب ، مبعداً شبـح الموت الرهيب من المحلـَّـة ٠

كان هارون يحمـل نارين ويقف أمـام الله ، نارا ظاهرة ترى بيده ، ونارا أخرى غير منظورة في ذهنه وقلبه ، فكان رضى الله على نار الذهـن والقلب سبباً لاقتبال النار المنظورة في اليد ٠ فلو لم تكن نار ذهنـه نقيـة طاهرة ، لمـا قبلت نار يده أيضاً ٠

كلما كان الملاك يحوم حول المحـلة ، حمل هارون المجمـرة الناريـة ، وعندما كان الملاك يرى الأبخرة تتصاعد من المجمرة الهارونية ، ولى هارباً . كان اليعازر يقوم في مسكن القدس ينظر الى أبيه هارون ليتعلم فـروض الكهنوت وشعائره ، كان يتأمل أباه كيف يقـدم القرابـين والذبائح وهـو يرتدي ثيابه الكهنوتية ، ويتعلم ممارسة الخدمات الكهنوتية ٠

عندما أوشكت أيام هارون أن تنتهي ، ويدخل في قبضة الموت المحتوم ، دعا الله تعالى موسى كليمه ليطلعه على الأمر ٠

وهنا يبتدىء الشاعر يستعرض الحادث بصيغة أدبية وعلى شكل حوار ما بين الرب ، وموسى ، وهارون ، واليعازر ٠

الرب : يخاطب موسى :

أعرني سمعك جيداً يا موسى ·
واصغِ الى ما سأقوله لك ملياً يا ابن عمرام ·
سأفاجئك بخبر مؤلم يثير الأشجان ·
وأنت محصَّن ضد المفاجآت ·
سأسمعك أمراً يحزّ في النفس ·
وأنت قد تمرست ألا تأخذ الأمور مأخذاً صعباً ·
احذر أن يتسرب الحزن الى قلبك
ولا تدع الكآبة تسيطر على جوارحك ·

موسى :

تكلم يا رب ، وافعل ما تشاء ·
أنا عبد مطيع ، وخادم أمين لربوبيتك ·
وليس لديَّ الا تنفيذ الأوامر ·
واتمام المقاصد الالهية ·

الرب : يخاطب موسى :

لقد آن الأوان لينتقل أخوك هارون ،
من هذا العالم الى عالم آخر ·
فيتذوق كأس الموت الذي مزجه آدم في الفردوس ·
وحان الوقت ليحل آخر محله في خدمة قدس الأقداس ·
وأقبل اليوم الذي فيه يجب أن تنزع عنه ثياب الكهنوت ،
وتعطى لمن اخترته كاهناً لي ·
اسمع يا موسى يا ابن عمرام ما أقوله لك :
لا تشمر عينيك للدمع والبكاء ·
الزم الهدوء ، وقوِّ أعصابك ،
لا تيأس ، ولا تدع قواك تخور مثل باقي الناس ،
خذ هارون أخاك وابنه اليعازر ·
واصعدوا جميعاً الى أحد الجبال الذي سأقودكم اليه ·
أتموا « ثلاثتكم » الأمر بسرور وارتياح ورضى ·
فلا بد أن يتجرَّع هارون كأس الردى ،
ليس أحد يحيا وينجو من قبضته ·
شجع اليعازر لئلا يرتبك ·
مدَّه بالعزم والمعنويات العالية عندما تراه يسلم الروح في ذرى الجبل ·

موسى :

نعم يا سيدي ،

أنا حاضر لاتمام ارادتك ٠

الرب : يخاطب موسى :

نفّذ الأمر بسرعة يا موسى ، فليس هنالك مجال للتأخير والتأجيل ٠ قد اخترت اليعازر ليكون خلفاً لأبيه ، كاهناً للشعب ٠ واصطفيته ليقوم في خدمتي في قدس الأقداس ٠ فليطهر نفسه ، وينقِ ذهنه ، من كل دنس واثم وخطية ويتقدم استعداداً للأمر ٠

امتثالا لأمره تعالى دعا موسى هارون أخاه واليعازر ابن أخيه ليطلعهما على الأمر المؤلم والخبر المحزن ٠

راح موسى يقاوم الضعف الذي تستسلم له حتى النفوس المحصنة في مثل هذه الظروف الحرجة ٠

خاطب موسى هارون قائلا :

أخي هارون اقتضى الأمر لنصعد الى أحد الجبال أنا وأنت واليعازر بحسب أمر الرب ، لأن هناك خبراً سأقصه عليك ٠

سار موسى وهارون في الطريق جنباً الى جنب يتحدثان حديثاً عادياً غير أن اعلان خبر موته كان وشيكاً ٠ وصلوا الى قمة الجبل وأخذ موسى يقص على أخيه الخبر ، فتمتلىء عاطفة الهيكل البشري كآبة وغماً ، وكأني به يخاطبه قائلا :

أخي هارون :

سأعلن لك الخبر ، وأذيع السر ، ومهما حاولت كتمان ذلك فلا بد من المكاشفة : كنت أخاً عزيزاً منذ الطفولة ، وفياً منذ الصغر ، وشقيقاً مخلصاً طوال الأيام ٠ فأنت لي نهر الحياة المتدفق ، أنت النبض المتردد بين جوانحي ، أنت الواحة الظليلة في صحراء وجودي ٠ رافقتني في كل حياتي ، شاركتني السرّاء والضرّاء ، سرت معي في الليالي الحالكة السوداء ، وكنت معي في الليالي المقمرة البيضاء ٠ اشتركنا في معظم الأعمال معاً ٠ دخلنا الى مصر مع بعضنا لتأدية

الرسالة · صنعنا المعجزات معاً · عندما قاومت فرعون كنت ساعدي الأيمن ، وعندما انقلبت العصا الى حية كان ذلك نتيجة لعملك معي. لما أراد السحرة مقاومتي وقفت الى جانبي نتحداهم معاً · لم يبتعد أحدنا عن الآخر ساعات معدودة · والآن سيفرقنا الموت واحد عن الآخر لتكمل ارادة الله وتتم مقاصده الالهية ·

وبعد هذا يجلس كلاهما فيتبادلان النظرات في صمت ، ولكن حديث العيون غالباً يكون أفصح من كل بيان · ينتزع موسى من شفتيه الابتسامة عنوة ليدخل السكينة الى قلب أخيه ، وان كانت الكآبة قد انتشرت في أرجاء عواطفهما ·

ثم يخاطب موسى أخاه هارون مرة أخرى قائلا :

نعم كما قلت كنت لي أخاً وفياً مخلصاً، راعيت حرمة العهد، وأظهرت لي محبة الأخ الخالية من الغش والبعيدة عن المداهنة والتملق · والآن آن الأوان لتذوق الموت المحتوم على الجميع · « الأخ لا يقدر أن ينقذ أخاه » ، لا تتألم ولا تبكِ يا أخي هارون ، ولا تجعل نفسك غريباً عن الرب بسبب الحزن ، فليس هنالك أحد الا ويذوق هذا الكأس · تشجع ولا تسمح أن يبدر منك ما يغضب جلال الله فنطرد من حظيرة رحمته ، ولا تأتي أمراً لا يرضاه فتبتعد من حضرته · ان ابنك اليعازر قد اختاره الرب الاله خلفاً لك كاهناً للشعب على مثالك ليقوم بالخدمة في قدس الأقداس ·

الرب : يخاطب موسى :

لقد أطلت الكلام كثيراً يا موسى ، مدّ نفسك بالشجاعة ، وادن من هارون أخيك ، وانزع عنه الثياب الكهنوتية وألبسها لاليعازر الذي اخترته كاهناً · جرّده من كل ما يتعلق بالكهنوت اللاوي ، وأطلقه أمام وجه الموت عارياً كما كان آدم عارياً بين أشجار الفردوس ·

موسى يجرد هارون من الكهنوت :

اقترب موسى من أخيه كما أمره الرب فأحنى هارون رأسه بطاعة وخضوع وتسليم للرب ، واهباً نفسه لتنزع عنه الثياب ليغادر الى عالم آخر ·

مدّ موسى يديه نحو هارون فأخذ يخلع عنه ثيابه ، ليرتديها اليعازر ابنه · رفع أكليل المجد من على رأسه ووضعه على رأس اليعازر · ونزع عنه القلنسوة وأعطاها لابنه ليؤدي الشعائر الدينية ، ومراسيم الخدمة الكهنوتية · أخذ منه الزنود والمصنفة وما تبقى من الثياب وألبسها لاليعازر أمام مشهد أبيه · وهكذا تجرد هارون عن كل شيء وأصبح عارياً · وتقدم الابن ليستلم القيادة الكهنوتية ، وليأتمن على الأسرار الالهية · وقف هارون عارياً يتأمل ابنه اليعازر وقد اتشح بحلة الكهنوت البهية ·

كان موسى واقفاً واجماً ازاء هذا المشهد الرهيب ، يطفىء نيران الحنان المضطرمة في أعماق قلبه ، ويحبس الدموع في عينيه ، كيف لا وهو ينظر الى أخيه هارون وبعد لحظات سيغمض عينيه الى الأبد ·

الرب : يخاطب موسى :

ما بالك يا موسى واقفاً مرتبكاً ، ادنُ من أخيك واعطه السلام ، والق عليه النظرة الأخيرة وودعه · أطلقه ليذهب الى حيث الأمر ينتظره · تقدم يا موسى على عجل وأغمض عينيه لقد أطلت الاقامة على الجبل · لا تستصعب الأمر · أسرع لئلا يصنع الشعب تمثالا ويسجد له كعادته المألوفة ·

موسى :

رباه كيف أغمض عينيه انه واقف يتحدث معي · كيف يمكن أن أفعل ذلك ، انه أخي العزيز ·

الرب : يخاطب موسى :

أعطه السلام فقط ، وحالا يأتي الملاك ويتسلم روحه من جسده ·

اليعازر :

كان اليعازر يتطلع الى هذا المشهد المجلّل بالرهبة والكآبة ، ويسمع الحوار ، فدنا الصبي من أبيه وحنى رأسه سجوداً واجلالا قائلا : أبي باركني قبل أن تغادر هذه الحياة ، وقبل أن يدركك ملاك الموت ·

هارون :

يعود اليه بعض الهدوء المغلف بالكآبة ، ويرفع عينيه الى السماء ويفتح فاه ويقدم صلاة ممزوجة بالدموع والبكاء قائلا : الاله الذي

خدمته أربعين سنة بطهر وقداسة يباركك يا بُني · يبارك حداثتك وفتوتك · ليعطيك ضميراً نقياً ، وفكراً طاهراً ، ليتقبل من يديك بخورك وصلواتك · انه الصالح المملوء بالبركات ولا حدَّ لرحماته، هو يفتح لك باب الرحمة ويلبي كل طلباتك · ويفرحك في أيام حياتك ، ويكون لك عوناً وسنداً وحافظاً ورجاء ·

بني : ليكن لك الرب دوماً آمراً وموجهاً · سر بحسب وصاياه ولاتمل عن نواهيه يمنة أو يسرة · طوبى لك لأنك صرت له خادماً ، فلا تهدأ من خدمته ، ولا تسلك طريق الخطأ · صلوات أبيك هارون تكون لك شفيعة وعاضدة · آمين ·

ظلَّ الأخوان موسى وهارون ، لحظات هادئين ، واجمين ، كئيبين ، ثم ضمَّا بعضهما بعضاً دامعين ــ وما الانسان الا مشاعر وأحاسيس وخلجات ــ يتبادلان التحية والوداع ، فتتدفق عبارات حارة على ألسنتهما ، وكادت عبراتهما أن تخنقهما ، واذا كل منهما يناجي أخاه قائلا :

موسى :

وداعاً يا أخا الحق ، يا من عشت في كنف الاخوة بمحبة وصفاء ·

هارون :

وداعاً أيها الأخ الحبيب ، يا من لم يحقد على أخيه قط ·

موسى :

وداعاً يا كاهن الله العلي المحبوب ·

هارون :

وداعاً أيها الأخ الذي أحبه الرب كثيراً ·

موسى :

وداعاً يا من قدَّم الذبائح الطاهرة ·

هارون :

وداعاً يا من اجترح الآيات والمعجزات ·

موسى :

أستودعك الله يا من أتمّ ارادة ربه .

هارون :

أستودعك الله يا من أنزل المنّ للشعب .

موسى :

أستودعك الله يا من غفرت خطايا الشعب .

هارون :

أستودعك الله يا من فلق مياه البحر .

موسى :

وداعاً يا من كنت ظلي عند اتيان هذه الأمور جميعاً .

تدفقت مشاعر كثيرة في أعماق موسى ، واختلطت عليه آلامه ، فراح يلم أطراف شجاعته ويخاطب هارون بكلمات أخيرة :

ستبقى صورتك في كل ما أشاهده ، قائمة في ذهني ، منقوشة في قلبي ، مسيطرة على وجداني . يمدّ موسى يده ليغمض عيني هارون واذا بقشعريرة تسري في يديه كلتيهما ، ورهبة تنتشر في أرجاء عواطفه كالمأخوذ لا يكاد يحس وجوده ولا ينكر نفسه . أغمض عيني هارون فمات ، وتولى اليعازر الكهنوت بعده .

★ ★ ★

الحب في شعر ابن العبري

ابن العبري تاج يزهو على مفرق السريانية مفخرة وعزة ، فهو الذي شاد لها صرح المعرفة شاهقاً ، ونهض ببناء مجدها سامقاً ، فحياته المغمورة بأنوار العلم ، والمعبقة بأريج الأدب ، والمعطرة بشذى الفضيلة ، مدعاة للفخر والاعتزاز ، وجديدة بالدرس • وأمامك الآن ناحية من نواحي تلك الحياة الخالدة ، هي الناحية الأدبية ، ليس من كل جهاتها بل من جهة واحدة هي « الحب في شعره »(١) لأن تركته الأدبية ضخمة ، ونتاج يراعه غزير ، الأمر الذي يتطلب درساً دقيقاً مسهباً سنتعرض له ان شاء الله في الأعداد المقبلة •

الحب باب من أبواب الشعر الغنائي ، ولجه أدباء السريان مفتوحاً على مصراعيه ، فدبجوا في وصفه قصائد عصماء مستقلة ، أو أبياتاً متفرقة مبثوثة بين طيات أبواب أخرى ، وقد سكبوا فيها عواطف متفجرة تموج على خفقة القلوب ، وألحاناً عذبة موقعة على أوتار الروح ، متأثرين بدينهم المسيحي الذي هو دين المحبة والاخاء ، كيف لا والحب الانساني في المسيحية هو طريق الى الحب الالهي كقول الرسول يوحنا الملقب برسول المحبة « ومن لا يحب لا يعرف الله لأن الله محبة » والوصية الجديدة التي أعطاها المسيح كانت المحبة « وصية جديدة أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً» وهي أيضاً ـ أي المسيحية ـ من جملة العوامل التي أثرت في دراسة الحب في تاريخ الفكر العربي كما تأثر بها التصوف الاسلامي(٢) • والحب المسيحي حب مصفى طاهر يشع نقاء لا يشوبه الغرام والعشق بل يغلفه العفاف ويكوّن الاثنان مفهوماً واحداً يسمى « الحب الطاهر » وهكذا يفهمه أيضاً الدين الاسلامي(٣) • وقد التزم بهذا المفهوم أدباء السريان جميعاً سيما الأولين كمار افرام ، ومار اسحق ، والسروجي ، الذين تحاكي قصائدهم في الحب بحوثاً تفسيرية ولاهوتية بجنوحها المفرط الى الدين • وبأدق تعبير هي « مواعظ روحية » • فأنت حين تقرأ لهم ميمر ميمرا تشعر

١ ـ درس ابن العبري الحب فلسفيا غير أننا لا نتعرض الا للناحية الأدبية •

٢ ـ المجلة تشرين الثاني ١٩٦٢ ص ٥٢ •

٣ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ص ١٧٣ •

كأنك جالس تحت صخور الصومعة ، أو في باحة الدير ، أو في الكنيسة · فهو والحالة هذه يبدو باباً تقليديا دخل منه الشعراء سوية ، ولكن لكل منهم شاعريته الخاصة ، وكيانه الجوهري ·

لم تبق دراسة الحب على ما كانت عليه ، بل تطورت سيما عند ابن العبري الذي اقتحم دنيا الشعر بعد أن قرر اتجاهاً شعرياً جديداً يتبناه بنفسه وكان للحب في هذا التقرير الجديد نصيب كبير ، فقد استقل عن الموعظة ، وأصبح قائماً بذاته مكتفياً بانتسابه الى فكرة دينية ، لأن الدين في الآداب السريانية عميق الجذور ، يفرض نفسه فرضاً عليه · وبذلك أي بعد نهضة الشعر ، وتغيير لونه ، يكون ابن العبري قد احتل مكانته بين فحول الشعراء ·

ينضح شعر ابن العبري أعذب أناشيد الحب والشوق ، يترجم عن كوامن نفسه ، ويعبر عن خلجات قلبه ، ويفجر عواطفه المتأججة في صدره ، ويصرف كل طاقات مشاعره واحساساته · فهو أبداً الهزار السرياني الذي يملأ أرجاء الكنيسة السريانية صداحاً تتمايل لسماعه الأرواح وتطرب لايقاعه القلوب ·

ونستطيع أن نضع تصميماً للعناصر التي تنساب في « حب » ابن العبري كالآتي :

أولا : الفراق والشكوى ، عندما تنزع الأيام منه أخاً حبيباً ، فتراه يشكو مما أصابه من هجر الصديق ، ويعاني مرارة الوحدة ، فتضمحل ابتسامته ، وتنقضي أفراحه ومسراته ، ويذرف الدمع سخيناً ، وتلفحه نيران الفراق ، وتكويه لهب الحنين فتراه أبداً شارد اللب ، فاغر الفاه ، غائر العينين ، يذبل كالشمعة · ولا تعالج حالته هذه الا باللقاء كما يقول « اذا اكتحلت عيني برؤياك فسينطلق لساني من عقاله منشداً مترنما ، وسأرفع الرأس بزهو وخيلاء متجبراً على المشاة والفرسان ، وأمزق رداء الشقاء شر تمزيق وأرتدي ثوب السعادة » ·

ثانياً : الحياة لقاء دائم مع الأحباء : لا يرتاح الشاعر الا بجانب الأحبة ، فان أكل الخرنوب ، وسكن الكهوف ، وخرم الابرة ، هذه كلها يفضلها على الاستمتاع بالأطايب الشهية ، والقصور الشاهقة ، والأبراج العاجية وكأني برياض معلوف ينقل الشعور بحذافيره في قوله :

بلـــدي المهجـــور وكوخـــي الأخضـــر
أحلى مـــن القصـــور والذهـــب الأصفـــر

فهو اذن يجد متعة الحياة في ساحات الحب ، ويلقى اللذة في باحاته وما أروع قوله « كيف تحلو الحياة لمن كان بعيداً عن أحبائه ، وبماذا يخمد نيران الشوق الملتهبة في أعماقه ، أن من يجرؤ غوص بحر الفراق والغربة فقد محا اسمه من سفر ميناء الحياة » ٠

ثالثاً : ارتباطه القوي بالحبيب : انه دائماً مع الحبيب ان لم يكن بجسمه فبروحه وفكره يقول في احدى قصائده « اذا وقعت المصيبة وتم الفراق سيكون الدمع في عيني نهراً غزيراً ، وسيستعطفك القلب ليرافق الحبيب فان أبى فسيحفر له القبر » ولعل الفكرة مقتبسة من ابن زيدون :

أنت الحياة فان يقدر فراقك لي فليحفر القبر أو فليحضر الكفن

وكثيراً ما يلتقي بالحبيب على صفحة البدر يقول « كلما اشتقت اليك فأتطلع الى القمر ، حيث أتخيل صورتك الحبيبة منعكسة عليه » وهكذا تكون الذكرى ، والشوق ، واللهج بأمل العودة الروابط بينه وبين الصديق وقت الفراق ٠ أسمعه يقول : « لولا الذكرى اذن لأخذتني الأمواج الى حيث تشاء » وكأنني بجبران خليل جبران يردد نفس القول عندما أنشد « الذكرى شكل من أشكال اللقاء » ٠

رابعاً : رعاية حرمة العهد : يحرص كل الحرص على الحفاظ على مواثيق الحب والصداقة ورعاية حرمة العهد، يقول لأحدأصدقائه معاتباً: « ان النزول الى القبر خير من فقد صديق » ٠ ويقول لآخر « ان كنت أنت قد خنت العهد وانحرفت ، فأنا سأبقى أبداً محافظاً على الحب الأول دون أن أنحرف عنه قيد شعرة ، وان كنت تحاول أن تطلي باب الحب بالبغضاء فأنا سأجعله صقيلا ، يشع أخوة ومحبة صادقة » ٠

خامساً : التنويه بمناقب الحبيب : نراه في كل مناسبة يذكر مناقب الصديق الحبيب ، ويتسامى في وصفه ، فيستحضر النظائر والمشابهات ، فينزله منزل الأسياد ويرفعه الى قمة الأقمار والبدور جمالا وسناء ، وكثيراً ما يشبهه بباقة ورد أو أضمومة ريحان ٠ وفي كل ذلك يستمد تصوراته من الحب بمفهومه الاجمالي (١) ٠

---

١ ـ راجع ملحمته المعروفة ب الحكمة الالهية التي عربها نظما الأب بولس بهنام (نيافة مطران بغداد حاليا) تراه في تغزله بالحكمة الالهية وكأنه عاشق ٠

خامساً : مناجاة الحب : ودونك قلب ابن العبري يتنفس ، مناجياً وواصفاً الحب ، عربناه نظماً الى العربية بتصرف :

الحب الطاهر

ايه يا حب أيا رمز النقاء — قبس أنت مطلّ من سماء
ذكرك الغالي غدا نغم الدنى — أنشدته الرسل ثم الأنبياء
نشوة خمرية فيها الصفا — وارتشاف وانتعاش وارتواء
ومذاق الشهد يبدو طيبا — يمنح النعمة في دفء الهناء

★ ★ ★

لك سعد يا نفوساً أعلنت — لنداء الحب آيات الولاء
لك خلد يا قلوباً قد جثت — تعبد الحب(١) صباحاً ومساء
وشقاء لقلوب جحدت — وعذاباً ونواحاً وبكاء
فاعطه القلب عطاء كلهو — وابذل الروح سخاء وفداء

★ ★ ★

ايه يا حب أيا رمز النقاء — جئت شوقاً واصفاً هذا البهاء
غير أن العجز مني قد بدا — باحمرار قد علا وجهي حياء
واذا بي سامع همس «الفتى»(٢) — كاشفاً سراً دفيناً بالخفاء
أنت صنو لآله خالد — فيك تمت كل أسرار الفداء(٣)

★ ★ ★

---

١ ـ الحب في نظر الشاعر هو الله ذاته كقول الكتاب « الله محبة » .
٢ ـ الفتى هو يوحنا الرسول الملقب برسول المحبة .
٣ ـ يشير الى اظهار محبة الله للبشرية في تجسده وآلامه وصلبه وموته .

الطقـوس السـريانيـة
في دراســات المســتشرقـين

المقدمـة : يتحدث السعيد الذكر المرحوم العلامة البطريرك أفرام الأول برصوم ١٩٥٧ + في الفصل الخامس عشر من كتابه النفيس اللؤلؤ المنثور(١) عن الطقوس السريانية بصورة عامة ، ثم يتناولها في الفصـول التالية شرحاً مفصلا ، والذي يهمنا منها في هذا المقال ما يأتي :

آ ـ ان الطقوس الكنسيـة ترقى في أصلهـا الجوهري الى صـدر النصرانية وكانت في غاية الاختصار ، وكانت محصورة في تلاوة المزامير بشكل خاص ٠

ب ـ منذ منتصف القرن الرابع أدخلت عليها أناشيد وألحان وأدعية حتى اتخذت شكلها النهائي عند السريان في أواسط القرن السابع وأضاف اليها بعضهم طرفاً في القرون التالية ٠

ج ـ لم تكن تلك الطقوس جارية على نسق واحد ووجه معين في كل موضع الا في أصولها وفروعهـا الأساسية ٠ وكان طبيعياً حـدوث الاختلاف والفروق في نسخ الفروض لامتداد النصرانية ولأسباب مختلفة ٠

د ـ تشتمل هذه الطقوس على خمسة عشر نوعاً وهي :

١ ـ كتاب صلاة الفرض الأسبوعي المعروف بالاشحيم ٠

٢ ـ قراءات الكتاب المقدس ٠

٣ ـ كتاب الليتورجيات أي خدمة القداس الالهي ٠

٤ ـ فناقيث الآحاد على مدار السنة ٠

٥ ـ فناقيث الأعياد السيدية وأعياد القديسين ٠

---

١ ـ اللؤلؤ المنثور ـ طبعة ثانية بحلب ص ٦٨ ـ ٧٠ ٠

٦ ـ فنقيثا الصوم الكبير وأسبوع الآلام ·

٧ ـ كتب الحسايات أي صلوات الاستغفار للآحاد والأعياد والصيام وأسبوع الآلام وغيرها ·

٨ ـ كتاب طقوس العماد وبركة اكليل المتزوجين ومسحة المرضى والتوبة ·

٩ ـ كتاب الرسومات الكهنوتية ·

١٠ـ كتاب الأعياد الحافلة ·

١١ـ كتاب الجناز ·

١٢ـ كتابا أدعية الكاهن وصلوات الرهبان ·

١٣ـ كتاب الألحان البيعية ·

١٤ـ سفر الحياة ·

١٥ كلندار الأعياد السنوي ·

المستشرقون والتراث السرياني : أطل المستشرقون على التراث الشرقي منذ مطلع القرن السابع عشر ، وتناولوه ترجمة ، وتحقيقاً ، ودراسة · ولعلهم وجدوا في ذلك مرتعاً خصباً لتغذية أفكارهم ، وتنمية معارفهم ، وتفجير طاقات انتاجاتهم ، واتساع قابلياتهم الفكرية ،ويلاحظ من خلال دراساتهم هذه ، أن بعضهم أدرك حقيقة كان يجهلها ، ومنهم استهدف غرضاً عدائياً معيناً ، وآخرون غمسوا قلمهم بمداد الحقد والكراهية ، وقسم انطلق من دائرة التعصب المذهبي الذميم · وقد ظفر التراث السرياني من تاريخ وأدب وفلسفة ودين بسهم كبير جداً من تلك الدراسات · ويستطيع الباحث في المكتبات في الغرب أن يجد في قسم « الشرقيات » فرع « السريانيات » مجلدات عديدة ودراسات مستفيضة حول هذا الموضوع ·

أما ما يدور حول الطقوس السريانية من دراسة وتحقيق وترجمة : يقول صاحب كتاب « اللؤلؤ المنثور » ص ٩٦ طبعة حلب ١٩٥٦ « لما كانت الطقوس الكنسية تحتل مكاناً خطيراً في تاريخ الأدب السرياني فقد أمسى بحثها من أهم الأبواب ، لكن المستشرقين أغفلوا هذا الأدب لصعوبة استقصائه باستثناء « بومشترك » ففي كتابه منه صبابة » ويقول أيضاً :

« في سنة ١٩١٦ نشر القس أوسابيوس رينودوت الافرنسي سبعاً وثلاثين ليتورجية منقولة الى اللاتينية أولها ليتورجية مار يعقوب وآخرها نافورا ابن وهيب ، وسنة ١٩٣٩ نشر كودرينكتين ليتورجية سويريوس الأنطاكي ثانيـــة » ·

ونود في هـذا البحث أن نستعرض أربعـة أصناف مـن الطقوس السريانية التي تناولها المستشرقون بالدرس ، والتي أطلعنا عليهـا في مكتبة جامعة القيامة في بلدة ميرفيلـد في مقاطعة يوركشاير شمالي مدينـة لندن (خلال اقامتنا فيها في خريف عام ١٩٧٩) ·

آ ـ قراءات الكتاب المقدس ·

ب ـ الصلاة السريانية ·

ج ـ سفر الحيـــاة ·

د ـ الليتورجية ·

ـ ١ ـ

قـراءات الكتـــاب المقـــدس

قسَّم علماء السريان أسفار الكتاب المقدس بعهديه فصولا ، وعينوا منها قراءات يتلونها على مدار السنة وبحسب الطقس الكنسي في الآحاد، والأعياد ، والأصوام ، وأسبوع الآلام ، وحفـلات الأعيـاد الحافلـة ، والرسامات الكهنوتية ، وتلبيس الأسكيم للرهبـان ، وخدمـة الأسـرار المقدسة وبخاصة تقديس زيت العماد والميرون ، والصلاة على الجناز(٢)، وقد عني بنشرها وطبعها المثلث الرحمة مار فيلكسينوس يوحنا دولباني مطران ماردين ، عام ١٩٥٤ ، معتمداً على نسخ عديدة وقديمة فيمكتبة البطريركية السريانية ، بعد تصحيح وضبط ·

وكان تعيين فصول الانجيل التي تتلى في أسبوع الآلام في أواسط القرن التاسع على يد الراهب دانيال من دير بيت باتين تلميذ بنيامين مطران الرها ، وشاركه في عمله تلميذه الهمام الراهب اسحق ، كما عني

---

٢ ـ اللؤلؤ المنثور ـ طبعة حلب ١٩٥٦ ص ٧٥ ـ ٧٦ وكنيسة أنطاكية سوريا ـ لأغناطيـوس يعقوب الثالث ـ دمشق ١٩٧١ ص ٥٢ ـ ٥٤ ·

البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الرابع المعروف بالصلحي ١٠٠٢ + فجمع وفصّل قراءات العهدين(٣) ·

يحوي المتحف البريطاني في لندن نسخة قديمة لهذه القراءات المقدسة أنجزت نساختها في حدود القرن العاشر الميلادي ، درسها وحققها زميل الأكاديمية البريطانية : F. C. Burkitt, وطبعها في مطبعة جامعة اكسفورد في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٢٣ في كتاب يقع في ٤٠ صفحة ، حجم وسط · سماه : The early Syriac Lectionary system تنظيم سرياني بدائي لفصول الأسفار المقدسة ·

- ٢ -
سفـــر الحيـــاة

كان للسريان سجل يسمى كتاب الدبتيخات أي اللوحين وبالسريانية سفر الحياة أو سفر الأحياء ، يتضمن مقالة مسهبة في أعمال ربنا يسوع المسيح الخلاصية يليها جدول الأنبياء والرسل والتلاميذ المبشرين وملافنة بيعة الله الأقدمين ومشاهير رؤساء الكهنة في العالم والقديسين والشهداء والابيلين والنساء الصالحات في العهد القديم والشهيدات والبتولات والمتنسكات ، ثم جريدة بطاركة أنطاكية ومفارنة المشرق ومطارنةكرسي الأبرشية التي تتلى ويحفظ فيها السفر ·

وكان هذا السفر يتلى قبل قبلة السلام في أثناء القداس الالهي في الأعياد الكبرى وفي بعض البيع مرة في السنة تخليداً لذكرى الأئمة والآباء الصالحين ·

وكان يوضع على المذابح المقدسة طوال السنة ، وهو قديم جداًوقد أشار اليه صاحب كتاب الأريوفاغي في منسلخ المئة الخامسة ، وذكره ابن كيفا ٩٠٣ + وأهملت قراءته في حدود المئة الحادية عشرة(٤) ·

نشر هذا الكتاب أو السفر بنصه السرياني الكاتبان البريطانيان :

Dom - R. H. connolly, M. A.,
H. W. codrington - B. A.

---

٣ – اللؤلؤ المنثور ص ٧٥ – ٧٦ طبعة حلب ١٩٥٦ ·

٤ – اللؤلؤ المنثور · ص ١٢٠ – ١٢١ طبعة حلب ١٩٥٦ ·

وترجماه الى اللغة الانكليزية عام ١٩١٣ وقالا فيه ما يلي :

ان هذا الكتاب مستند كبير ووثيقة هامة ، انـه يشير الى دبتيخـات الموتى وهو مستعمل عند السريان اليعاقبة ، ويقرأ من قبلهم بعد قبلة السلام · استعمل في فترة معينة كشيء قانوني والزامي ، وكان يستعمل حتى القرن التاسع كما يظهر من حديث موسى بن كيفا مطران الموصل المتوفى عام ٩٠٣ + في كتابه تفسير القداس ، وبطل استعماله بعد ذلك اذ لا نرى له ذكراً في تفسير ابن صليبي في القرن الثاني عشر ·

حصل الكاتبان البريطانيان على هذه النسخة من دير الشرفـة في لبنان وعنوانها « كتاب الحيـاة بحسب تقليد وعـادة كنيسة والـدة الله في مدينة حلب » · ونسخ الكتـاب بأمر مار أغناطيوس شمعون البطـريرك الانطاكي عام ١٩٧٩ يونانية الموافق ١٦٤٨ م ·

ألحقت في هذا الكتاب رسالة البطريرك شمعون التي تتضمن أمره البطريركي بنسخ هذا الكتاب خصيصاً لكنيسة حلب · وقد وجد الكاتبان نسخة أخرى في الفاتيكان مطابقة لهذه النسخة تماماً ·

– ٣ –
الصـلاة السريانيـة

ترك المستشرقون دراسات مستفيضة عن الصلوات السريانيـة وفي مقدمتهم الكاتب الألماني Per-Olof - Sjögren الذي وضع كتاباً عـام ١٩٦٦ تحت عنوان « الصلاة المسيحية السريانية » قدم له وترجمه الى الانكليزية عام ١٩٧٢ الكاتب Aclred Squire .

يتضمن هذا الكتاب دراسة شاملة للصـلاة ، ويركز على عبـارة « يا سيدي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطىء » يتناولها أحياناً كعبارة واحدة ، وأحياناً يجزئها الى ثلاث فقرات :

آ – « يا رب ارحمني » ·

ب – « ارحمني أنا الخاطىء » ·

ج – « يا يسوع ابن الله ارحمني » ·

ويتخذ من هذه الصلاة ركيزة للصلوات السريانية ، ويقول انها وردت في نافورة الذهبي الفم أربعين مرة ، وتخللت سائر الليتورجيات المسيحية اطلاقاً ، أحيانا ثلاث مرات وأحياناً تسع مرات ·

ويسترسل في دراسته قائلا انها صلاة العهدين القديم والجديد ، ان المقطع الواحد منها « يا رب ارحمني » خاصة ، نشأ في العهد القديم ، فهي اذاً صلاة عريقة في القدم ، انها صراخ يخترق لهب النار المتقدة (دا ٣ : ١٩ ـ ٣٠) ، ويعانق الأنين المتصاعد من صدر شعب أثقلت كاهله العبودية (سفر الخروج) وتمتزج بالدمع المنسكب من معاناة الآلام المريرة في الصحراء (سفر العدد) ترفع عند اشتداد المحن وتفاقم الخطوب ، كما تستخدم لرفع الشكر وتقديم الامتنان ، وكذلك للتعبير عن الفرح والسرور · كما تقدّم لطلب النعم والهبات والعطايا · ثم يمضي قائلا انها تقال أحياناً دون تعيين وبشكل شامل عام « يا الله »فهي والحالة هذه نداء لا حدّ له ولا حصر ·

ومن طريف ما جاء في هذه الدراسة وحول هذا المقطع بالذات ، أن العهد القديم كان يشير بهذه العبارة الى مجيء يسوع المسيح الى العالم مرسَلا من قبل الله الآب ، فرحمة الله هي يسوع المسيح قبل أن تكون شيئاً آخر ·

ولما ظهر يسوع المسيح مولوداً من العذراء ، تجسدت به «رحمةالله» واستجاب الرب الى دعاء العهد القديم بأن أرسل الله الآب الى العالم ابنه المسيح · ولعل عبارة « رحمة الله وبركاته » تدخل في دائرة هذا الايضاح ·

وتتضمن هذه الدراسة أيضاً : أن عبارة يا رب ارحمنا تقابلها في النسخة الأصلية عند اليونان كلمة « كيرياليسون » انها تعني التماس حاجة من الله ، والحاجة هي عطية الله ومحبته للبشر ، هي يسوعبالذات·

هذا في العهد القديم أما في العهد الجديد ، فاننا نسمع هذه الصلاة تنطلق من كثيرين : صرخ الأعمى قائلا : « يا يسوع ابن داود ارحمني » مر ١٠ ـ ٤٧ وعلا صراخ الكنعانية مت ١٥ ـ ١٢ ، ورجال البرص العشرة لو ١٧ ـ ١٣ من هنا أخذ التعديل والايضاح في هذه الصلاة فأصبحت « يا يسوع ارحمنا » وبعد اجراء هذا التعديل عليها في العهد الجديدصارت كل صلاة ترفعدون أن تحملهذا الاسم ترفض يو١٤:١٣ ·

أما فقرة « يا ابن اللّه ارحمني » فهي الافصاح علناً بالعقيدة المسيحية، والايمان الانجيلي بشكل صريح وواضح ، لذلك والحالة هذه فان الايمان العقائدي يتخلل الصلاة ضرورة ووجوبا الى جانب الأمور الروحية . فصار واضحاً تماماً الفرق ما بين الفقرتين « يارب ارحمنا » و « يايسوع ابن الله ارحمنا » الأولى صلاة العهد القديم والثانية صلاة العهد الجديد صلاة انجيلية تتضمن عقيدة وروحانية ٠

أما الفقرة الأخيرة « ارحمني أنا الخاطىء » فهي تشير الى عملية الفداء » ، التي أتمها يسوع على الصليب ، ذلك أن يسوع المسيح الذي هو ابن الله ، ورحمة الله ، كانت رسالته تنحصر في الخلاص والفداء « يخلص شعبه من خطاياهم » مت ١ : ٢٠ ثم يواصل الكاتب دراسته لهذه العبارة فيجد فيها فيضاً زاخراً بالمعاني ٠

– ٤ –

الليتورجيا

نعتمد في دراسة الليتورجيا على ما جاء في كتاب :

"The early history of the liturgy" By : J. H. Srawley, D. D.

طبع الكتاب مرتين ، الأولى عام ١٩١٣ ، والثانية عام ١٩٤٧ ، ويتناول بحثاً مستفيضاً وممتعاً في الليتورجيات في القرون الأربعة الأولى ويشتمل على دراسة طقوس الكنائس القبطية في مصر ، والسريانية في أورشليم وانطاكية ، وفي الشرق كافة ، ثم في أفريقيا وأوربا ٠

لا يملك الكاتب وثائق تاريخية ، وليس لديه أية معلومات أولية تدور حول نشوء الليتورجيا السريانية في فلسطين وتطورها قبل القرن الرابع الميلادي ، وعليه فانه يعتمد على أربعة مصادر هامة سجلت في القرن الرابع بالذات هي :

١ ـ تعاليم كيرلس مطران الكرسي الأورشليمي التي سجلت عام ٣٤٨ ٠

٢ ـ زيارة اثيريا Etheria رئيس الرهبان ، الاسباني الموطن، للأماكن المقدسة والتي تمت ما بين ٣٨٣ ـ ٣٨٥ حيث اتصل بالمطران

كيرلس قبيل وفاته عـــام ٣٨٦ م واستقى معلومات دقيقة عـن طقس الكنيسة في أورشليم ٠

٣ و ٤ ــ تاريخ أوسابيوس ٣٣٩ م ، وجيروم الذي أقام في بيت لحم ما بين عام ٣٨٦ ــ ٤٢٠ ٠

قبل أن يباشر الكاتب بعرض سير القداس وأسلوب ممارسته ، يطرح بعض المصطلحات الخاصة بالسر نحو كلمة Synaxis والتي تعنـــي باليونانية حشد أو حفل ، والتي وردت في تعاليم كيرلس الأورشليمـــي « Oblation أي القربان وتشير الى معنى الأوخارستيا· وكذلك كلمة Missa « تسريح الموعوظين » كما وردت في كتابات أثيريا(١) ٠

ويلاحظ الكاتب أيضاً أخذاً عن كيرلس وجيروم أن قراءات مـن الكتاب المقدس والوعظ كانت تتخلل خدمة سر القربان المقدس ، لا سيما وأن جيروم يتحدث عن المواعظ الكثيرة التي كان يلقيها الأكليروس ٠كما يتكلم ذاته عن استعمال الأنوار في الكنيسة كعلامة فرح وابتهـــاج لدى قراءة الكتاب المقدس ويؤكد في حديثه ، بأن ذلك كان عادة قديمة عم استعمالها في كنائس الشرق قاطبة ٠

وبعد أن يستعرض عادات وتقاليـــد أخرى ، ويتطرق الى قداس الموعوظين ، ينتقل الى كيفية ممارسة القداس خطوة فخطوة ٠

قبل البدء بالقداس يغسل المطارنة والكهنة أيديهم بالماء مع تلاوة عبارة « سأغسل يدي بنقاء » ثم تتبع « قبلة السلام » التي يعلن عنهـــا الشماس « لنحيي بعضنا بعضاً » ثم يمضي في شرح سير القداس جاعلا عبارة « ارفعوا الى العلى قلوبكم حيث من هناك نحصل على الاستجابة » استهلالا للخدمة وابتداء للقداس ٠ فيجيب الشماس « لقد رفعناها الى فوق الى الله » ويقول الكاهن من ثم « لنشكر الرب الاله » وكذلك الشماس « يستحق ويليق » يلي ذلك ذكر جميع المخلوقات المرئية وغير المرئيـــة مستنداً الى ما جاء في الفصل السادس من سفر أشعياء النبي ٠ وعلى الفور تقال « تسبحة الغلبة » يعقب ذلك الدعاء والتضرع كأســاس ضروري لتقديس مواد الخبز والخمر واستحالتها الى جسد المسيح ودمه والتي هي

---

(١) ــ اكتشفت كتابات أثيريا في رومه عـــام ١٨٨٧ J. F. Gannurrini وطبـــع المتـن والأصـــل Duchesne .

العملية الخاصة بالروح القدس · ويمضي قائلا : عندما نكون قدطهرنا أنفسنا بهذه التراتيل الروحية ، حينئذ يحق لنا أن نطلب ليرسل الروح القدس الى الموضوعات التي أمامنا ، أي أن نجعل الخبز جسد المسيح ، والخمر دم المسيح اذ حينما يمسها الروح القدس تتقدس وتستحيل . ويؤكد باصرار أن استدعاء الروح القدس هو الصلاة النهائية لعملية استنزال الروح القدس وحدوث الاستحالة الجوهرية ·

ورد في عملية استحالة الموضوعات الى جسد المسيح ودمه ثلاثة مصطلحات ، فالقديس كيرلس يستعمل كلمة ܥܒܕ Make التي هي أكثر تعييناً وحدودية ووضوحاً من كلمة ܚܘܐ Show الواردة في تعاليم الرسل وفي نافورة مار باسيليوس ، لا بل أكثر شمولية وعمقاً من كلمة ܗܘܐ Become المستعملة في نافورة سرافيون ·

وبعد استدعاءالروح القدس ، وحدوث الاستحالة ، وبعد أن تكون الذبيحة قد أخذت حد الكمال ، يأتي دور الشفاعة والاستعطاف من سلام الكنائس ، والعالم أجمع ، والملوك ، والجيش ، والمرضى ،والمتضايقين، والمحتاجين · ثم يأتي الى ذكر البطاركة ، والأنبياء والرسل والشهداء واتخاذهم جميعاً شفعاء · تتلى أخيراً الصلاة الخاصة بالموتى وجميع الذين رحلوا من بيننا ·

ويرى كيرلس في هذه الصلوات والشفاعة التي تتلى فور حلول الروح القدس وحدوث الاستحالة فائدة كبرى للأرواح التي قدمت من أجلها · كما أنها تعتبر استشهاداً ومستنداً في الشفاعة ووجود الذبيحة ·

وبعد الشفاعة ترفع الصلاة الربية ، ثم تعلن « تعطى المقدسات للقديسين فقط » · هذا ما يجد الكاتب في تعاليم الرسل وليتورجيا يعقوب أخي الرب · وخلال التناول يلحن المزمور الذي بدؤه « ذوقوا وانظروا ما طيب الرب » ويختم ذلك بصلاة الشكر · ويضيف عن كيفية تناول الجسد يقول « حامل اناء القربان ، كان يحمل الاناء بيده اليمنى، واليد اليسرى تساعد اليد اليمنى في باطن الكف متحفظاً ألاّ تسقط ذرّة واحدة · ويقبض على الكأس أيضاً رافعاً اياه ليلمس العين والجبهة وباقي أعضاء الحواس ويستمر هكذا حتى يقدم الى الشفاه » ·

ان كتابات الذهبي الفم الذي أقام في أنطاكية في القرن الرابع تلقي عرضاً ضوءاً كافياً على كيفية ممارسة خدمة القربان ومراحل سير

الليتورجيا التي كانت تستعمل في كنيسة أنطاكية في أواخر القرن الرابع. كما تشير الى نمو الذوق في تجميل الكنائس واظهارها في رونق وبهاء . ويصف احترام المؤمنين للأسرار وممارستهم اياها بكل اهتمام وخشوع . ومما جاء في هذه الكتابات ومن تعاليم الرسل يستطيع أن يؤكد ما جاء في تعاليم كيرلس الأورشليمي ويستوعب بصورة كافية وبالضبط عن شكل وأسلوب الليتورجية التي كانت تستعمل في سورية وفلسطين قبل نهاية القرن الرابع ، ويلقي الضوء على أمور أخرى كانت ترافق خدمة الليتورجيا في كنيسة انطاكية . ان الذهبي الفم كان تماماً مثل كيرلس الأورشليمي يستعمل كلمة « قداس الموعوظين » في الاحتفالات الرسمية أثناء قيام المؤمنين بالعبادة . ويذكر في شروحاته: المعبد ، كرسي المطران، الهيكل ، مائدة التقديس ، الستار ، ويشير أيضاً الى الحاجز الذي يفصل الرجال عن النساء .

يظهر من آثار وأنقاض كنائس سورية في الفترة الواقعة ما بين القرن الرابع والسادس ، انه لم يكن هنالك أيقونات في الكنيسة ، بل محجلات أمام المعابد فقط . ويذكر الذهبي الفم أيضاً الآنية والوعاءات الذهبية والمجوهرات التي كانت تستعمل في الكنيسة ، ويتطرق الى ذكر الثياب البيضاء الخاصة بالشمامسة والكهنة لدى احتفالهم بخدمة القداس . ثم يتحدث الذهبي الفم عن قداس الموعوظين الذي يتضمن ، السلام ، وقراءات الكتب المقدسة ، وبعد ذلك يُصرفون وتوصد الأبواب ويبتدىء قداس المؤمنين .

يعلن الشماس المباشرة بالقداس عند قوله « لنصلّ » من أجل العالم ، والكنائس ، والمطارنة ، والأكليروس ، والملوك ، والحكام ، والمرضى ، والمتضايقين ، والمحتاجين ، وكذلك من أجل الأرض ،والبحر، والطقس ، وأخيراً يلتمس من أجل الملاك الحارس . ملاك السلام . هذه الابتهالات تلي صلاة السلام ، ومباركة المؤمنين . ثم يعقب ذلك « محبة الله الآب الخ » و « ندب القلوب الى فوق » . ويدخل المصلون الى الكنيسة ويوصيهم الكاهن بوجوب الاصغاء والحفاظ على الهدوء . ثم ينبه الأمهات ليلاحظن أولادهن من احداث الصوت أو الضجة في الكنيسة .

ويرتدي المطران بذلة حبرية خاصة ، يرسم علامة الصليب على جبينه ، ويجلس على الكرسي الخاص به ، محاطاً بالقسس والشمامسة . والى هنا نكتفي بما جاء في مؤلف الدكتور J. H. Srawley D. D. .

ننتقل الآن الى استعراض ما طرحه مستشرقون آخرون ، وكتّاب غربيون من دراسات وآراء ، حول موضوع الليتورجيا السريانية يستعرضون ثلاث ملاحظات ، الملاحظة الأولى (التقليد) يقول G. B. Howard « لم يكن في القرون الثلاثة الأولى ليتورجيا تحمل اسم القديس يعقوب أخي الرب أو أي شخصية رسولية أخرى ، كمالانجد أيضاً ليتورجيا مكتوبة بل كانت تُستظهر عن طريق التقليد ، يتناقلها الواحد عن الآخر ، ويستدل الكاتب بالعبارة التي اعتاد النساخ أنيضعوا عنواناً لليتورجيا السريانية كما يلي « أنافورا القديس يعقوب أخو الرب ، وهذا هو القداس الأول الذي مارسته الكنيسة ، وسمع من فم الرب »(٢) ٠

ويؤكد الدكتور فورستر على ذلك بقوله : « لم تكن الكنيسةوقتئذ تستعمل سوى الكتاب المقدس وحده ، لأنه لم يكن بعد قد تثبت أوتعيَّن في الكنيسة أي شيء ، فطقوس الخدمات الكنسية ، ومراسيم الاحتفالات الدينية كانت تتلى من قبل خَدَمة الأسرار ارتجالياً ، وكل شيء كان يمارس بسذاجة وبطريقة أولية ، وبحسب الرغبة الشخصية ، أو ما يناسبه خادم السر ٠ ويضيف الدكتور فورستر في Dr. Adrian Fortescue, the Mass, P. 113 Mass P. 53 « يجب أن نعلم أن وضع الليتورجيا قبل مجمع نيقية كان مائعاً وقابلا للتحوير وعرضة للتغيير في شكلها ، وبمرور الزمن ، وبصورة تدريجية اتخذت لها شكلا ثابتاً ، وحفظت كتقاليد ثابتة في الكنيسة ، هذا بالنسبة لليتورجيا فقط ، أما بالنسبة للطقس ككل فكان هو الآخر أيضاً عرضة للزيادة والنقصان » ويقول أيضاً « وجدت ليتورجيا ككتاب في أواسط القرن الرابع » Mass P. 115 .

والملاحظة الثانية هي الاقتباس : حيث جرت العادة في الكنائسخلال القرون الثلاثة الأولى أن تقتبس الواحدة عن الأخرى ما يروق لها من الطقوس والعادات والتقاليد Mass PP. 231-382 ومثال على اقتباس الكنائس الواحدة من الأخرى ما تراه من افتتاحيات ليتورجيا يعقوب أخي الرب ، والقديس مرقس ، والذهبي الفم ، المقتبسة من مار سويريوس الانطاكي « Primitive liturgies, Rev. J. M. Neale and Rev. R. F. Littedale, PP. 5-32-95.

2 — The christians of St. Thomas and their liturgies, Rev. G. B. Howard, P. 222.

أما الملاحظة الثالثة فهي عدم توحيد الليتورجيات في ذلك الوقت بالذات ، فقد أجمع العلماء على أنكل الليتورجيات وبدون استثناءكانت عرضة للتغيير بين آن وآخر لا بل ان كافة الطقوس في الشرق أدخل عليها تعديل وتطوير Mass, P. 213 ويؤكد ذلك Mgr. Duchesne بقوله: « مهما حاولنا أن نعيد الليتورجيات الى شكلها القديم الذي كانت عليه قبل القرن السادس ، فستبقى بعيدة عن الصورة الأصلية التي كانت عليها» Christian Worship, P. 82 .

ويعتقد بعض الكتّاب الغربيين أيضاً « انه لم يثبت نوافير معينة في الكنيسة السريانية الأرثوذكسية اطلاقاً لا عن طريق المجامع ولا عن طريق الأوامر البطريركية ، لذلك بات كل خادم سر في هذه الكنيسة يختار أية نافورة يناسب وفي أي مناسبة كانت ، في حين أن الكنيسة الرومانية وضعت نظاماً ثابتاً يلتزم بموجبه خدمة الأسرار . وبناء على ذلك يقول Bringhtman اننا نجد مجموعة كبيرة من النوافير العائدة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية ، وضعت وأنجز نسخها بين القرن الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين .

ثم يتناول الكتّاب الغربيون ليتورجيا يعقوب أخي الرب ويرون فيها ثلاثة أقسام رئيسة : ١ ـ الافتتاحية ٢ ـ والأوخارستيا ٣ ـ ونهاية الخدمة . يتميز القسمان الأول والثالث باسهاب كبير نتيجة لاضافات كثيرة من جهات عديدة ، مختلفة المستويات ، وهذا سبب كثرة السدرات والفروميونات والقالات وغيرها ، والكاهن الخادم للسر ليس بحوزته قانون يسترشد به ليتقيد بهذا السدر أو يستلزم بذاك الفروميون ، فهو يجد أمامه مجموعة هائلة من هذه الأصناف ينتقي ما شاء ويناسب . ان موسى بن كيفا المتوفى عام ٩٠٣ + لم يذكر في تفسيره للقداس السدر أو الفروميون حتى ولا القاثوليق ، في حين أن ابن صليبي تحدث عن سدر المدخل .

ان Bringhtman P. 492 في حديثه عن القسم الأول من النافورة يستعرض ما كتبه كل من يعقوب الرهاوي ، وموسى بن كيفا ، وابن صليبي مركزاً على قداس الموعوظين مؤشراً الى الفوارق في طرحهم الشروحات ، لا نرى حاجة لذكرها .

أما بالنسبة للقسم الثاني من النافورة فيبدي هؤلاء الكتّاب الملاحظات التالية :

أولا : ان النص الأصلي لليتورجيا يعقوب أخي الرب مفقود ،وكان يعقوب الرهاوي في القرن السابع قد أعاد النظر في هذه الليتورجيا ونقحها، ثم شاع استعمالها في الكنيسة واعتمد عليها موسى بن كيفا في تفسيره ٠ والموجود حالياً هو ما لخصه ابن العبري ٠

ثانياً : ذكر موسى بن كيفا أن بعض الليتورجيات تضمنت صلاة المغفرة موقعها قبل صلاة السلام ، ويراها غير ضرورية وأكد على ذلك ابن صليبي ٠

ثالثاً : كان كتاب سفر الحياة مستعملا في عهد موسى بن كيفا ، غير أن ابن صليبي الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر يقول ان استعماله كان قد بطل ٠

رابعاً : يخبرنا ابن كيفا وابن صليبي ، أن التناول كان يجري بعد تلاوة عبارة « ان المقدسات (الخبز والخمر) يجب أن تعطى للقديسين والأنقياء فقط » ويفيدنا يعقوب الرهاوي الذي كان يعيش في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن : انه جرت العادة الكنسية ، أن يحذر الكاهن الناس من التناول ما لم يتأكدوا من توفر القداسة والنقاء فيهم ٠ ويقول لهم علناً ان المقدسات تعطى للقديسين والأنقياء وليس لغير الأنقياء» والذي كان يجد في نفسه عنصري القداسة والنقاء كان يتقدم الى الكاهن عارضاً أمامه أهليته لذلك ، ومن ثم يحق له الاشتراك بالأسرار
Bringhtman, P. 492

اطلعنا في المتحف البريطاني على كتاب ألّفه جرجس أسقف العرب تحت رقم Ms. Add. 12154 يتضمن شرحاً مختصراً عن طقس المعمودية، والقداس ، وتقديس الزيت ٠ ونشره بالطبع ونقله الى الانكليزية Don R. H. Connolly, M.A. عام ١٩١٣ اكسفورد ٠

ويقول الناشر في مقدمة الكتاب أن جرجس أسقف العرب تأثر كثيراً ب Ecclesiastica Hierarchia المنتحل المنسوب كذباً الى ديونيسيوس الأريوفاغي والذي اعتمد عليه كثيراً موسى بن كيفا ٠ ان جرجس الأسقف ولئن جاء شرحه مختصراً الا أنه أتى بمعلومات مهمة جداً ٠

★ ★ ★

مكتبة دير مار متى[1]

كان دير مار متى منذ تأسيسه مركزاً للاشعاع العلمي والفكري ، ومن جملة مظاهر تلك الحركة العلمية والفكرية « المكتبة » التي أحصاها العلامة المثلث الرحمات مار اغناطيوس أفرام الأول برصوم في عداد خزائن الكتب السريانية الشهيرة(٢) . وقال فيها الفيكونت فيليب دي طرازي « أنها من أقدم مكتبات الشرق عهداً وأوفرها ثروة .. وكانت غنية بالمخطوطات النادرة التي ذاعت شهرتها في البلاد(٣) . ويعود الفضل بذلك الى الجهود الجبارة التي بذلها رؤساء الدير ورهبانه بجمع نفائس المخطوطات والمؤلفات العديدة التي تتناول صنوف المعرفة وأنواع العلوم والفنون .

ان تاريخ هذه المكتبة مرتبط بتاريخ الدير ، وان البحث في أوليات هذه الأمور عزيز المنال ، شاق ، فلا وثائق ثابتة تسعفنا ، ولا مصادر تاريخية يركن اليها لنتمكن من الوصول الى صورة حقيقية واضحة ، أو نتائج حاسمة . وذلك نظراً لما حل بالدير من الكوارث والنوازل . ولكي نستطيع أن نستوعب الأمر نتتبع تاريخ هذه المكتبة في ثلاث حقب :

الحقبة الأولى : وتبتدىء بتاريخ تأسيس الدير في أواخر القرن الرابع الميلادي وتنتهي في أواخر القرن الخامس . في هذه الفترة من

---

١ ـ تأسس دير مار متى في أواخر القرن الرابع الميلادي بمساعي القديس مار متى أحد أقطاب النسك والزهد في بلاد ما بين النهرين . واشتهر في القرن الخامس حيث صار كرسيا مطرانيا ولا يزال كذلك . ذاق الأمرين من الفرس الذين دمروا أبنيته وأضرموا النيران في مكتبته وقضوا على حضارته ثم أخذ الدير من جديد يعيش عهدا ذهبيا سعيدا على العهد العربي ما بين القرن السابع والثالث عشر للميلاد حيث اشتهر برهبنته ، ومعهده الديني والعلمي ، ومكتبته ، ومركزه الكنسي المرموق . ثم انتابته كوارث ومآسي وانتهى به الأمر الى الخراب والدمار على أثر الغارات الوحشية من قبل الحكام الطغاة وبخاصة تيمور لنك . ثم أعيد تجديده في أواخر القرن السادس عشر . ويحظى اليوم برعاية فائقة من قبل الحكومة العراقية الجليلة .

٢ ـ اللؤلؤ المنثور ص ٣٢ طبعة حلب ١٩٥٦ .

٣ ـ عصر السريان الذهبي ص ١٠١ طبعة حلب ١٩٧٩ نقلا عن مجلة الاثار الشرقية مجلد ٣ سنة ١٩٢٨ ص ١٧ .

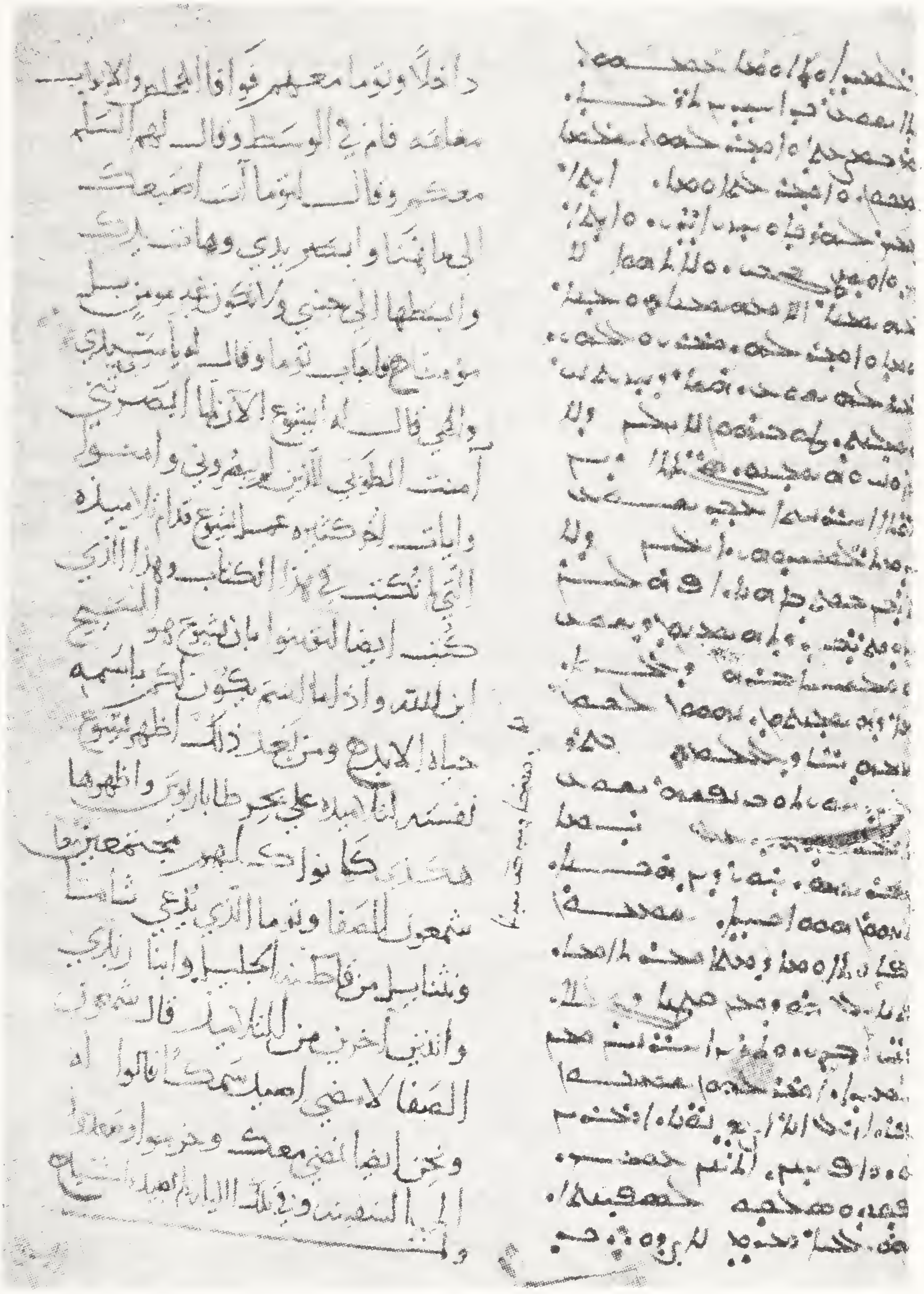

صفحة ١٧٥ من المصحف السرياني النفيس للانجيل المقدس المخطوط عام ١١٧١ م ٠

تاريخ الدير جمع الرهبان مكتبة ضخمة جداً حفلت بالمؤلفات السريانية وسواها · غير أن الاضطهاد الفارسي العنيف للكنيسة المسيحية امتد الى الدير فأضرم الفرس النيران فيها · وقتلوا الرهبان وعاثوا في المنطقة فساداً ·

الحقبة الثانية : وتبتدىء في أوائل القرن السابع الميلادي وتنتهي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، أو بعبارة أخرى منذ دخول العرب الى هذه البلاد فاتحين وحتى سقوط الدولة العباسية عام ١٢٥٨ م ·

كانت هذه الفترة عصراً ذهبياً للدير ولمكتبته حيث ذاعت شهرتها وانتشر خبر مخطوطاتها النفيسة في حدود سنة ٨٠٠ م(٤) · وأضحت في العصور العباسية مورداً عذبا ومنهلا صافياً ، وغذاء فكرياً لأصحاب البحث والتتبع · أجل عاشت في المناخ العربي بقوة وعنفوان ، ذلك أن العرب لما دخلوا هذه البلاد فاتحين صانوا المكاتب والخزائن احتراماً للعلم واجلالا للعلماء و « من أثمن ما انطوت عليه هذه المكتبة في هذه الحقبة نسخة اسطرنجيلية قديمة وقيِّمة تدعى « هكسبلة » اشتملت على كتاب العهد القديم ويوجد في كل صحيفة منها ستة أعمدة · ولما سمع طيمثاوس جاثليق النساطرة ٨٢٣ م بأمرها كتب الى رئيس الدير في استنساخها · ثم استعان الجاثليق بجبرائيل بن بختيشوع ٨٢٨ م كاتب ديوان الخليفة عبدالله المأمون وطبيبه في استحضار هذه النسخة الى بغداد ونسخها · وكانت هكسبلة دير مار متى المشار اليها مكتوبة على رقوق بخط نصيبيني بديع ، وما كاد يظفر بها الجاثليق حتى استدعى ستة نساخ ماهرين وكاتبين من جهابذة بغداد ، فنسخوها كلها بالشكل الكامل · ونقل الجاثليق نفسه ثلاث نسخ عنها بخط يده »(٥) · وكانت في عام ١٢٩٨ تشتمل على مصنفات ابن العبري بأجمعها كما ورد في مصحف محفوظ في خزانة برلين برقم ٣٢٦(٦) ·

الحقبة الثالثة : وتبتدىء بعد سقوط الدولة العباسية عام ١٢٥٨ م وحتى يومنا هذا · في عام ١٣٦٩ م سطا الأكراد على الدير ونهبوه مع

---

٤ ـ اللؤلؤ المنثور ص ٣٢ طبعة حلب ١٩٥٦ ·

٥ ـ عصر السريان الذهبي ص ١٠١ طبعة حلب ١٩٧٩ نقلا عن رسالة طيمثاوس ٢٣ ومجلة الآثار الشرقية مجلد ٣ سنة ١٩٢٨ ص ١٨ ·

٦ ـ اللؤلؤ المنثور ص ٣٢ طبعة حلب ١٩٥٦ ·

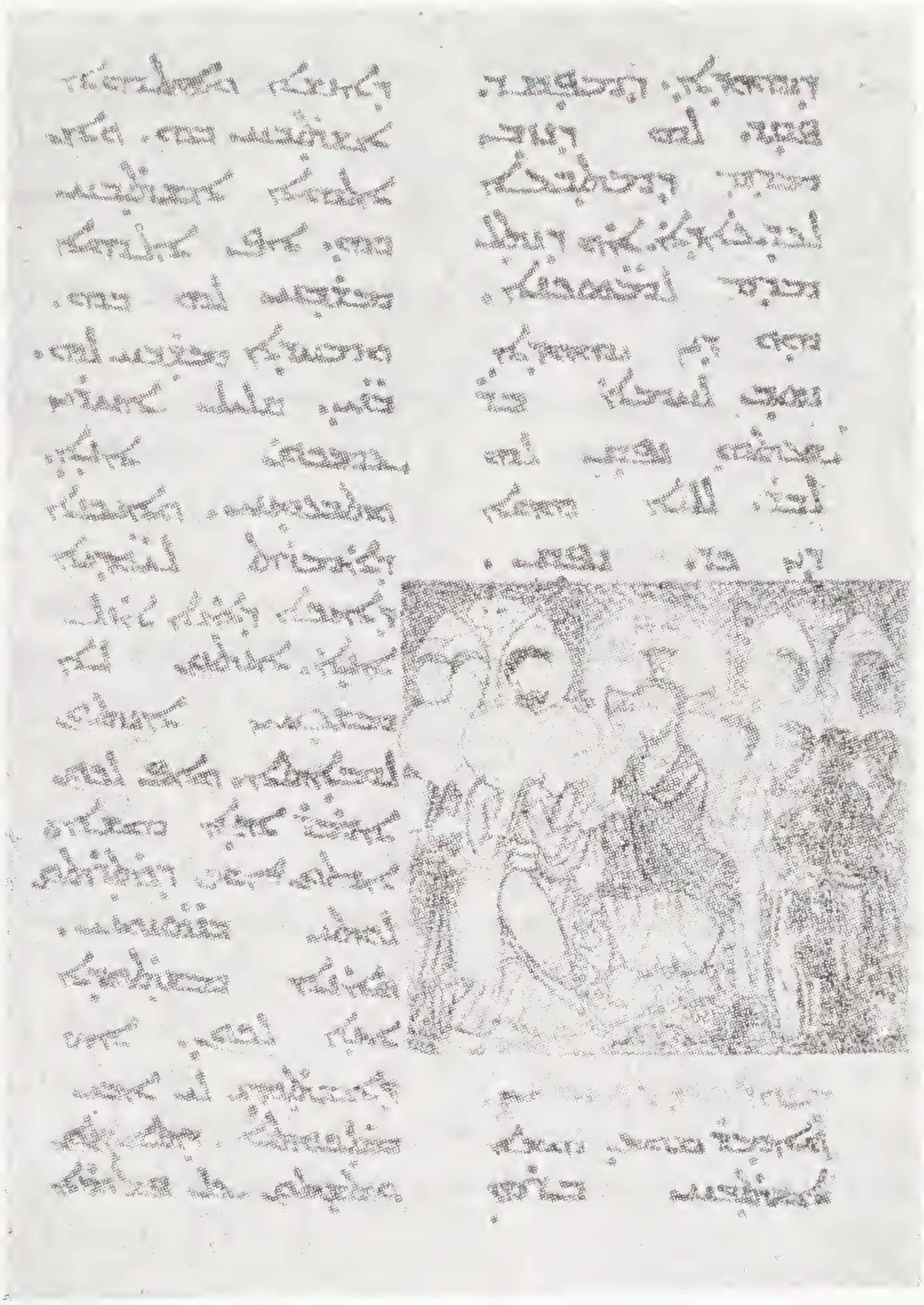

صفحة من مخطوطة للانجيل المقدس أنجزت نساختها عام ١٢١٦ نقلت من دير مار متى وهي اليوم في المتحف البريطاني

مكتبته الثمينة • وقد تمكن الرهبان من أن ينقلوا قسماً منها الى الموصل• كما نقل قسم آخر من كتب العلامة مار سويريوس يعقوب البرطلي مطران الدير ، الى خزانة والي الموصل بدر الدين لؤلؤ • ثم أخنى عليها الزمان، ولكن عثر فيها عام ١٨٤٦ على حوالي ستين مصحفاً •

والباحث المستقصي يجد عدداً وفيراً من مخطوطات هذه المكتبة في خزائن المتحف البريطاني في لندن ، وكمبردج ، وبرلين ، والفاتيكان ، والموصل ، ودير الشرفة في لبنان وغيرها من خزائن الكتب في العالـــم شرقاً وغرباً ٠

ومن جملة هذه الكتب التي تبعثرت هنا وهناك ، كتاب الأيام الستة لمار يعقوب الرهــاوي ٧٠٨ + أنجز نسخـه عام ٨٢٢ م عــلى الـرق في كنيسة الرها ، نقل بعدئذ الى مكتبة دير مار متى ثم صار الى خزانة آمد الكلدانية فقلاية الكلدان بالموصل سنـــة ١٩١٩ ٠ والمصحف السرياني النفيس للانجيل المقدس الذي أنجزه الراهب مبارك البرطلي سنة ١٢٢٠م بالخط الاسطرنجيلي البديع وزيَّنه بأربع وخمسين صورة جميلة ملونة في غاية الأناقة والاتقان وكتب عناوين فصوله بحروف مذهَّبة ، وأوقفه على مذبح دير مار متى ومار زكاي ومار ابراهيم بجبل الفاف ٠ ثم انتقل الى كنيسة السريان الكاثوليك في قره‌قوش احدى قرى الموصل الشهيرة ثم صار في حوزة مطرانية السريان الكاثوليك بالموصل وأخيراً نقل الى روما عام ١٩٣٨ وأودع في خزانة الفاتيكان (٧) ٠

أما مخطوطات مكتبة دير مار متى الحالية والمحفوظة حتى اليــوم فتشتمل على حوالي سبعين مخطوطاً ، معظمها مصاحف الانجيل المقدس ، وطقوس كنسية ، وقصص القديسين ،وبعض الكتب اللاهوتية والدينية ٠ أربع منها أنجز نسخها ما بين ١٢٢٢ ـ ١٢٧٠ اثنتان منها مخطوطتان على الرق ، وأربع خطَّت ما بين ١٤٠٣ ـ ١٤٨٩ ، واثنتان نسختا مابين ١٥٧٠ ـ ١٥٧٨ ، وثلاث ما بين ١٦٢٢ ـ ١٦٨٤ ، واحدى عشرة مخطوطة ما بين ١٧٠٦ـ١٧٩٢ ٠ وما تبقى أنجز نسخها ما بين ١٨٠٠ـ١٩٢٥م ٠ وقد عقدنا في كتابنا تاريخ دير مار متى فصلا خاصاً في وصف مخطوطات هذه المكتبة(٨) ٠

ومن طريف الأمور ، ومما يجب أن نلفت اليه نظر علماء الكتاب المقدس بشكل خاص ان مكتبة الدير اليوم تضم في خزانتها نسخة فريدة نفيسة لكتاب الانجيل المقدس ، كتبت بعمودين ، الأول سرياني بالقلم الغربي والثاني ترجمته الى اللغة العربية الفصحى وبالحرف العــربي ،

---

٧ ـ عصر السريان ص ٩١ طبعة حلب ١٩٧٩ ٠

٨ ـ كتاب تاريخ دير مار متى ٠ للأب اسحق ساكا ص ٧٢ ـ ٧٧ طبعة بغداد ١٩٧٥ ٠

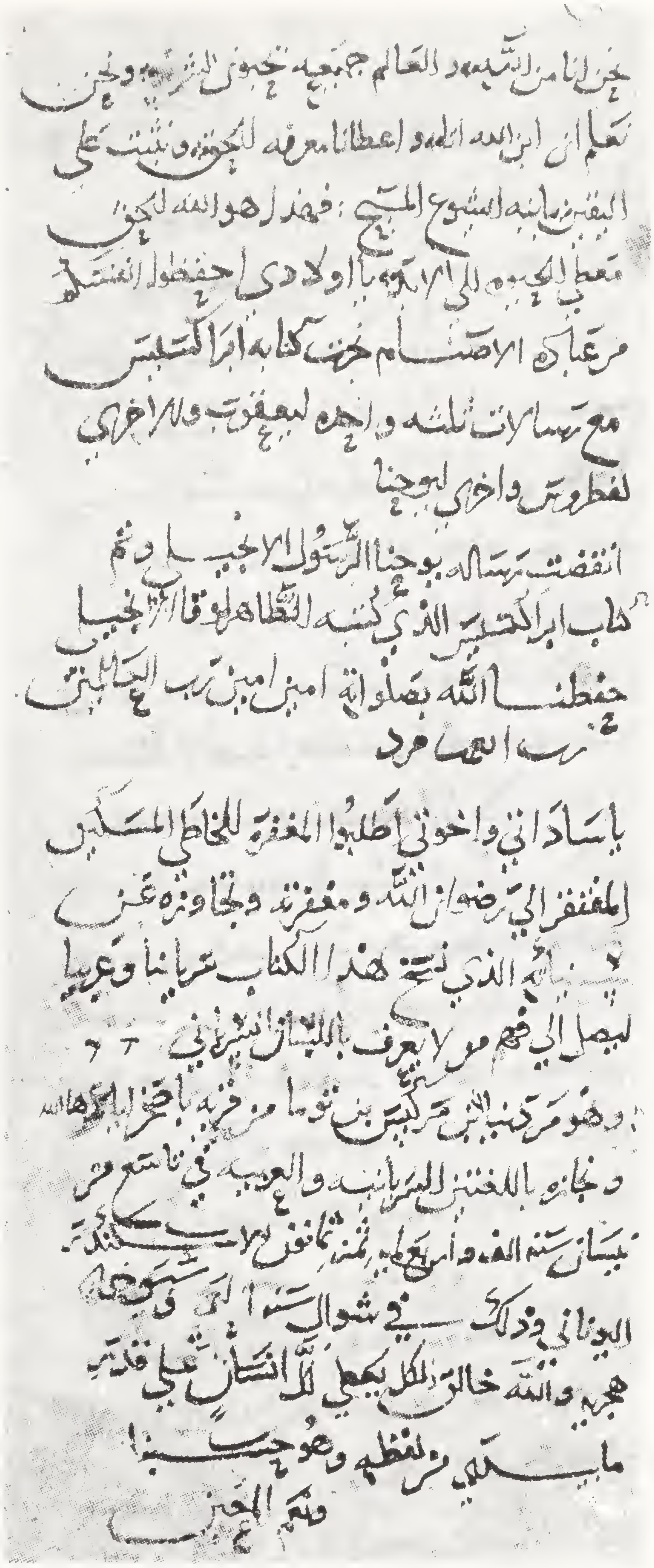

نحن انا من الله و العالم جميعه [illegible] ونحن
نعلم ان ابن الله اتى و اعطانا معرفة للحق و نثبت على
اليقين بابنه يسوع المسيح : فهذا هو الله الحق
معطي الحيوة الى الابد يا اولادي احفظوا انفسكم
من عبادة الاصنام تم كتابه ابركسيس
مع رسالات ثلثه واحده ليعقوب والاخرى
لبطرس واخرى ليوحنا
انقضت رسالة يوحنا الرسول الانجيلي ثم
كتاب ابركسيس الذي كتبه الطاهر لوقا الانجيلي
حفظنا الله بصلواته امين امين رب العالمين
[illegible] مرد

يا سادتي واخوتي اطلبوا المغفرة للخاطي المسكين
المفتقر الى رضوان الله ومغفرته وتجاوزه عن
[illegible] الذي نسخ هذا الكتاب سريانيا وعربيا
ليصل الى فهم من لا يعرف باللسان السرياني
وهو مرقس [illegible] بن توما من قرية [illegible]
[illegible] باللغتين السريانية والعربية في تاسع من
نيسان سنة الف واربعماية وثمانون [illegible] اسكندر
اليوناني وذلك في شوال سنة [illegible]
هجرية والله خالق الكل يعطي الانسان على قدر
ما [illegible] من لفظه وهو حسبنا
وتم [illegible]

صفحة من المصحف السرياني النفيس للانجيل المقدس المخطوط عام ١١٧١ .

أنجزها الشماس مردينا بن يوسف مركيز بن توما من باسخرايي عام ١١٧٧ م صفحاتها ٧٠٢ قياسها ٣٠ × ٢١ سم ٠

ان هذه النسخة تعتبر اليوم « **تحفة** » نادرة في الدراسات المسيحية لعلم الكتاب المقدس ، ذلك أن العلماء حتى اليوم لا يعرفون ترجمة عربية للانجيل قبل القرن الثاني عشر الميلادي ٠

جاء في الوثائق السريانية التاريخية أن أول ترجمة عربية للانجيل المقدس تمت في عام ٦٤٣م على أيدي علماء الكنيسة السريانية الأرثوذكسية العرب من بني طي وتنوخ وعقيل وبأمر يوحنا الثالث البطريرك الأنطاكي، واستجابة لرغبة عمير بن سعد بن وقاص الأنصاري أمير الجزيرة(٩) ٠

ويرى المثلث الرحمات أغناطيوس يعقوب الثالث : أن الترجمة العربية للانجيل المقدس التي تحتويها نسخة دير مار متى المشار اليها هي نفس الترجمة التي عملها علماء السريان العرب كما سبق »(١٠) ٠ ونحن نستبعد هذا الرأي ونعتقد أن هذه الترجمة تمت في العصر العباسي وفي القرن التاسع الميلادي ، وبجهود ومساعي علماء الكنيسة النسطورية، ويستدل على ذلك من ورود بعض أسماء الأعلام باللهجة النسطورية الشرقية مثل ايشوع وايشو ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الترجمة العربية التي تمت في عام ٦٤٣ اقتصرت على الأناجيل الأربعة فقط ، أما هذه فقد اشتملت على العهد الجديد كله ٠ ناهيك عن أن الأسلوب اللغوي فيها جاء مشابهاً لأسلوب ترجمة العهد القديم التي أنجزها حنين بن اسحق الطبيب النسطوري المشهور ٨٧٣ + ٠

وفي الختام أود أن أبث أشواقي الحارة وحنيني الى ديري الحبيب الذي أمضيت فيه أكثر من عشر سنوات كرئيس له في هذه الأبيات المتواضعة وتحت عنوان :

★ ★ ★

٩ ـ تاريخ الرهاوي المجهول مج ١ ص ٢٦٣ والتاريخ الكنسي لابن العبري مج ١ ص ٢٧٥ ٠

١٠ـ المجلة البطريركية ـ دمشق ص ٦٩ مج ١ عام ١٩٦٢ ٠

حنين

الى دير مار متى

ديري بروحي لم يزل يحتل بي أسمى محلْ
حبي لمتّىَ بالحشا بالنور والنار اشتعل
كم تيمتني وقفة بالقرب من ذاك الطّلل
أوقدت شمعاً في يدي والدمع ما بين المقل
أجثو وقربي مرقد(١) أعطيه من قلبي قُبَل
مستنشقاً عطر التقى مسترجعاً عهداً رحل
ناديت شيخاً(٢) ناسكاً يعطي سخاء مَن سأل
كم ذكريات لي هنا تذكي بأعماقي الأمل

★ ★ ★

ناشدتكم باسم الوفا يا قوم ان جاء الأجل
لا تدفنوا جسمي هنا بل ادفنوه في الجبل(٣)
قبراً بديري ابتغى كرمي لجهدي والعمل(٤)
أبقى قريباً عند من أضحى لدى الناس المثل(٥)

---

١ ـ هو ضريح مار متى الشيخ الذي أضحى مزارا مقدسا ٠
٢ ـ يدعى مار متى شيخا لكبر سنه ٠
٣ ـ هو جبل مقلوب ويقع الدير في صدره ٠
٤ ـ خدمت الدير كرئيس لمدة عشر سنوات ٠
٥ ـ هو مار متى الشيخ ٠

أغـدو رفيقـاً للـذي   مـن علمه كلَّ نَهَـل(٦)
أصغـي لسُبُـحٍ قد غـدا   يتلـى صباحـاً وطفـَل
هـذي أحاسيسي ومـا   أرجـو اليـه أن أصـل

ديـر مـار متـى

شهرة في الدين والدنيا اغتنم   دير متى منـذ أيـام القدم
سجل التاريخ فيـه صفحـة   حوت المجـد رفيعاً والشمم
وتغنـى الشعـر في فتنتـه   كل سحـر مـن نشيد ونغم
صـار في الكون مزاراً ولقي   لأناس مـن بعيـد وأمـم
فله في الذكر شأن عاطـر   ولـه في القلب حب وحـرم

★ ★ ★

هجـر القديس متى عالمـاً   مائجـاً بالشـر كالبحر الخضم
وانتحـى الاقفار يبغي عزلـة   وبحب النسـك والزهد التزم
جعـل التقوى هواه أبـداً   وبحبـل الحـق والبر اعتصم
سـار في أقوال ربي يهتدي   حاملا عـار الصليب ، والألم
نادى بالانجيـل نوراً وهـدى   لنفوس غاشيـات في الظلم
لقي المرضى شفـاء ورجـا   وتعافى كل مـن فيـه سقم
وكزهر الروض طاغٍ عرفـه   عطر السهل فسيحاً ، والعلم

★ ★ ★

كم رفاق لـه يقفون الأثـر   في دروب الزهد في نشر القيم
صلبوا الدنيا جهاداً في الوغى   وأثاروا الحرب من لحم ودم

---

٦ ـ هو المفريان العلامة ابن العبري .
٧ ـ يقصد بالسبح : الصلاة المسماة بالتشمشت وهي المراسيم الدينية التقليدية التي تقام في الدير صبحا ومساء .

عرفـوا العلم أليفاً في الورى　　واستهاموا بالكتاب والقلـم
حولـوا القفر نعيماً فاتنـاً　　وأشادوا الدير صرحاً للحكم
وبنوا مجـداً أثيـلا خالـداً　　نـال اعجاب شعوب وأمـم

★ ★ ★

يا صروف الدهر يا مر الزمن　　كم شكا الدير البلايا والازم
كم خرابٍ فادح حـل بـه　　ذُبح الرهبـان فيـه كالغنم
عبث الطغيـان في أقداسـه　　دون أن يرعى ضميراً وذمم
ويـد الأشرار صبت شرهـا　　بكؤوسٍ طافحـات بالنقـم
تـرك الديـر ذووه هربـاً　　جزعاً من بطش كـردٍ وعجم
هذا شأن البغي والظلم معـاً　　وهـوى الحقد دفيناً والنهـم

★ ★ ★

أمـة السريان هبت يقظـة　　تبعث الغيرة فيهـا والشيـم
تنفـح المـال رخيصاً للعـلا　　بجهـادٍ وسخـاءٍ وكـرم
مجـدوا الله بأعمـالٍ سمت　　وأشادوا ما تداعى وانهـدم
بذلـوا الجهد عظيماً في الدنا　　بارك الله لهاتيـك الهمـم
لا يضيـع الله أجراً لفتـى　　للتقى شمَّر يسعـى وخـدم

★ ★ ★

ايـه يا دير أيا كهف التقى　　أنت سحر" بـين هاتيك القمم
قد حبـاك الله جواً فاتنـاً　　تتبـارى فيه أعطـاف النسم
وأزاهـير بألـوانٍ زهـت　　وزعت بـين سهـول وأكـم
ووروداً عـابقـات بشـذى　　مـلأ الأجواء منـه وازدحم
يجـد المنهوك في أفيائهـا　　راحة في الظل ، والمـاء الشبم
فيـك للطـير أغاريد علت　　توقـع اللحـن بنغـم منسجم
كل ما فيـك جميـل منعش　　تجعل الأرواح دوماً تبتسـم
تمنـح القلب شفـاء مـن عنا　　وتزيل الهم من أهـل السأم
فارفعن مجـداً وشكراً وثنا　　لالـه واهب هـذي النعـم

★ ★ ★

الموتى الراقدون[1]

امنح الموتى حياة وانبعاثاً من رميم
وأعطهم ربي نجاة من عذاب وجحيم

★ ★ ★

أغمضوا العين رجاء وانتظاراً ليسوع
أسلموا الروح ابتغاء لمعادٍ ورجوع

★ ★ ★

لا تدنهم ربي عدلا لا ولا تجري الحساب
أجزل الغفران فضلا مبعداً هول العقاب

★ ★ ★

جسد الفادي مذاق" وضمان للعهود(٢)
ودم الرحمن حق" يعطي ارثاً في الخلود

★ ★ ★

بسط الموت حصاراً بين أبناء البشر
مذ عصى الانسان أمراً قاطفاً ذاك الثمر

★ ★ ★

فولجت القبر حياً شارباً كأس الممات
ناقضاً ملكاً عتياً يا اله الكائنات

---

١ ـ بمناسبة اقامتي أول قداس بعد رسامتي مطرانا ، ذكرت في الذبيحة الالهية المرحومين والدي ، ووالدتي ، وأخي ، وخالي ، وبالمناسبة قلت هذه الأبيات المتواضعة مقتبسا معانيها من السريانية. (سويريوس) .

٢ ـ من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير . لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه » (يوحنا ٦ : ٥٤ـ٥٦) .

قداســة الحبــر الأعظــم

العلاّمــة مــار أغناطيوس زكــا الأول عيواص

في مقالات موجزة

١ ـ **مقدمة كتاب شمعة السريان** : المجلة البطريركية مجـلد ٢٢ السنـة ١٩٨٤ العدد ٣٨ ص ٤١٧ ـ ٤٢٤ .

٢ ـ **مقدمة زيارة قداسة البطريرك زكا الأول لحاضرة الفاتيكان** : المجلة البطريركية المجلد ٢٢ السنة ١٩٨٤ العدد ٣٩ ص ٤٧٥ـ٤٧٧ .

٣ ـ **مقدمة الزيارة الرسولية لأبرشية الجزيرة** : المجلة البطريركية المجلد ١٩ السنة ١٩٨١ العدد ٥ ص ٣ ـ ٩ .

٤ ـ **السيرة الصالحة** : المجلـة البطريركية ، المجـلد ١٩ ، السنة ١٩٨١ العدد ٣ ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

٥ ـ **ممارسة الديموقراطية في الكنيسة** : المجلة البطريركية ، المجـلد ١٩ السنة ١٩٨١ العدد ٤ ص ٢٠٣ـ٢٠٧ .

□ مقدمة كتاب :

شمعة السريان

في تفاصيل الزيارات الرسولية
التي قام بها قداسة سيدنا البطريرك زكا الأول
للأبرشيات السريانية

قداسة البطريرك زكا الأول عيواص ، يحمل الرقم (١٢١)(١) في سلسلة بطاركة أنطاكية الشرعيين . ويحتضن تراث الكرسي الأنطاكي العظيم بشموخه وعنفوانه . ويرث العقيدة الأرثوذكسية بنقائها الانجيلي، وصفائها الرسولي . ويمثل أمجاد السريانية التي زرعت الحضارة على شواطىء الدنيا . انه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق الشرعي قلباً وقالباً ، فهو ليس بطريركاً دخيلا ، ولم يخلع عليه هذا اللقب تفويضاً أو استيراداً ولا هو بطريرك من انتاج الأعوام الوسطى والمتأخرة . انما يمتد بجذوره الى مار بطرس هامة الرسل فهو خليفته الحقيقي والشرعي .

بطريرك أنطاكية هو الطاقة الجبارة التي تتحمل مسؤوليات الكنيسة وتحتضن رسالتها في الخدمة ، والعمل ، والكرازة . وتحرص على تنفيذ رسالتها الهادفة الى تمجيد اسم المسيح .

بطاركة انطاكية العظام أدخلوا الكنيسة السريانية على ساحة التاريخ بقيادة مار بطرس الرسول حاملة راية الانجيل . وبسرعة هائلة تسلقوا الجبال الوعرة ، واجتازوا المسالك الخطرة ، فوصلوا الى القمة وبلغوا الذرا ، وكتبوا لهم تاريخاً مجيداً ، وسجلا فريداً .

تاريخ الكنيسة السريانية سجل يحظى بالمثل والقيم ، وتاريخ نبيل يحفل بعطاءات الحقيقة وثمار الروح ، انه سجل الآباء وتاريخ البطاركة الذين أنعم الله بهم على الكنيسة الذين أسدوا خدمات جليلة ، وسجلوا نضالات طويلة ، وجاهدوا جهاداً مستميتاً وقدموا تضحيات ملطخة باحمرار

---

١ ـ و ١٤٣ بما فيهم غير الشرعيين .

لون دم شهيد الجلجلة · الى جانب ذلك فجّروا طاقات علمية وعلى المستوى الرفيع في مختلف أضرب المعرفة · وأداروا دفة الكنيسة في ظروف قاسية وأحوال صعبة · وهذا النوع من الرجال الذي لا يموت في التاريخ ·

- **سقياً لك يا عرش أنطاكية العظيم ·**
- **يا من أزهرت أمجاد السريانية على شواطئك ·**
- **يا من حملت على راحتيك مصباح الانجيل الى أقصى الدنيا ·**
- **يا بيت القصيد في ملحمة الكفاح المسيحي الطويل ·**
- **أنت الديباجة المشرقة في سجل التاريخ المسيحي ·**
- **دمت للعلى ، دمت للمجد · دمت للتاريخ ·**

★ ★ ★

هذا الكتاب الذي بين يديك يحوي ترجمة حياة قداسة البطريرك زكا الأول عيواص العطرة المجيدة ، نقدمها لك أنموذجاً من نماذج حياة البطاركة الأنطاكيين · وهو يمثل ١٢١ بطريركاً أنطاكياً سيرة وعلماً ، وادارة ، وجهاداً ، ووطنية · وهو والحالة هذه يشكل جزءاً من تاريخ الكنيسة السريانية بل هو كل تاريخ الكنيسة المعاصر ·

في ١٤ ايلول ١٩٨٠ ، وفي يوم تنصيبه بطريركاً على انطاكية : كانت أفواه المؤمنين ترفع لله آيات الشكر والامتنان ·

الجوقات السريانية تعزف ألحان المجد ·

(مبارك الجالس على الكرسي الرسولي)

الحناجر الآرامية توقع أنشودة الكرامة والبهجة

(هذا هو اليوم الذي عمله الرب)

هتافات أبناء الكنيسة تشق عنان السماء بصوت عال

(مستحق هو خادم الخروف أن يحمل كرامة أنطاكية على منكبيه)

(اجلس على كرسي مار بطرس الرسول بمهابة وجلال)

(أصعد سلم أمجاد السريانية بالخطى القعساء)
(خذ لأمتك مقراً في جوار العلى وارفع من هناك راية للسريان)
(املأ أرجاء الكنيسة أشعة متوهجة من الأمل)

★ ★ ★

عروس المسيح ترتدي حلتها البيضاء الناصعة
وجبينها يبدو بدراً كاملا
وهي من صرح عفتها الطاهر العالي
والكحل في أهداب عينيها يغني :
أنا لحبيبي وحبيبي لي
نرعى في مرج غرام القداسة
نقطف ونأكل من شجرة الحياة
نسعد في طعم القبل ، ليقبلني بقبلات فمه ٠
انه يوم زفاف العروس الأكبر

★ ★ ★

مواكب التاريخ تسير في ربوع الآلام وهي تبتسم
عظام بطاركة أنطاكية تهتز في مثواها طرباً
أرواح الشهداء ترفرف وتصفق بأياد دامية
لغة آرام تفرش بساط العرس بعين دامعة

★ ★ ★

رياح الأجيال مثقلة بغيث من المفاخر
التراث العريق يسكب فيضاً من الجمال
مجامر المعابد تملأ الأجواء بخور شكر
صدى الأيام تردد أهازيج الحضارة
بلابل المعرفة تغرد قصائد وأشعارا ٠

وفي خطابه التاريخي الذي ألقاه في يوم تنصيبه :

كان يغسل قلوب الناس من قذارة الأحقاد ،
ويزيل غبار التجزئة والتباعد ،
ويجمـــع المتفرقـــين ،
ويدخـــل الفرحـــة الى القلـــوب ،
ليستمـــر النبض في العـــروق ،
وتتوجـه الأنظـار نحـو الأمـــل ٠

★ ★ ★

انه البنـّـاء الحكيم يطلب الى أهــل العمــل ،
الضائعـين بــين الأنقــاض ٠
التجمع في ورشـــة الخدمـــة ٠

★ ★ ★

انـــه يدعـــو العنـــادل
لتعـــود الى خمائلهـــا ،
حاملة أغانيهـــا الشجيـــة ٠
انـه يدعـو الذين ضاعت أرقامهـم ،
في سلـسلـة خـدام الكنيسـة ،
أن يـأخـــذوا مكـانهـــم
بمـــا يســـتحقون

★ ★ ★

أعـــاد الذين انتهى رصيـدهـم ،
الـــى الصفـــر ،
في ســجل الحســابــات ،
ليحسـبوا في عـداد الكنيسـة ٠

(كما أرسلني الآب أرسلكم أنـا)
انـه يلقي درسـاً في المسـؤوليـة ،
يعطـي حـديثـاً بالأرقـام ،
يطلـق صيحــة الحــق ،
لا يــريـد أن يحـرث في البحـر ،
لأن خيــوط العنكبوت لا تصلح أن تكون فروة للشــتاء
يــريـد أن ننطلـق من الواقـع ،
ينـادي بالديموقراطيـة للجميـع ،
في ثقـة : حجمهـا حجـم الكـون ·

ستجد في قصة حياته ، سيرة قطب من أقطاب المسيحيــة نظراً لما قــام به من أعمال جبارة في مختلف المجالات ، العمرانية ، والعلمية والادارية ، والوطنيــة ·

ستجده شخصية مسيحية كبرى مليئة بالخير والعطاء ، يحمل باحــدى راحتيه حباً كبيراً لدينه ، وبالأخرى اخلاصاً صادقاً لوطنه العربي ·

قداسته شخصية علمية كبرى ، يتقــن اللغــات السريانية والعربيــة والانكليزية ، يكتب باللغتين السريانية والعربية بأسلوب فخم · يتكلم ويعظ باللغــات الثلاث بطلاقــة ·

قلمه امتداد لأقلام الآباء والأجداد ، معارفه تتضوع بشذا زهور رياض قنسرين حيث أمرعت حضارة آرام في ظل خمائلها · علومــه باقة عطر مــن جنائن الرها ونصيبين قاعدتي الفكر السرياني · يتخطى مع قوافل الفكــر في دروب السريانية · يتمشى مع مواكب المعرفة نحو أمجاد أنطاكية الخالدة ، ويرافق عمالقة آرام الى قمة الحق والذرا والفضيلة ·

له أسلوبه الخاص بسماته البارزة وعلامته الفارقة ، سيما في مقالاته التي نشرها في المجلة البطريركية الدمشقية في عشـرين عاماً حيث نجــده يتلذذ بما يكتب ، وينفعل مع ســير الأحــداث ، تقرأهــا فيرتاح اليها ذهنك وقلبــك معــاً ·

في معظم كتاباته ديباجة صافية رقيقة حلوة ، انشاؤه سلس بشكل عام. في مناشيره البطريركية وعظاته في بعض المناسبات ، حشد كبير من المعـاني الروحية السامية والصور الاجتماعية والواقعية وكلها صادرة عـن قلب صـادق ٠

في عظاته الدينية الصرفة جل همه ايصال الحقائق الروحية الى ذهن المؤمن وقلبه فالمهم في ذلك اتمام هدفه الروحي كما جاء في خطابه التاريخي يوم تنصيبه قوله :

(وفي خدمتي في عهد مطرنتي كان همي ـ كل همي ـ خدمة الانسان والسعي لخلاص النفوس فكنت أفضل تعليم المؤمنـين الصغار الصـلاة الربية على كتابة مجلد في الفلسفة واللاهوت) ٠

وأكـد ذلك في المنشـور الذي أصـدره في ٧/تشـرين الأول/١٩٨٠ حيث قـال :

(جلسنا على الكرسي الرسولي : مار بطرس ، لنرعى خراف المسيح ونعاجه وكباشه بروح الخدمة ، وننهض لخلاص النفوس) ٠

ان قداسته مولع بالكتابة والتأليف ، ونشر تراث الآبـاء ٠ فهو الى جانب أعماله الادارية والرعائية منصرف الى تسطير الروائع ونشر البدائع، وان كتاباته ملأت مساحة كبيرة من حياتنا الدينيـة والأدبية والتاريخيـة ، أغنت المكتبات السريانية والعربية وستقف في مطاوي هـذا الكتاب عـلى نتاجه بشكل مفصل ٠

⋆ ⋆ ⋆

البطريرك زكا الأول يتطلع الى الأمام بابتسامة مضيئة ، ويخطط بأمل مشرق ينطلق من صلابة المبدأ ، ويعمل من عقيدة راسخة ٠

ويدير دفة الكنيسة بأسلوبه الدبلوماسي الخاص ، تجده طوراً هادئاً كالنسيم ، مرناً كل المرونة ولكن بلباقة وبعمق غور الفكر ٠ وأحيانا آخرى تراه عاصفاً ثائراً ولكن برجاحة في كل ميزان ٠ وخير تفسير لما نحن بصدده عبارة يردّدها دائماً / أنا أعني ماذا أقول / وهو في كل الأحوال يتدفق من نبع الاخلاص والمصلحة ٠

ومن أبرز أخلاقه العالية التواضع المقرون بالاباء ، والتسامح المنبثق من قلب أبيض ومن مصدر القوة ٠ ولغته هي لغـة المحبة والتآخي ، وهـو

يخاطب المطارنة جميعا بكلمة ܐܚܘܢܐ (احونو) السريانية التي تعني (يا أخـــي) ٠

طلعته جميلة جداً ، ابتسامته حلوة ، يتحدث بلباقة وذكاء وتتخلـل بعض أحاديثه « نكتة سريعة » لطيفة وطريفة يُفاجأ بها المستمع وكأنهـا من نص الموضوع ٠ يستطيع أن يجعل الكثيرين معجبين به بعد أول لقاء به ٠ محبوب لدى الجميع ٠ له في قلوب الناس على مختلف أنواعهم واتجاهاتهم كل تقدير واحترام واجلال ، لأنه نبيل خلوق طيب المعشر ، كريم ، أنيس ، لطيف ٠

يعمل كثيراً لوجه الله ، بعيداً عن الاعلان وفي غفلة من الأنظار ، نزيهاً عن المنن ، فكم من عائلة فقيرة وجدت في شخصه أباً عطوفاً ٠ وكم من يتيم معدم التجأ الى حنانه فوجده خير نصير ٠ وكم من بائس محتاج جاد عليـه بما يحتاج اليه ، ولا تسأل عن ارتياح قداسته نفسياً لدى اغاثته الملهوف ٠ هذا ما فطر عليه منذ صغره منطلقاً من دينه وانسانيته وتربيتـه ٠

كل شـيء تراه في حياته حسناً جـداً ٠ أمـا أخطـاؤه « فهو لم يشفق على شبابه الغض فقد أهرقه طرياً ، صام للخدمة وهو لا يزال فتى يافعاً ، وصلى للعمل وهو بعد شاب غض الاهاب ، جنى لذة الحياة من كروم الجهاد والأتعاب » ٠ ومن عيوبه « أنه لا يتعبد للمال ولا ينشد الثروة » ٠

ومن أقواله المأثورة :

(اني أفضل تلقين طفل صغير الصلاة الربانية من وضع كتاب في اللاهوت) وأيضاً (أشكر الله ، اني للكنيسة وبفضل الكنيسة بلغت ما أنـا عليه الآن)٠

حفظه الله ذخراً للكنيسة ، وعضداً للوطن ، وفخراً للانسانية ٠

★ ★ ★

زيـارة حاضـرة الفاتيكـان

مـن ١٨ حـزيران ـ ٢١ حـزيران ١٩٨٤

عن كتاب شمعة السريان

قداسة البطريرك زكا الأول عيواص ، رائد من رواد المسكونيات البارزين الذين يشار اليهم بالبنـان · **طلع هـلاله** في الحقل المسكوني مذ كانراهباً في التاسعة والعشرين من عمره وهو يتوجه الى حاضرة الفاتيكان عام ١٩٦٢ ـ وعام ١٩٦٣ ليمثل الكنيسة السريانية الأنطاكية في المجمـع الفاتيكاني الثاني بصفة مـراقب · **وتألق نجمـه** · مشعاً يوم كان مطراناً عضواً في اللجنة المركزية في مجلس الكنائس العالمي ، وعضواً بارزاً يرافق سلفه البطريرك يعقوب الى الفاتيكان عام ١٩٧١ · واليوم يبدو قداسته « **بـدراً كامـلا** » في هذا الحقل الواسع ، فهو يسير بخطى واقعية ايجابية ، كبطريرك أنطاكية ، في عام ١٩٨٢ كان في زيـارة كل من كنيستي موسـكو وأرمينيا الأرثوذكسيتين والآن آن الأوان لينطلق بطريرك أنطاكية العظيم الى الفاتيكان ·

انه البطريرك زكا الأول ، خليفة البطريرك الأنطاكي مار أثناسيوس الجمال ٥٩٥ ـ ٦٣١ الذي لبث في مدينة منبج اثني عشـر يومـاً يصحبـه اثنا عشر مطراناً وكلهم من جهابذة الأرثوذكسية ، يفاوض هرقل ويناقش في أمر الاتحاد وكان التصريح الذي أدلى به أثناسيوس وصحبه (انـه اذا اصطلحت هذه الأمور ـ ما يخص الايمان ـ ليس ما يمنعهم من الذهاب الى بيت الرب والتمتع معاً بالفرح الروحي · بل اذا اتفق الفريقان على نص موحَّد للايمان عندئذ يفكرون في أمر الأسماء والأشخاص المشكوك فيهم لما فيه ثبات الكنيسة ووحدتها) ·

انه خليفة البطريرك يوحنا بن عبـدون ١٠٠٤ ـ ١٠٣٣ م الذي جرى له ما جرى مع نيقافور في ملطية ، وقصد القسطنطينية يرافقه ستة أساقفة وعشرون راهباً ، كي يبحث أمر الاتحاد أيضاً ·

والذي يتتبع ماجريات تاريخنا السرياني الكنسي يجد أن آباءنا القديسين بذلوا كل ما وسعهم للقضاء على الشقاق المسيحي ، وتذويب الخلافات وان التجزئة والانشقاق والفرقة تعتبر جميعها في نظرهم خروجاً عن روح الانجيل القائل « **ليكونوا واحداً كما نحن واحد** » •

قداسة البطريرك في احدى المناسبات ألقى كلمة جاء فيها :

« ان انقسام الكنيسة يعتبر خطيئة بحسب عقيدة القديس يوحنا فم الذهب • واذا كان انقسام الكنيسة خطيئة فوحدتها فضيلة ، واذا كان الانقسام بعداً عن الله فمن يسعى الى وحدة الكنيسة يحاول أن يكون قريباً من الله » •

الجالس على عرش بطرس الرسول
عرش أنطاكية المئناف الذي لا يرضى بالذل والاستسلام
ويأبى الخنوع والركوع
انه كرسي الكرامة
لا يدخل الا من باب العزة والكرامة
ولا يحني لغير حق الانجيل هامة
يحمل قلباً مليئاً بالتسامح
يرفض كل أنواع الحقد والبغضاء
منفتح على كل حركة مسكونية مخلصة
يمدّ يد التعاون الى جميع الكنائس التي تنشد الوحدة والمحبة والاخاء.
انه النبع الخيِّر الذي تتدفَّق منه كل محاسن الفضائل الانجيلية
وفيه صبَّت كل مفاتن المسيحية
انه دائماً مصدر عطاء ، ويعطي باستمرار
همّه تمجيد اسم المسيح لا تمجيد ذاته •
« ليحيا المسيح لا أنا »

في تشرين الأول ١٩٧١ كان لقاء تاريخي بين قداسة البابا بولس السادس وقداسة أغناطيوس يعقوب الثالث في حاضرة الفاتيكان · وأصدر الجانبان بياناً مشتركاً ·

وفي أيار ١٩٨٠ كان لقاء ثان بين قداسة البابا يوحنا بولس الثاني وقداسة أغناطيوس يعقوب الثالث في حاضرة الفاتيكان · وكان دعماً للقاء الأول ·

البطريرك يعقوب مع أخيه البابا بولس السادس . كانا يلقيان بذار الوحدة والمحبة والتفاهم ··· والبطريرك يعقوب مع أخيه البابا يوحنا بولس الثاني كانا يسقيان تلك البذار ···

والآن يحصل لقاء ثالث ما بين قداسة البطريرك الأنطاكي زكا الأول وقداسة البابا الروماني يوحنا بولس الثاني ، للحصاد ، للقطف ، للجني ·

* * *

□ مقدمة :

كتاب الزيارة الرسولية لأبرشية الجزيرة والفرات

حدث خطير

تنصيب مار اغناطيوس زكا الأول بطريركاً

قبيل منتصف هذا القرن ، تطلعت الكنيسة السريانية الى « زكا » فتى من فتيان مدينة الموصل الحدباء المدرسة الفكرية ومحط رجال العلم والمعرفة ، فتوسمت به خيراً وأخذت تعقد عليه الآمال ، منذ نعومة أظفاره يتغنى بالحب والجمال والحق ، ويستقبل الحياة جهاداً وتضحية ، لمستْ في خفقات قلبه ميلا شديداً لخدمة المسيح ، ورأت في أشواق روحه شغفاً للتفاني والذوبان في سبيل الانسان ٠ ففتحت ذراعيها لتحتضنه بطريركاً لها ٠ ولا غرو فان الغرباء أيضاً توسموا فيه خيراً ، وهذا هو الشاعر الأستاذ أحمد محمد المختار ـ بعد اطلاعه على نماذج من أشعاره : وهو لم يزل طالباً في المدرسة الاكليريكية الأفرامية في الموصل يقول فيه :

شاعر الدير يا خير الصحاب	فيك طاب المدح يا صاح وطاب
أنت للشعر شعور صادق	أنت شيخ يا فع غض الاهاب
أنت في الدير سناء وهدى	ومنار يهتدي فيه الصحاب

ينحدر البطريرك العظيم مار أغناطيوس زكا الأول عيواص من قمة شامخة ، وينطلق من قاعدة صلبة ، ويجول في أجواء النسور العالية ، ينتظم في سلسلة أرباب الفكر والدراسات ، فيه ملامح بارزة من تواضع مار أثناسيوس الجمّال ، وبينه وبين مار ديونيسيوس التلمحري أواصر دهاء وحنكة ، يهدر لسانه بفصاحة مار سويريوس ، يخاطب أقوى الرجال بلهجة الذهبي الفم ، يتلقى الضربات بعزم رسول الأمم ٠ لم يحرمه الله من حلاوة لسعات الألسنة ، وحظي بفترة عيش ذهبية مليئة بالمنغّصات العذبة ، بالرغم من هذا كله لم يتردد في النزول من قمته ، بل ظل يتمرس بقيادة مسيرة الاصلاح بأنفة واباء ، وكان وراء ذلك كله عقلية نيرة رائدة ، والتزام شديد بجدية الحياة الكهنوتية ، وبعُد صيتُه في الأوساط السريانية كافة ،

وعبرت شهرته المحيط ، وهو في غمرة نشاطاته في الكتابة والعمل والمسكونيات انتزعته أيدي السريان أكليروساً وشعباً من قمة الشهرة ومن ذرى الكفاءة الى « بطريركية أنطاكية وسائر المشرق » وهكذاً دخل التاريخ بشكل جديد وأصبح جزءاً منه كان ذلك في يوم حافل في ١٤/٩/١٩٨٠ ·

★ ★ ★

الزيارات الرسولية جزء هام من التاريخ الكنسي :

من الثابت كتابياً أن الزيارة التي يقوم بها البطاركة لشعبهم هي جزء هام من التاريخ الكنسي ، والجانب المضيء من أعمال بطاركة أنطاكية، والمقياس الحقيقي لتجسيد أبعاد جهادهم في سبيل الخدمة وتحسسهم بأحاسيس شعبهم ·

يعلمنا الكتاب المقدس ، أن الصلة ما بين رئيس الكنيسة والكنيسة تتم بطريقتين ، الأولى الكتابة اليهم في المناسبات المطلوبة وهي التي تستخدم وتمارس اليوم في الكنيسة السريانية عن طريق كتابة المناشير البطريركية ، والثانية التوجه اليهم شخصياً لتفقد شؤونهم ، والوقوف على حياتهم الروحية ، والاطلاع على أوضاعهم الاجتماعية والكنسية ، والطريقتان تهدفان الى غاية واحدة شخَّصها الرسول بولس وسماها « **هبة روحية** » رو ١ : ٩ ـ ١١ أو « **بركة انجيل المسيح** » ١ كو ١٦ وقد تكون تلك الهبة وتلك البركة وعظاً وتوجيهاً ، ونصحاً ، وتعليماً ، وتوبيخاً · والرسول الحبيب يوحنا يفضل أستخدام الطريقة الثانية على الأولى أي التوجه شخصياً دون الكتابة كقوله « اذ كان لي كثير لأكتب اليكم لم أرد أن يكون بورق وحبر لأني أرجو أن آتي اليكم وأتكلم فماً لفم لكي يكون فرحنا كاملا » ٢ يو ١٢ ، وكذلك ٣ يو ١٣ و ١٤ ·

الزيارة الرسولية الى أبرشية الجزيرة والفرات :

قام قداسة سيدنا البطريرك المعظم مار أغناطيوس زكا الأول بزيارة لأبرشية الجزيرة والفرات في ١٤ آذار ١٩٨١ واستغرقت أسبوعين كاملين · وهي أول زيارة يقوم بها قداسته وآثر أن تكون باكورة زياراته الرسولية الى أنحاء العالم ، زيارة هذه الأبرشية لما لها في قلبه الأبوي من مكانة خاصة ولما لنيافة الحبر الجليل مار أوسطاثاوس قرياقس مطران الأبرشية من محبة واكرام واحترام ، هذا ما قاله قداسته وأعلنه أمام الجماهير الحاشدة في احدى خطبه ·

بين يديّ تفاصيل هذه الزيارة التاريخية سجلها نيافة الحبر الجليل مار ثاوفيلس جورج صليبامطران جبل لبنان الذي والمطرانمار ديونيسيوس جرجس بهنام قد رافقا قداسته فيها ٠

الأب يلتقي بأبنائه :

كانت الفترة الواقعة ما بين ١٤ ـ ٢٨ آذار التي عاش قداسته أيامها ولياليها ، دقائقها وثوانيها في ربوع الجزيرة حلماً جميلا عذباً ، كانت عيداً حافلا ، وكانت مهرجاناً ٠ لقد احتشد السريان رجالا ونساءً ، شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً في لقاء قداسته ، وتحوّل كل شيء في ذلك اللقاء الى فيضٍ من الحب والألفة والسعادة ٠

عندما تبدأ أسراب الفراشات الطيران برشاقة ، وعندما تكون قطرات الندى لا تزال غافية على أوراق الزهور ، يتضوع عطر قداسته في كل أرجاء الكنائس ٠٠ يستيقظ باكراً ، يدخل الكنيسة ، يسكب قلبه أمام الله ٠٠٠ يعتلي المذبح ، يقوم باقامة الذبيحة الالهية ، ثم يعظهم فيعلمهم محبة الوطن قائلا « **وطننا عزيزاً جداً وأرضنا غالية ونحن لا نرضى عنها بديلا ، لنقتدي بالآباء والأجداد الذين احتفظوا بأوطانهم وسفكوا دماءهم في سبيل ذلك** » ٠

وبعد أن ينتهي قداسته من صلاته ووعظه ، يستقبل أبناءه القادمين من القرى والأرياف ، وكما تثير زهور الربيع في القلوب البهجة برونقها وجمالها ، كذلك تمنح طلعة قداسته السرور والسعادة والبهجة ٠

كنت تشاهد دموع الفرح تترقرق في العيون ، وترتسم على الشفاه الابتسامة الحلوة ، تشع البسمات في الوجوه ، تتناثر الأغاني العذبة ، تصدح الحناجر بالهتاف للبطريرك العظيم ٠ الشعب في بهجة ، أمجاد أنطاكية تعتلي هامة التاريخ ، وقمر السريان يتألق ٠

قداسة البطريرك العلامة ينتصب بين تلك الجموع الغفيرة مهيباً كالمعتاد ، شاخصاً ببصره الى العيون التي احتضنته ، فاتحاً قلبه وجوانحه ، ليستوعب الكلمات التي تنساب بين دقيقة وأخرى ٠ يتحسس الكلمة تلو الكلمة ، يتطلع الى تلك الوجوه الصادقة المشرقة فيزداد تفاؤلا بآمال الكنيسة وأهدافها فيقول لهم « **اني أرى في وجوهكم مستقبلا باهراً ، قد كبرت آمالي برؤيتكم ، وتجسمت هذه الآمال عندما تضم الكنيسة حقاً مستقبلا باهراً بوجود شباب وشابات أمثالكم** » ٠

في هذه اللقاءات الصميمية بين الأب وأبنائه ، بين البطريرك وشعبه ، سمة متميزة لآباء الكنيسة منذ فجر التاريخ ، فهم لا يبغون وراء هذه اللقاءات أغراضاً مظهرية ولا تقاليد موسمية ، قداسته يعلن لهم صراحة « **انه لشرف لي أن أصبح بطريركاً لهذا الشعب وقد تحملت المسؤولية لا للرئاسة بل للخدمة لا لارضاء الذات بل لخدمة الانجيل واللغة والتراث من أجل رفع شأن السريان ولكي تحتل الكنيسة موقعها اللائق بها على الساحة المسيحية اطلاقاً** » ٠

يا لهذا القلب الأبوي الكبير الذي يحتوي الكنيسة مثلما يحتوي همومها وقضاياها ٠٠٠ يا لهذا القلب الكبير الذي ينبض حباً لتراث الأجداد المجيد ٠

يتحث قداسته في كل لقاء ٠٠ يبتدىء يتغنى بأمجاد الكنيسة وزهوها بقلب ثابت ورؤية ثاقبة يقول لهم « **آباؤنا السريان أول من حمل بشارة الانجيل في ربوع الجزيرة وانطلقوا حاملين هذا الاشعاع لينيروا العالم بنور المسيح ، فنحن للانجيل ، وقد حملنا الانجيل ، وفسرّنا الانجيل ، وترجمنا الانجيل ، ولا تزال حتى الآن جامعات العالم اللاهوتية تنهل من ينابيع آبائنا السريانيين** » ٠ وهكذا يشعر السامع بنشوة ويعتز بكنيسته ، **لأن** تاريخ أجداده تاريخ حافل وخالد بالقيم والأمجاد ، عيون الشباب تمتد مسافات لترى المستقبل المنشود ، وتتطلع بثقة ، وتتألق بالايمان ٠ يتحدث قداسته عن اللغة السريانية ويقول لهم « **تمسكوا باللغة السريانية ، لغتنا الطقسية ، لغة المسيح** » ٠ أجل تنساب كلماته كلمة اثر كلمة نابعة من أعماق القلب ، لتدخل القلوب ، قلوب أبناء الشعب السرياني ، لتستقر في الأعماق ٠ ينطلق صوت قداسته مشيداً بالحضارة والتراث ، فيزداد السامع رجولة ويمتلىء عزماً ويستبشر بانبثاق فجر الأمنيات وفي أحاديثقداسته الأخيرة يؤكد على الوحدة الوطنية والوحدة المسيحية ، مستخلصاً بنتيجة أخيرة حقيقة يجب أن تعلن : ان أبرشية الجزيرة تحمل الراية في الصفوف الأمامية بين أبناء الكنيسة السريانية بقيادة راعيها الجليل مار أوسطاثاوس قرياقس الذي خلع عليه قداسته اللقب اللائق به اذ سمّاه « حكيم السريان ». والحق يقال اذا أردنا أن نستحضر مثالا لشخصية دينية تجمع بين العمل المنتج البنّاء ، والجهاد الصامت الخفي ، والارادة الحازمة القوية ، والحكمة في تصريف الأمور فمار أوسطاثاوس قرياقس مطران الجزيرة والفرات خير الأمثلة ٠ فان شهرته في ذلك أشهر من نار على علم ، وان اسمه الكريم ملأ أرجاء الكنيسة السريانية ٠ وهو في تقدير أهل الجزيرة ليس وقفاً على السريان فحسب . ولا هو لفئة من الناس دون غيرها ، انه للكل للمسلمين

والمسيحيين ، للعرب والأكراد · هو الشخص الذي يرجع اليه ويستشار بآرائه كلما ظهرت آثار السحب الداكنة في أفق الاطمئنان والهدوء يسعى لجمع الكل تحت ظلال المحبة وفي أفياء الأخوة ، والتلاقي في ساحة التفاهم · أذكر قولا طريفاً للمرحوم الدكتور بولس طويل « المطران قرياقس هو الشخص الذي لا تستغني عنه الجزيرة أربعاً وعشرين ساعة » ·

والكلمة التي أود أن أختم فيها هذه المقالة المتواضعة · ان قداسة سيدنا البطريرك في حفلة تنصيبه كان قد ألقى كلمة بليغة قيِّمة صارت مرجعاً تاريخياً يستتشهد بمحتوياتها كلما اقتضت المناسبة ولزم الأمر ·

كان قد وصف الشعب السرياني بالأصالة ، والتحلي بروح الايمان، ورأى فيه شعباً طيباً كريماً سخياً يخلص الود لوطنه ، قال ذلك نتيجة تفاعله معه واتصالاته به في كل مكان مؤكداً القول « **ما أسعدني أن أكون أباً لهذا الشعب** » ·

ترى لنطرح السؤال على قداسته : انه بعد زيارته لأبرشية الجزيرة والفرات والوقوف على نشاطات أبناء هذه الأبرشية ، وتلمسه ايمانهم المتين ، وتمسكهم الشديد بالكنيسة ترى ماذا سيقول ؟ وأية مشاعر جديدة تستولي عليه ، حقاً سيقول « لم آت لأخدم هذا الشعب فحسب بل لأموت من أجل هذا الشعب » اقتداء بقول الرسول بولس « اني مستعد ليس أن أربط فقط بل أن أموت أيضاً في اورشليم لأجل اسم الرب يسوع » أع ٢١ : ١٣ ·

★ ★ ★

□ **في ضوء خطاب قداسة البطريرك :**

– ١ –

الاصـــلاح

« الســـــيرة الصـــالحـــة »

تضمن الخطاب التاريخي القيِّم الذي ارتجله قداسة البطريرك زكا الأول في حفلة تنصيبه بطريركاً للكنيسة السريانية الأنطاكية في ١٤/٩/١٩٨٠ منهجه الرسولي في العمل الكنسي ، وسياسته الرعائية في خدمة الشعب السرياني ، كما أعطى مؤشرات واضحة على سيره في الخط العربي التحرري ، وحدَّد علاقاته التعاونية والودية مع كافة الفئات في المجتمع . وكما قال أحدهم : كأني بقداسته يجيب عن أسئلة كثيرة كانت تراودنا منذ أمد بعيد ، ويبدي استعداده لتجسيد رغباتنا وطموحاتنا طالما كنا نحلم بها في الماضي . وقد صار خطابه ذلك وحتى اليوم حديثاً دائراً في صفوف الملة وعلى صعيد تنظيماتها من مجالس ملِّية ، وجمعيات ، ونوادٍ . والجميع يتوسمون فيه شيئاً كبيراً في المستقبل .

نقتطف من ذلك الخطاب المهم ، الفقرة التي جعلناها عنواناً لحديثنا مع القارىء في موضوع الاصلاح وهي « **أحافظ على السـيرة الصالحـة** » .

الحديث عن الاصلاح والمصلحين مهما كان نوع ذلك الاصلاح في مجال الدينيات أو الاجتماعيات، وفي أي حجم يطرح في الجزئيات أو الكليات، وأية فئة يتناول أفراداً أو جماعات ، كثيراً أو قليلا . والخوض فيه ليس هيناً ، وأبوابه واسعة جداً . فالاصلاح كلمة واسعة المعنى تتناول أوجهاً عديدة ، وان حركة الاصلاح سواء اقتصرت على التغييرات في مرافق الحياة، أم انحصرت في اجراء تعديلات ، أم تعدت الى خلق ابتكار ، كل ذلك يستلزم دراسات وافية . ونحن هنا في هذا الحديث نركِّز فقط على عبارة « **السيرة الصالحة** » ونترك الأمور الأخرى الى أحاديث قادمة .

من الثابت أن المصلحين هم الذين نذروا أنفسهم من أجل خدمة مجتمعهم ومستقبل أمتهم ، فعلاقتهم بالجماهير والحالة هذه تكون مباشرة ، والمسافات بين الطرفين تكون مختصرة جداً ، فهم يمدون يدهم لكل الشعب ، ويفتحون

قلوبهم لكل الجماهير ، وبذلك يزرعون البسمة في الوجوه ، والآمال في القلوب ٠

ان الصفة الأولى والأساسية التي يجب أن تتوفر في المصلحين وفي من يتزعمون حركات الاصلاح أن يتحلّوا قبل كل شيء « **بالسيرة الصالحة** » ويحوزوا على ثقة الناس من خلال سلوكيتهم وخلقهم ٠

يسوع المسيح المصلح الأكبر هو المثل الأعلى الذي يجب أن يضعه المصلحون قِبلة أنظارهم ، والقدوة الكبرى لقادة المجتمع البشري ٠ حيث كانت « السيرة الصالحة » بما تنطوي عليه من مكارم الأخلاق ، والصدق ، والأمانة ، الصفة البارزة في حياته كمصلحٍ قيادي ٠

أجل جاء يسوع المسيح الى العالم ليخلص شعبه من خطاياهم (مت ١ : ٢١) دون أن يوجد فيه خطية ، فلو وجد فيه خطية لما تمكن من أن يؤدي رسالة الفداء ٠ ولكنه كان واثقاً من نفسه أنه بلا خطية ٠ « من منكم يبكتني عن خطية » يو ٨ : ٤٦ « الذي لم يوجد في فمه غش » اش ٥٣ : ٩، غلاماً زكياً (سورة مريم ١٨) ومباركاً (سورة مريم ٣٠) ٠

كان المجتمع الذي جاء يسوع لاصلاحه وانتشاله من الفساد مزيجاً من عناصر متباينة وعلى كافة الصُعُد اجتماعياً وخلقياً ودينياً ، فيه الروماني ذو السيادة والقوة ، وفيه اليوناني صاحب الفكر والمنطق ، والى جانب هذا وذاك اليهودي المنحط المهان ، والجميع « أخطأوا » فكان هذا المجتمع بأكمله تعباً منهوكاً ، مضطرباً ، فشا فيه الفساد وصار فريسة للمنكرات وقد وصفه الرسول بولس وصفاً دقيقاً في رسالته الى أهل روما الاصحاحات ١ ـ ٤ ٠

عالج يسوع أمراض هذا المجتمع بالسيرة الصالحة « **هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماء** » **مت ٥ : ١٦** وقد حذّر في تعاليمه الانجيلية ذوي السيرة السيئة من تبني قيادة المجتمع والنزول الى ميدان الاصلاح عندما قال « يا مرائي : لماذا تنظر الى القذى الذي في عين أخيك ٠٠٠ ولا تنظر الى الخشبة في عينك » مت ٧ : ٣ ـ ٥ اذاً فالأعوج لا يستطيع تقويم المعوج ٠ وكان يوبخ الكتبة والفريسيين أيضاً عندما قال لهم : « تحملون أثقالاً ثقيلة للناس وداخلكم فساد وشرور » لو ١١ : ٤٦ اذاً ليبدأ الانسان باصلاح ذاته ثم واصلاح غيره ٠

هذا هو المنطلق لحركة الاصلاح ، فكأن قداسة سيدنا البطريرك مار أغناطيوس زكا الأول ، بثاقب بصيرته ، وعمق ايمانه برسالته ، واستيعابه التام للعمل الذي جاء من أجله قد أعطى في خطابه التاريخي مؤشراً الى هذا عندما أعلن أمام الجماهير « **أحافظ على السيرة الصالحة** ».

ونحن مطمئنون تماماً أن قداسته سيكون قادراً على اصلاح المجتمع الكنسي لأنه يتحلى بسيرة صالحة ، ويتخذ من السيد المسيح مثالاً أسمى لتأدية رسالته في رعيته ·

سمعنا أحدهم يقول مرة لقداسته : نريدك يا سيدنا أن تمشي في خط أسلافك البطاركة المرحومين : أجاب قداسته على الفور : الخط واحد هو خط المسيح ويفترض بنا جميعاً أن نسير في هذا الخط وفي هذا الاتجاه ·

وقد أحسنت الكنيسة صنعاً وعملاً عندما صاغت قوانينها فيما يخص الشروط التي يجب أن تتوفر في أعضاء المجالس الملية ، والذين يقدمون أنفسهم لخدمة بيعة الله ، في مقدمة تلك الشروط أن يكون « مشهوداً له بحسن السيرة » هذه الصفة التي تعد الركيزة في الاصلاح والمصلحين ·

ـ ٢ ـ

ممارسة الديموقراطية في الكنيسة

كان اختيار نيافة الحبر الجليل مار سويريوس زكا الأول عيواص مطران بغداد والبصرة بطريركاً للكرسي الرسولي الأنطاكي ، ورئيساً أعلى للكنيسة السريانية في العالم حصيلة كفاءة تامة ولم يأت وليد ظروف معينة · كذلك وكل فقرة من فقرات خطابه التاريخي الهام لم تطرح جزافاً واعتباطاً ، ولم يلق الكلام على عواهنه ، انما أعلن كل كبيرة وصغيرة أمام السريان نتيجة دراسة عميقة ، ونضوج فكري تام ، وعلى أثر مروره بتجارب اختبارية شاقة · قال صراحة وبجرأة « سأعيد الى الكنيسة ديموقراطيتها » ·

من لا يملك في شخصه قدرة القيادة العالية ، والكفاءة التامة ، والقابلية الكاملة ، ليس بمقدوره طرح شعار كهذا ·

اليوم لا ينطلي على الناس طرح الشعارات المزيفة من قبل رجال الأكليروس ، ولا يجديهم التلون نفعاً ، ومضى وقت اللف والدوران ، فقد

أصبح رجال الأكليروس يخضعون لامتحان عسير من قبل عناصر في الكنيسة تمتلك قدراً عالياً من الوعي والادراك بحيث يصعب على الأكليروس أن يفلتوا من مواجهتهم ، كل ذلك يستوعبه قداسته بالكامل ٠

الديموقراطية ، والكتاب المقدس :

الديموقراطية خط الهي رسمه الكتاب المقدس بعهديه ، وأعلنه صراحة بالمفهوم والسلوك ، فهو يعطي للفرد قيمته وكرامته ٠ ما أجمل قول السيد المسيح عندما قال لتلاميذه « لا أسميكم عبيداً بل أحباء ، لأن العبد لا يعلم ما يفعل سيده » والذي يطالع الكتاب المقدس بدقة وامعان يدرك بسهولة كيف أنه يفسح المجال أمام الانسان ليفكر ويعبر عن آرائه بحرية واستقلالية في مختلف المجالات، ويحل مشاكله باجتهاده الشخصي٠ فلم يكن الوحي يتداخل في أموره كي يجعله في يده آلة صماء ٠٠

لو استعرضنا بعض الأحداث الكتابية لرأينا كيف يتعزز سلطان العقل والعلم ، وكيف تتجلى في مضامينه حرية الرأي ٠

حادث من العهد القديم : جاء في سفر العدد ص ١١ ، عدد١٦ـ٢٩ « فقال الرب لموسى اجمع الي سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل ٠٠ وأقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ٠٠٠ وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمل أنت وحدك ٠٠ فخرج موسى وجمع سبعين رجلا ٠٠ فنزل الرب في سحابة وتكلم معه وأخذ من الروح الذي عليه وجعل على سبعين رجلا الشيوخ ٠ فلما حلت عليهم الروح تنبأوا ٠٠٠ وبقي رجلان في المحلة اسم الواحد الداد واسم الآخر ميداد فحلَّ عليهما الروح وكانا من المكتوبين لكنهما لم يخرجا الى الخيمة ٠ فتنبأا في المحلة » ٠

تبصر أيها القارىء جيداً : أن النبي موسى قد واجه مشكلة عندما تلقى أمراً باختيار سبعين شخصاً ــ لا شك أن علم الله يحيط بكل كبيرة وصغيرة ، غير أن لله في الأمر حكمة ــ ان الله أمر موسى باختيار سبعين شخصاً ، وبما أن الشعب الاسرائيلي كان يؤلف اثني عشر سبطاً ، ولكي يوازن موسى بين الأسباط ، ويقيم العدل بينهم ، ويصون مجتمعهم من الاضطراب ، اجتهد برأيه ، وحكَّم عقله فخالف ظاهر النص الالهي فاختار اثنين وسبعين بدلا من سبعين ، أي من كل سبط ستة أشخاص ، فلم يكن يرضى أي سبط أن ينتخب منه خمسة ومن غيره ستة ٠

ان الله بارك هذا الاجراء الذي اتخذه موسى بحكمته واجتهاده الشخصي · فحل الروح على الاثنين الآخرين ألداد وميداد ·

حادث من العهد الجديد : جاء في متى ص ١٥ ، عدد ٢١ـ٢٨ « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحي صور وصيداء ـ واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود ، ابنتي مجنونة جداً ·· فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنِّي ـ فأجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب · فقالت نعم يا سيد ، والكلاب أيضاً تأكل من الفُتات الذي يسقط من مائدة أربابها ـ حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم ايمانك ـ ليكن لك كما تريدين ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » ·

لاحظ أيها القارىء الكريم هذا الحوار الطريف الذي جرى بين المسيح والمرأة ، والذي اتسم بطابع من ابداء الرأي بحرية تامة · قال المسيح « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب » ، فأخذت المرأة تستخدم حريتها ، وتعبِّر عن رأيها ، وتدخل مع المسيح في نقاش ، أجابت « نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفُتات الذي يسقط من مائدة أربابها » وكانت النتيجة أن عدل المسيح عن رأيه ان صح التعبير ، وتمسك برأي المرأة ، وقيَّم مقدرتها الفكرية ، « يا امرأة عظيم ايمانك ليكن لك كما تريدين » ·

حادث من التاريخ الكنسي : بعد ارتفاع السيد المسيح الى السماء، أخذ التلاميذ ينشرون الدعوة الى الايمان بالانجيل في أول الأمرفي فلسطين بين اليهود ، وسمِّي الذين قبلوا الدعوة منهم « نصارى » ولما امتدت الدعوة الى خارج فلسطين وشملت الأمم الوثنية في سائر الأقطار ، سمِّي الذين قبلوا الدعوة منهم « مسيحيين » أ ع ١١ : ٢٧ · وكان اليهود المتنصرون « النصارى » وحتى بعد قبولهم الانجيل لا يزالون يمارسون الشريعة الموسوية ويحافظون على عادات اليهودية ، ويتمسكون بتقاليد الناموس ويتولى قيادتهم يعقوب أخو الرب وحازبهم أحياناً بطرس هامة الرسل · أما الأمم الوثنية التي قبلت الانجيل فكانت تتمسك بمعطيات الانجيل فقط نابذة كل تقليد يهودي وعادة موسوية ويتولى قيادة هذه الفئة الرسول بولس يعاونه برنابا ·

ونتيجة لذلك ، نرى انقساماً يحدث في الكنيسة الأولى وانشقاقاً خطيراً يظهر بين صفوف أتباع المسيح يسوع مما أدى الى صراعواشتداد النزاع الأمر الذي من أجله انعقد أول مؤتمر في تاريخ الكنيسة المسيحية

في أورشليم عام ٥١ م – (أ ع ص ١٥) والذي يطالع الاصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال والمتضمن خبر انعقاد المؤتمر الأورشليمي يلاحظ تجلي الروح الديموقراطية فيه بشكل واضح وثابت كما يلي :

آ – كان كل عضو في المؤتمر يعبِّر عن رأيه الشخصي بحرية تامة ·

ب – دار في جلسات المؤتمر مباحثات كثيرة ونقاشات طويلة ولم يكن هنالك استبداد بالأمور ، ولا فرض رأي على الآخر ·

ج – تم كل ما جرى من نقاش وبحث في جلسات علنية وعلى مسمع من الجماهير ·

د – خرج المؤتمر بمقررات اتفق عليها الجميع ، الرسل والمشايخ وكل أبناء الكنيسة ووجهت ليس لشخص واحد ، ولا لفئة معينة ، بل « للاخوة جميعاً » ·

والى جانب ما حدث في المؤتمر نرى حدثاً آخر يليه بمدة قصيرة جداً – لقد وجد بطرس هامة الرسل في أنطاكية وكان يبتعد أحياناً عن مخالطة أتباع المسيح من الأمم خوفاً من أهل الختان المتنصرين ، وكان يحذو حذوهم في ممارساتهم · فنرى الرسول بولس يوبخه بعنف ومواجهة وأمام كثيرين بقوله : « فلما رأيت (بولس المتحدث) أنهم لا يسلكون (أي بطرس وجماعته) باستقامة حسب حق الانجيل قلت لبطرس قدام الجميع ان كنت وأنت اليهودي تعيش أممياً لا يهودياً ، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا « غلا ٢ : ١٤ » فلاحظ أيها القارىء كيف أن بولس يوبخ رئيس الكنيسة بالذات بطرس الرسول لانحرافه ·

أرأيت اذاً كيف أن هذه الأحداث المستقاة من الكتاب المقدس تحمل في مطاويها أعمق معاني الحياة الديموقراطية ، وأبرز مظاهر التفكير الحر ·؟!

اذاً على ضوء معطيات الوحي ، وبناء على توجيهات قداسة سيدنا البطريرك ، نسعى جميعاً لتعزيز الحياة الديموقراطية في الكنيسة ممثلة بتنظيماتها الملية من مجالس ، وجمعيات ، ولجان · نحن لا نريد من هذه المنظمات أن تكون هيئات روتينية ، ونعيش على أفكار الأقدمين ، نطلب من أعضائها أن يتكلموا ، ويقترحوا ، ويبدوا آراءهم عن معرفة ، ويناقشوا عن فهم وادراك لحاجات الكنيسة ·

ان قداسة سيدنا البطريرك حر بتفكيره ، ومصر على ممارسةالحياة الديموقراطية في المجتمع الكنسي مع حرصه الشديد على كرامة الرئاسة العليا وهيبتها ، والاحتفاظ بحقوق وصلاحيات البطريرك كرئيس أعلى للاكليروس مطارنة وكهنة ، وللشعب قاطبة ٠ وان مبادراتـه العديدة والرائدة تفتح البـاب تلو الآخر لأبناء الكنيسـة كي يفصحوا عما في خواطرهم من فكر وعقيدة ٠

اذا ما سرنا في الخط الديموقراطي ، فان البناء يرتفع ، وترتفع معه العزيمة ، وتتفجر العطاءات ، ونحصل على النتائج ونحقق فوزاً للانجيل وانتصاراً لكلمة الله ٠

★ ★ ★

نقــــد

كتــب دينيــة تاريخيــة

١ ـ سيرة مار افرام السرياني :

تأليف قداسة البطريرك أغناطيوس زكا الأول . المجلة البطريركية مج ٢٢ السنة ١٩٨٤ العدد ٣٥ ص ٣٠٧ ـ ٣١٠ .

٢ ـ عِبر في سيَرٍ :

تأليف نيافة مار اثناسيوس افرام برصوم مطران بيروت وزحلة . المجلة البطريركية مج ٢ السنة ١٩٦٤ العدد ١٥ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨

٣ ـ تاريخ أبرشية الموصل السريانية :

تأليف نيافة مار غريغوريوس صليبا مطران الموصل . المجلة البطريركية مج ٢٣ السنة ١٩٨٥ العدد ٤٢ ص ٨٣ ـ ٩٢ .

★ ★ ★

سيرة مار أفرام السرياني

كثيراً ما تكون العناوين التي تحملها بعض الكتب الهامة تتجاوز المضمون الظاهر ، فتتناول مجالات واسعة عديدة ، وتأخذ أبعاداً أخرى مختلفة لها شأنها وحجمها ، فتصبح كالمرآة الصافية تنعكس عليها أحداث وأحداث ، وبالتالي تشكل جانباً مضيئاً من جوانب تاريخ البشرية الحضاري ، ويكون عنوان الكتاب والحالة هذه مقيِّماً لهذا النوع من التاريخ الحضاري ، ومشخصاً مكانة القوم الذي صنع ذلك التاريخ ، ومشيداً بفضل وعبقرية الانسان الذي يحمل الكتاب اسمه الجديد ٠

والكتاب النفيس « **سيرة مار افرام السرياني** » الذي أتحفنا به قداسة سيدنا الحبر الأعظم العلامة مار اغناطيوس **زكا الأول عيواص** بطريرك انطاكية وسائر المشرق ، ولئن يحمل عنوان رجل عظيم من رجالات الكنيسة المسيحية عامة والسريانية خاصة ، فهو لا ينحصر في شخصية مار افرام السرياني كفرد انما يتعدى ذلك الى أمور عظيمة ذات شأن كبير في تاريخ الحضارة السريانية ديناً وأدباً وروحانية ٠ ولمن يرغب في الوقوف على ذلك أن يحصل على نسخة من هذا الكتاب ويقرأه بدقة وامعان ، ونأمل أنه سيحصل على الشيء الكثير والنفيس ٠

يقع الكتاب في ١٠٢ صفحة ، قطع وسط ، وطباعة أنيقة ، وبغلاف فيه بصمات من الفن الرفيع ، من تصميم الأستاذ أكرم أفدار ، يوحي المعنى الصحيح الذي يحتويه لقب مار أفرام « **شمس السريان** » ٠ وكان قداسة المؤلف قد أصدر كتابه هذا في بغداد عام ١٩٧٤ وبمناسبة مهرجان افرام حنين ـ بغداد ٤ ـ ٧ شباط ١٩٧٤ ٠

يتصدر الكتاب « **افتتاحية** » هي قطعة أدبية رائعة ، يتفاعل حب مار أفرام وكنيسته في قلب المؤلف ،فيضطرم حماسة وغيرة ، وتتفجر أحاسيسه ومشاعره فيضاً زاخراً ، فيهيم في أجواء اللانهاية يتغنى بأعذب لحن ، وأحلى نشيد ، قائلا :

« ايه افرام العظيم !

يا شمس السريان وكنارة الروح القدس

يا معلم الكنيسة الجامعـة •

في ذكراك نرفع الهامة مفاخرين بك العالم ، حيث انك رفعت رايتنا عالياً ، وفزت بالقدح المعلى زهداً وتقى ، وحملت مشعل العلم والثقافة ، وتقدمت صفوفنا » •

ويقول أيضاً :

« ايه يا مرشد الشبان واكسـير قوتهم !

أطل علينا اليوم بطلعتك البهية ، فنحن بأمس الحاجة اليك معلماً ومرشـداً •

لقد علمتنا خاصة أن نهيم في حب وطننا ، ونذود عن حياضـه ، ونضحي بالغالي والنفيس في سبيل نصرته » •

وهكذا يخاطب مار افرام ويخلع عليه النعوت الحسنة ، والألقاب التي يستحقها ، معلم الكنيسة الجامعة ، واضع أصول الطقس الكنسي ، مفجر طاقات الأدب السرياني ، مربي الشبيبة ، والمثال الأعلى للانسان النبيل ، والأنموذج السامي للوطنية الصادقة •

★ ★ ★

يأخذ المؤلف من ثم في استعراض سيرة مار افرام في ثمانية عشـر فصلا • وقد أجاد كل الاجادة في الفصل الأول حيث يدور الكلام عن اللغة السريانية والفكر السرياني من جهة ، وعن العالم الشـرقي والكنيسـة السريانية في القرن الرابع من جهة أخرى • وهي دراسة دقيقة موجزة سلط عليها أضواء العلم والمنطق ومما قاله (تاريخ الفكر السرياني يبدأ مع الزمن •••• وهو جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة البشريـة لأن رجالاته خدموا العالم وحملوا مشعل الثقافة وسلموه الى اخوانهم العرب• فنقله هؤلاء بدورهم الى أوروبا عن طريق الأندلس) •

ويتناول الفصل الثاني المصادر القديمة لسيرة مار أفـرام ، ولدى قراءته يتضح للقارىء اللبيب أن المؤلف سلـك طريقاً علمياً صرفاً في البحث والتحري عن الحقيقة التاريخية •

ويتحدث المؤلف في الفصول التالية عن ولادة مار افرام ، ونشأته ، وهجره العالم ، وتلمذته لمار يعقوب اسقف نصيبين وجهاده في ادارة مدرستها ، وعندما يتحدث عن رهبته مار أفرام ، يورد نص القصيدة الخماسية الوزن منقولة الى العربية الفصحى ، فيها يخاطب مار افرام نفسه التي روضها على شظف أعمال التقشف القاسية وأودعها فلسفته الرهبانية ، والتي بدؤها : كم من مرة جعت ، وكان جسدي بحاجة الى الطعام ٠

ثم ينتقل الى سرد حياة مار افرام في الرها وفي مدرستها ، ويشير الى التيارات الفكرية الدينية الخطرة التي ظهرت في المسيحية في القرون الأربعة الأولى ، ويشخص موقف مار افرام ازاءها ، ومنها يظهر واضحاً جداً أن مار افرام كان حامي العقيدة الأرثوذكسية ٠

ثم يروي لنا زيارته لمصر ولقاءاته بمشاهير النساك وخاصة الانبا بشواي ، ثم زيارته لمار باسيليوس اسقف قيصرية قبدوقية أحد رجالات الكنيسة العظام ٠

★ ★ ★

ومن طرائف ما جاء في سيرة مار أفرام أن المؤلف جعل منه أول مؤلف جوقة من الفتيات السريانيات ، ذكر ذلك في حديثه عن نشوء الطقوس البيعية وبخاصة السريانية التي حوت زخماً هائلا من أناشيده ومداريشه وقصائده ٠ يقول المؤلف في سياق حديثه (لا شك في أن مار افرامبتأليفه جوقة المرتلات من الفتيات رفع من مقام المرأة وبرهن عملياً على أن أمر الرسول بولس في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس ١٤ : ٣٤ حيث يقول: « لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن» قد برهن على أن هذا الأمر كان تنظيماً موقتاً ليس الا ، وان هذه الصيغة من الطلب تخص اللواتي دأبن على اللغو والهرف بما لا يجدي في الوقتالذي يكون الجميع أمام العزة الالهية مصلين قانتين خاشعين ٠ وان المرأة كالرجل لها الحق في تسبيح الله في الصلاة الجمهورية ، فالرسول ساوى بينهما في نفس رسالته ص ١١ : ١١ حيث يقول « غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب ») ٠

ثم يطرح المؤلف العلامة موقفاً آخر لمار افرام هو من أنبل مواقفه الانسانية والمسيحية ، بل قلب رسالته الانجيلية ذلك هو عنايته بالفقراء

والمرضى فيقول (رأينا مار افرام يطوف دور الأغنياء في الرها ويحثهم على أعمال الرحمة ويجمع منهم الصدقات ويوزعها على الفقراء . وأسس دوراً جمع فيها ثلاثماية سرير وقيل بل ألف وثلاثمائة سرير صارت ملجأ للعجزة وكان يشرف بنفسه على الاعتناء بهم ، وعلى أثر الجوع الذي عم الرها في شتاء سنة ٣٧٢ ـ ٣٧٣ انتشر وباء الطاعون فانبرى مار افرام في تطبيب المرضى ومواساتهم حتى أصيب بدوره بداء الطاعون) .

ويلي ذلك خبر نهاية حياة مار افرام بالتفصيل ، ووصيته الأخيرة التي تعد صفحة من الأدب الديني الرفيع ، ثم يشخص مكانته اللائقة به على الساحة المسيحية . ويختم بحثه النفيس بتجسيد مكانته العلمية من خلال سرد مؤلفاته النثرية والمنظومة ، ويورد بعض المقطوعات من الضربين .

بقي أن نقول أن قداسة سيدنا البطريرك أحرز قصب السبق على جميع من كتب عن مار افرام .

* * *

عبـــر في ســـير

بقلم : الأب الربان افرام بولس
نيافة مار أثناسيوس أفرام برصوم حاليا

أحب شيء الى النفس المؤمنة اعتلاء قمم الايمان ، وتسور شرفات التقوى ، ونزهة في رياض البر ومروج الصلاح واللهج بحياة القديسين، وأخبار الأبرار · ففي ذلك كله متعة للقلب والعقل والروح · وأحب من ذلك استمداد العبرة وسكب الايمان والتقوى والصلاح ـ حيـــاة القديسين ـ بقوالب حياتنـــا ، كي تصبـــح حياتهـــم جـــزءاً من حياتنـــا ، وحياتنا جزءاً من حياتهم وهذا معنى « خلودهم » يحيون في داخلنا ،وتخلد أعمالهم في سلوكنا والا فنكون قد غمطنا حق خلودهم ·

لقد أصيب مجتمعنا الحاضر بالتخلف الروحي ، واستسلم لمقدرات المادة دون قيد أو شرط فأخذ يستمرىء الشر ، ويستعذب مرارة الرذيلة، ويستنكف من حلاوة الروح حتى ابتعد عن الله وانحرف عن سبب وجوده فأصبح العالم من ثم شريراً بسلوكـــه وفكره وحياتـــه ، وراح يعاني بسبب ذلك كل لون من ألوان المرارة ، الأمر الذي أدى بـــه الى الانهيار والتردي وبات يتوقع له « مصير سيء » ما دام على هذه الحالة المؤلمة ·

بالرغم من ذلك كله ففي داخل الانسان رغبة ملحة ، نحو « العودة» الى جماله البكر ، ومحاسنه الطبيعية ، الى البر والمثل العليا · لذلك فهو بحاجة ماسة الى من يتزعم قيادته ، ويتولى مسؤولية أداء هذه المهمة ، وتذليل ما تعترضه من مشقات وصعوبات ، وعثرات ·

ولعل « العبرة في السيرة » قد تكون الوسيلة الكبرى لتذليل العقبات، والدواء الناجع للمرض العضال ، والقيادة الحكيمة لتولي هذه المهمة · ذلك أن السيرة تلعب دوراً حاسماً في حياة الانسان ، فتجدد كيانه ،وتصبح نقطة تحول وانطلاق الى حياة فضلى · وقد نهج السيد المسيح في تهذيب الأخلاق ورسم شريعة العهد الجديد ، نهج استمداد العبر من السير أو من مثـَل أو من قصة ·

أجل العبرة في سيرة ، ولكن سير من ؟ سير القديسين والأبرار وأهل الورع والتقوى • ذلك أن حياة هؤلاء تختلف عن حياة غيرهم من رجالات العلم والفكر والبطولات • حياة القديس تمثل حياة المسيح كقول الرسول بولس « مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ » (غل ٢ : ٢٠) وتحمل كل صور الخير الواضحة فهي والحالة هذه عبرة « للجميع » ،ولكل « عصر » بينما سِيَر الغير عِبر « للبعض » و « لزمان معين » ومهما امتد تأثيرها لا بد من أن تتوقف •

أجل ، ان رجالات الفكر والعلم والبطولة تمكنوا من الهاب ثورات اجتماعية وتغيير مجرى التاريخ، وقلب أوضاع الحياة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحدثوا أي انقلاب في « قلب الانسان » • أما القديسون فلم يلهبوا ثورة اجتماعية ولم يحدثوا تغييراً فكرياً ولم يبتكروا نظرية علمية ، ولكنهم شقوا طرقاً نحو الفضيلة والخير نحو الله بالذات •

فتكون اذن الكتب التي تحمل هذا الطابع ، وتصطبغ بهذه الصبغة ، والتي تنضج بالعبرة ، هو الكتاب الصالح لمعالجة المجتمع المنهار روحياً وخلقياً • لذلك لا تقاس قيمة الكتاب بالنظر الى لغته أو حجمه أو عدد صفحاته ، بل « بالأثر » الذي يتركه في النفوس بواسطة العبرة المستمدة منه والفائدة والتوجيه ، الأمور التي هي شروط أساسية في مهمة الكاتب، ومن انحرف عن ذلك خرج عن « رسالة الكتابة الشريفة » •

والكتاب « عِبر في سِيَر » لجامعه الأخ العزيز الأب أفرام بولس المعتمد البطريركي في الهند ، جاء يتقطر تقوى وحلاوة ويفيض بكل صفات الكتابة الشريفة • وهذا عنوان الكتاب يكفي لأن يكون كل الدليل على ما نحن بصدده •

لقد توفق حضرة الأب كل التوفيق في اطلاق هذا العنوان على كتابه النفيس • واختيار العناوين ووضع الأسماء للمؤلفات من أهم قوام الموضوع ، وقد قيل (الكتاب يعرف من عنوانه) •

يقع هذا الكتاب في ٢٥٤ صفحة من القطع الكبير ، يستعرض فيه سيرة (٣٣) قديساً وهي جولة تاريخية روحية توجيهية تبدأ من فجر المسيحية ومن مدينة طرسوس مركز اشعاع الثقافة اليونانية ، ومسقط رأس القديس بولس الرسول • ثم يتنقل من محل لآخر ، فيتجول تارة ما بين أمهات المدن العالمية كانطاكية وروما والاسكندرية والقسطنطينية ، ويتسلق طوراً صخور الجبال حيث صوامع النساك والمتزهدين ، ويضرب مرة في البيداء حيث الرهبان والمتوحدين ويقف أحياناً على ضفاف الأنهار

ويتفيأ تحت ظلال الأشجار حيث مجتمع أهل العلم والورع · وفي النهاية يلقي عصا الترحال عند ضريح مار قورلس دنحا الحبابي ١٨٧١ + الكائن في دير القديس مار متى الشهير مثوى الأبرار والصالحين ·

يستعرض السيرة بأسلوب قصصي سهل ممتع ، وفي طريقة مستساغة مشوقة ، يبسط أولا تاريخ حياة القديس التقليدية ، ثم يشير الى جوانب القداسة فيها ، ويشخص نقاط البطولة الروحية والجهاد المسيحي ،فتقرأ ذلك كله في غمرة من البهجة والشوق ، وفي لذة روحية عذبة · وتشعرانك لم تخلق لتأكل وتشرب بل لتعمل البر وتنال الحياة الأبدية ، وهناتكمن « العبرة » التي هي النقطة المركزية للكتاب ، والمحور الأساسي لأهدافه الجوهرية ·

ونقدر أن نلخص ميزاته بما يلي :

١ ـ انه كتاب جامع لشخصيات روحية شرقية وغربية ، متفاوتة في المرتبة الدينية فيها البطريرك والمفريان والمطران والأسقف والراهب والشماس والناسك ، كما تجمع ما بين الجنسين قديسين وقديسات · شهداء ، وأتقياء فضلاء ، وعلماء ، ومجاهدين ، وأهل العزم والحزم ·

٢ ـ جاء فيه انتقاء الأشخاص موفقاً ، فقد اختار من شخصيات الكتاب المقدس القديس بولس الرسول الذي فاق جميع الرسل جهاداً وانتاجاً ، وانتقى من القديسين الذين عاشوا قبل الانشقاق مار اغناطيوس النوراني الانطاكي الذي يعد من أشهر الرجال الرسوليين ، وابدع وأحسن باصطفائه القديسين مار سويريوس البطريرك الأنطاكي ، ومار يعقوب البرادعي ، والأرشمي والمنبجي كنماذج عليا للنضال في سبيل المعتقد الأرثوذكسي الصحيح والمحاماة عن جوهرة الايمان المسيحي المسلم مرة واحدة للقديسين ·

٣ ـ ظهر أن سيل التقى والقداسة لم ينقطع منذ فجر المسيحية وحتى القرن المتأخر ·

ونحن كنا بحاجة الى مثل هذا النوع من الكتب كحاجتنا الى غيره من الكتب ذات الطابع الروحي البناء ، وحسبنا فعل الأب افرام فهو بعمله هذا أخلص لكنيسته وثوبه ورسالته ، ولا شك في أن كتابه هذا سينقع غلة في نفوس المؤمنين ·

فله من القارئين أعطر التهاني وأطيب التحيات والتمنيات للموفقية في عالم العلم والفضيلة ·

كتـــاب

تاريـــخ أبرشـــية الموصـــل السريانيـــة

تأليف : المطران صليبا شمعون

أبناء الكنيسة السريانية في كل مكان ، وبخاصة طبقة الشبـاب المثقف حيثما وجد، يكثرون من التساؤل عن تاريخنا الديني والحضاري وفي أعماقهم أشواق ملحة ، وفي نفوسهم نهم شديـد ، وفي أحاسيسهم حماس يذكي ، ليقفوا على أحداث ماضيهم ، ويطّـلعوا على جهادآبائهم وأجدادهم ، سيما معرفة دور كنيستهم على الساحة المسيحية والانسانية دينياً وحضارياً ·

من المعلوم والثابت أن ثقافتنا السريانية في مختلف فروعهاسجلت باللغة السريانية الآرامية وباللهجة الرهاوية · وان علم التاريخيتصدر فروع الثقافة السريانية أهمية ومكانة · ونلقى في تراثنا تواريخ دينيـة وكنسية ومدنية نفيسة تميزت بالتمحيص والدقة والأمانة : قال العلامة شابو « أجمع علماء المشرقيات أن التواريخ السريانية أوسع التواريخ المسيحية في العصور القـدمى والوسطى ولا تقـل عن زهـاء سبعة عشـر مجلداً »(١) ومن أبرز هؤلاء المؤرخين زكريا الفصيح في القرن السادس· ويوحنا الآمدي مطران افسس ٥٨٧ + والراهب المجهول الاسم مـن رهبان دير زوقنين ٧٧٥ + والبطريرك ديونيسيوس التلمحري ٨٤٥ + والرهاوي المجهول في القرن الثاني عشر · وشيـخ مؤرخي السريان وامامهم الأكبر البطريرك مـار ميخائيل الكبـير ١١٩٩ + والعلامـة ابن العبري ١٢٨٦ + ·

والمتتبع لهذا التاريخ يجد أن الكثرة الكاثرة من مؤرخي السريان اعتادوا أن يكتبوا التاريخ الكنسي على أنه تاريخ حياة الأكليروس من بطاركة ومطارنة وأساقفة وما دار في أجواء الكنيسة من أحداث ايجابية وسلبية وكأن التاريخ مقصور على ذلك فقط ، ولم يعيروا أهمية كافية

---

١ ـ الأدب السرياني ص ١٥٩ ·

للبحث في الفن والاعمار والنواحي الاجتماعية الفولكلورية الأمر الذي يجعل من هذا التاريخ ناقصاً . وبعد القرن الثالث عشر وحتى الحرب العالمية الأولى لا نمتلك سجلا كافياً أو وثائق تاريخية معتمدة تنطق بمجريات أحداث الكنيسة والأبرشيات وحياة رجالات الأكليروس أسوة بالقرون السابقة والفترات الماضية وذلك بسبب الحروب والمآسي الاجتماعية ، لذلك جاء تاريخنا مبتوراً .

ان تسجيل ثقافتنا باللغة السريانية ومن جملتها التاريخ ، جعلت كل ذلك في عزلة تامة ، ذلك ان أبناء الكنيسة على العموم يجهلون معرفة هذه اللغة المقدسة لذلك بات أمراً محققاً أن يبقى تاريخهم بعيداً عن مداركهم وفهمهم . كما نلقى ظاهرة أخرى هامة وهي جهل الباحثين الغربيين المطبق بتاريخنا الصحيح نتيجة لذلك أيضاً . والخطورة تبدو على أشد ما يكون بظهور فئة حاقدة في الشرق وفي الغرب شوهت حقائق هذا التاريخ متعمدة . ومارست كل أنواع التضليل لنزع حق الكنيسة تاريخياً وعقدياً وحضارياً . وبالتالي غايتهم النيل من كرامتها واخراجها عن اطارها الصحيح .

وقد تفقد الله كنيسته المقدسة دعماً للحق وازهاقاً للباطل، فظهرت نخبة من الرجال منذ أواخر القرن التاسع عشر حباهم الله علماً غزيراً واطلاعاً واسعاً وايماناً راسخاً فأحسوا بأن المسؤولية التاريخية والدينية تهيب بأقلامهم لتنبري لنقل هذا التراث النفيس من السريانية الى لغات أخرى سيما العربية ، وتناوله بالدرس والتحقيق ازالة للغبش الذي حجب كثيراً من الحقائق واعطاء للتاريخ فوزاً بيناً ونصراً مؤزراً .

وكان أول من رفع لواء هذه الحركة الأدبية ، وأحرز قصب السبق في هذا المضمار ، ونال الفوز على الجميع هو المثلث الرحمات البطريرك أفرام الأول برصوم ١٩٥٧ + الذي وضع مخططاً شاملا لتاريخنا ، ورسم خطوطه العريضة ، وأتحفنا بمنتوج زخم هائل ، فصارت كتاباته مرجعاً للباحثين ومصدراً ثراً لمن يبغي في أن يكتب في هذه المواضيع . ثم برزت في القرن العشرين كوكبة أخرى من حملة الأقلام الرفيعة وفي مقدمتهم البطريرك يعقوب الثالث ١٩٨٠ + الذي جاء بمعلومات تاريخية مفيدة ، وأثار قضايا هامة عديدة ، وترك منتوجاً تاريخياً ضخماً . ومن الذين يشار اليهم بالبنان أيضاً الأرخدياقون نعمة الله دنو ١٩٥١ + والمطران غريغوريوس بولس بهنام ١٩٦٩ + والمطران فيلكسينوس يوحنا دولباني ١٩٦٩ + .

واليوم ، وبقيادة قداسة سيدنا البطريرك المعظم مار اغناطيوس زكا الأول الجالس سعيداً ، العالم الكبير ، ورمز الثقافة السريانية ورائدها، نجد ذوي الخبرة والكفاءة ، يتحفون المكتبة السريانية بمؤلفاتهم ونتاجهم وفي طليعتهم نيافة الأخ مار غريغوريوس صليبا شمعون مطران الموصل وتوابعها الذي طلع علينا في أواخر العام المنصرم بكتابه التاريخي النفيس الموسوم بـ « **تأريخ أبرشية الموصل السريانية** » ٠

★ ★ ★

من أحاسيس المؤلف الفاضل في انتخاب هذا الموضوع : **أولا** وقبل كل شيء انه مطران أبرشية الموصل بالذات ٠ وجميل جداً أن يتولى مطران الأبرشية وضع تاريخ أبرشيته ذلك انه جزء من هذا التاريخ ، وصفحة من صفحاته ٠ والقارىء لهذا الكتاب يحس في محبة المؤلف لأبرشيته واعتزازه بها ٠ فأحب أن يبر بها ويجعل لها تاريخاً شاملا في كتاب خاص ، ويسدي اليها خدمة أدبية تضاف الى خدماتهالرعائية والادارية والعمرانية٠ حدثني المؤلف انه يوم تعيَّن مطراناً لأبرشية الموصل قال له أحد المؤمنين الغيارى من أبناء الأبرشية : « يجب أن تعرف لقد سبقك على كرسي الأبرشية مطرانان عظيمان تميزا بحسن الادارة والعلم الغزير وهما الملفان غريغوريوس بولس بهنام ١٩٦٩ + وسويريوس زكا عيواص (قداسة سيدنا البطريرك الجالس سعيداً) والشعب يريدك على هذا المستوى » وفعلا أن المؤلف أثبت بالفعل وبفضل نشاطه وجهوده وعلمه انه امتداد لهما ٠ **ثانياً** ــ باعتبار أبرشية الموصل من أمهات الأبرشيات السريانية اللائذة بالكرسي الأنطاكي ، ولقبها في التاريخ الكنسي « عروسة كنيسة المشرق » و « مدينة الله » وبهذا استهل المؤلف مقدمة كتابه اذ يقول : « تعتبر أبرشية الموصل من أعرقالأبرشيات السريانية وأكثرها تأثيراً في مسيرة كنيسة المشرق لذلك بات من الضرورة القصوى أن يكون لها تاريخ مستقل يتفق ومكانتها التاريخية ٠ فالمؤلف يضيف الى سلسلة تاريخ الكنيسة السريانية حلقة جديدة جمع فيها أخبار هذه الأبرشية منذ نشأتها وحتى اليوم ، وسيكون هذا الموضوع من أجل الموضوعات المفيدة في تاريخنا العام ٠

ثالثاً ــ اسهاماً منه في حركة النشر والتأليف التي يقودها قداسة البطريرك زكا الكلي الطوبى ٠ ونيافة المؤلف في كتابه هذا يضيف بحثاً طريفاً الى أبحاثه السابقة(٢) ٠

---

٢ ــ انظر كتاب السريان ايمان وحضارة مج ٤ ص ٣١٨ للمطران اسحق ساكا ٠ وكتاب تاريخ أبرشية الموصل السريانية ص ٢١١ ٠

ومما يثبت أن لا مأرب له سوى خدمة الأبرشية والكنيسة والعلم فقد رصد ريعه لمشروع بناء كاتدرائية مار أفرام بالموصل ·

كتاب **(تاريخ أبرشية الموصل السريانية)** تأليف صليبا شمعون مطران الموصل وتوابعها للسريان الأرثوذكس ، صدر مطبوعاً في مطبعة شفيق ـ بغداد عام ١٩٨٤ يقع في ٢٥٤ صفحة بالحجم الوسط ·

يضع المؤلف مخططاً شاملا لتاريخ هذه الأبرشية منذ فجر المسيحية وحتى يومنا هذا · ولكي نستوعب محتويات هذا الكتاب نوزع أحداثه على المقدمة والفترات التاريخية التالية :

المقدمة : يشيد بمكانة الأبرشية التي تحتلها على الساحة السريانية سيما في كنيسة المشرق · ثم يشكو من قلة المصادر التاريخية الأمر الذي يحول دون تكوين سلسلة تاريخية مترابطة الحلقات لهذه الأبرشية سيما في العصور الأولى والوسطى · ثم ينتقل الى الاشادة بالمؤرخ الكبير البطريرك أفرام برصوم ١٩٥٧ + الذي تمكن بجده ونشاطه وواسع اطلاعه ورسوخ قدمه في علم التاريخ على جمع وتدوين أخبار الكنيسة وأحداثها سيما في الفترة التي تلي القرن الخامس عشر ، من شتات الكتب المبعثرة في المكتبات العالمية شرقاً وغرباً · ولم ينس أن يتوجه باللائمة لبعض المغرضين الذين شوهوا الحقائق حقداً وتعمداً وسيراً مع الهوى · وفي ختام هذه المقدمة يشير الى الغاية التي من أجلها وضع هذا الكتاب بقوله : « ليأتي هذا الكتاب على مستوى طموح أبناء الأبرشية الذين كنا نلمس لديهم الرغبة الملحة في الاطلاع على تاريخ أبرشيتهم والتي جاءت على شكل تساؤلات يطرحونها في كل مناسبة » ·

وهكذا وبواسطة هذه المقدمة تمكن أن يعطي فكرة عامة عن كتاب تاريخ هذه الأبرشية ·

الفترة الأولى : تناول في الصفحات ٥ ـ ١٥ القاء أضواء على كنيسة المشرق في أول نشأتها · فتحدث عن انتشار المسيحية في تلك البلاد ، وتنظيم الأبرشيات ، والانشقاق الذي دب في جسم كنيسة المشرق · ثم تطرق الى نشوء الجثلقة ، كل هذه الأحداث والوقائع اتخذها قاعدة لينطلق منها الى تأسيس الأبرشية في الموصل · وأنت تلاحظ أن هذه الفترة هي فترة تنقل من اليهودية والوثنية الى المسيحية ، وهي في الوقت نفسه تكوين الكنيسة الأولى في المشرق · والحديث عن هذه الأمور والتوغل فيها لا يخلو من مجازفة لعدم توفر المراجع ، وندرة المصادر ، وما تنطوي عليه هذه الفترة

من تعقيد · لذلك لا يستطيع الباحث أن يأتي بمادة غزيرة أو كافية في هذه الفترة ·

الفترة الثانية : وهي فترة تأسيس أبرشية الموصل ، وتمتد من أوائل القرن السابع حتى القرن الثاني عشر ·

في عهد البطريرك الأنطاكي مار أثناسيوس الجمال ٥٩٥ ـ ٦٣١ يبرز في تاريخ الكنيسة السريانية حدث خطير جداً ، يتصدر الأحداث الهامة في القرون الوسطى ، ذلك هو تجديد اتحاد كنيسة المشرق بالكرسي الرسولي ، وهي فترة تنقل هذه الكنيسة من حالة الى أخرى ، من ضعف الى قوة ، ومن وهن الى انتعاش ، ومن فوضى واضطراب الى نظام وتنسيق · ونتيجة لتجديد هذا الاتحاد قلد البطريرك أثناسيوس الأنطاكي مار خرسطوفورس مطرانية ولاية آثور أثناء تواجده في أنطاكية ، ولدى عودته الى المشرق كان مار خرسطوفورس يلقب نفسه « متروبوليت دير مار متى المقدس ، ونينوى، والموصل(٣) مدينة الله ، وبلاد آثور » ومن هنا ينطلق المؤلف ليشير الى نشوء أبرشية الموصل بشكل واضح فيقول : « لم تكن أبرشية الموصل في الماضي أبرشية قائمة بذاتها بل كانت منذ تأسيسها جزءاً من أبرشية مترامية الأطراف باسم أبرشية دير مار متى ونينوى وآثور »(٣) ص ١٦٩ ومركزها دير مار متى حيث يقيم مطرانها ص ١٦٩ ثم يستطرد المؤلف قوله « وسارت شؤون الموصل الأسقفية على هذا المنوال حتى اتخاذها مقراً لمفريانية المشرق في أواسط القرن الثاني عشر لم يغير شيئاً من وضعها حيث كان فيها من ينوب عن المطران بالرغم من وجود المفريان ، لأن المفريان كان رئيساً عاماً على كنيسة المشرق » ص ١٦٩(٤) · وظلت الموصل جزءاً من أبرشية الدير حتى القرن الثامن عشر ·

---

٣ ـ يقول المؤلف « وقد حلت فيما بعد كلمة الموصل محل آتور ص ١٦٩ ويعني بذلك أن كلمتى آتور والموصل أضحتا لفظتين مترادفتين . فاذا قيل الموصل فكأنه قيل آتور وبالعكس · وفعلا نجد بعض الأحبار والعلماء الموصليين ينعتون أنفسهم أحيانا ب « الاثوري » أي الموصلي · ومما تهم معرفته أن لا علاقة ما بين الآثوري الموصلي والآثوري الذي ينسب الى الآثورية · فالآثوري الموصلي يعني أنه من مدينة الموصل ليس الا · والآثوري الذي ينتمي الى الآثورية له تطلعات واسعة لا تمت الى الكنيسة بصلة ·

٤ ـ يبدو أن تغييرا ما طرأ على وضع الأبرشية في القرن التاسع · ففي سنة ٨٦٣ رسم العلامة مار سويريوس بن كيفا ٩٠٣+ مطرانا لأبرشية بارمان وبيت كيونا . ثم ضمت اليه الموصل وعرف بمطران الموصل أيضا · وفي فترة شغور كرسي مفريانية المشرق ناب عن المفريان نحو عشر سنوات ·

وهذه الفترة أيضاً مثل الفترة السابقة فيها الغموض الكثير ، كما لا تجد وثائق تاريخية كافية تسعفنا للتوصل الى معرفة الأمور بشكل يرتاح اليه · في حين اننا نجد خلال هذه الفترة بالذات نشاطاً كنسياً وعلمياً ملحوظاً ، بدليل ظهور شخصيتين علميتين كبيرتين هما سويريوس موسى بن كيفا ٩٠٣ + مطران الموصل ، والربَّان أنطون التكريتي الفصيح في القرن التاسع كما نجد بعض الأديرة مباءات علمية شهيرة كدير مار جرجس المعروف بالمعلق بالقرب من بلد (اسكي موصل) ·

الفترة الثالثة : من القرن الثاني عشر وحتى أواخر القرن السابع عشر · وتتبعها الغاء المفريانية من كنيسة المشرق · يتناول المؤلف من صفحات ١٨ ــ ٢٠ الحديث عن « الموصل مقر مفريانية المشرق » في القرن الثاني عشر ثم يتطرق الى ذكر توحيد ولايتي تكريت ونينوى والغاء جميع الامتيازات التي كان يتمتع بها مطارنة أبرشية الدير(٥) ، ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن النكبات التي حلت بالموصل في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر على أيدي المغول ، وتيمور لنك ، والفرس البغاة ، الذينخربوا وأتلفوا ونهبوا وسلبوا وقضوا على خلق كثير. من ص ٢١ــ٢٥ · ثم يشير في الوقت ذاته الى ظلم الحكام ، والى الكوارث الطبيعية المتنوعة ·

الفترة الرابعة ــ من أواخر القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن العشرين · لدى مطالعة كتاب تاريخ أبرشية الموصل السريانية تبرز أمامنا الأحداث التالية :

---

٥ ــ كان البطريرك الأنطاكي مار أثناسيوس الجمال ٦٣١ + قد منح لكرسي دير مار متى امتيازات رفيعة وبموجب ذلك صار مطران الدير رئيس أساقفة ومطرانا على جميع أساقفة ولاية آثور · وفي مجمع دير مار متى الثاني الملتئم عام ٦٢٨ رتب اثني عشر كرسيا أسقفيا في كنيسة المشرق · وأوجب أن تكون ستة منها لمفريان تكريت وأن تبقى ستة لمتروبوليت الدير · كما سن المجمع أربعة وعشرين قانونا تمنح مطران دير مار متى صلاحيات واسعة وترفع من شأن كرسيه ، وهكذا غدا هذا الكرسي سلطة ثانية في كنيسة المشرق بالنسبة الى كرسي تكريت · على ان هذه الأبرشية لم تتمتع طويلا بتلك الامتيازات اذ نازع مطرانها مفارنة المشرق منذ البدء · وان البطريرك مار يوليان الثاني ٦٨٦ ــ ٧٠٨ حرج على أبرشية الدير رسامة مطران مخصصا مطرانا واحدا فقط لتكريت · وفي عام ٨٦٩ عقد البطريرك يوحنا الثالث مجمعا في كفرتوثا حتم على أساقفة دير مار متى ورهبانه أن يخضعوا للمفريان صاغرين · وفي عام ١١٥٢ أخذ المفريان أغناطيوس لعازر يخطط لضم ولاية الدير الى ولاية تكريت والغاء جميع الامتيازات الخاصة بالدير فتم له ذلك فعلا وأقر عمله مجمع دير مار برصوم سنة ١١٥٥ وأكد ذلك البطريرك مار ميخائيل الكبير ١١٩٩ + ·

آ ـ بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر أضحت أبرشية الموصل قائمة بذاتها في حين انها كانت قبل هذا التاريخ جزءاً من أبرشية دير مار متى كما سبق · وهذا ما يوضحه المؤلف لدى قوله « نلاحظ بعد هذا التاريخ تمييزاً بين هاتين الأبرشيتين · فنقرأ مثلا عن بعض المطارنة انهم أقيموا على أبرشيتي الموصل ودير مار متى ، وليس على أبرشية واحدة ص ١٦٩ · ثم أضحت أبرشية مستقلة لها مطرانها الخاص هو غير مطران دير مار متى حيث تبتدىء سلسلة مستقلة لمطارنتها بدؤها أواخر القرن الثامن عشر وحتى اليوم · ص ١٧٠ ·

ب ـ في عهد قورلس متى بنى الطويل ١٨٤٦ ـ ١٨٥٨ مطران دير مار متى رأى بعضهم ضم أبرشية دير مار متى الى أبرشية الموصل بسبب تقلصها من جراء ما انتاب البلاد من النوازل والمآسي · بيد أن الكرسي الرسولي رأى ابقاء هذه الأبرشية على حالها حرصاً على ما كان لها من ماض ذي شأن ·

جـ ـ أنجبت هذه الأبرشية في هذه الفترة ستة بطاركة هم : جرجيس الثاني ١٧٠٨ + اسحق الثاني ١٧٢٤ + جرجس الرابع ١٧٨١ + يونان ١٨١٩ + الياس الثاني ١٨٤٧ + بطرس الرابع ١٨٩٤ + (ص ١٢٣ ـ ١٤٦) · وثلاثة مفارنة هم : متى الثاني ١٧٢٧ + باسيليوس لعازر ١٧٥٩ + بهنام الرابع ١٨٥٩ + (ص ١٦٢ ـ ١٦٨) · وثلاثة عشرة مطراناً في أبرشيات مختلفة هم : غريغوريوس عبد الجليل ١٦٧١ + مطران آمد ثم القدس ثم القاصد الرسولي في الهند · رزق‌الله متى النجار ١٧٤٠ + في طورعبدين · طيمثاوس عيسى ١٧٤٣ + مطران دير الزعفران وماردين · أثناسيوس توما البناء مطران القدس المقيم في دير الزعفران · ايوانيس بهنام ١٧٧٦ + مطران دير مار بهنام وقره‌قوش . ايوانيس يوحنا ١٧٩٤ + مطران الهند · غريغوريوس توما ١٧٤٨ + مطران القدس · ديوسقوروس يوحنا ١٨١٨ + القاصد الرسولي في الهند . أوسطاثاوس موسى اللشي ١٨٢٨ + مطران دير مار متى · ايوانيس الياس ١٨٣٢ + رئيس دير مار موسى في النبك · غريغوريوس بهنام ١٨٤٦ + مطران دير الزعفران · قورلس متي رسام ١٨٥٨ + مطران دير مار متى · ديونيسيوس بهنام كيال ١٨٧٨ + رسم مطراناً لأبرشية معدن ثم أقام في دير الزعفران · (ص ٢١٥ ـ ٢٣٨) وثمانية مطارنة جلسوا على كرسي أبرشية الموصل وهم : جمعة جبير ١٦٦٥ + ايوانيس يوحنا الثالث ١٧٤٦ + قورلس رزق‌الله ١٧٧٢ + قورلس عبد العزيز ١٨١٦ + غريغوريوس الياس ١٨١٧ + قورلس جرجس ١٨٦٦ +

ديونيسيوس بهنام سمرجي ١٩١١ + أثناسيوس توما قصير ١٩٥١ + (ص ١٨٥ _ ٢٠٣) ٠

هـ _ في غضون القرن الثامن عشر انفصل قسم كبير من أبناء أبرشية الموصل السريانية وانضموا الى الكنيسة الرومانية معتنقين المذهب اللاتيني غير أنهم حافظوا على طقسهم السرياني ولغتهم السريانية ٠ وقد تمت هذه الحركة الانفصالية على يد الرهبان اللاتين والدومنيكان ، ص ٢٧ _ ٣٠ ٠

الفترة الخامسة : وتشتمل على مرحلتين :

المرحلة الأولى : أبرشية الموصل في القرن العشرين ص ٦٣ _ ١٠٩ ٠

والمرحلة الثانية : أبرشية الموصل في وضعها الراهن ص ١١٣_١١٩ ٠

في المرحلة الأولى يتحدث المؤلف عن النهضة في الأبرشية ثقافياً ، وروحياً ، واجتماعياً ، وعمرانياً ، ويجسد ذلك في تأسيس المدارس وتشكيل الأخويات والأندية ، وقيام دورات دينية ، والتردد الى الكنيسة لسماع الصلوات والقداديس ٠ ويشيد المؤلف بموقف قداسة البطريرك زكا يوم كان مطراناً للأبرشية ، ازاء هذه الحركة ويعزو قيام هذه النهضة لقداسته ، حيث يقول في ص ٦٧ « في عام ١٩٦٣ تسلم مقاليد الأبرشية المطران (البطريرك اليوم) سويريوس زكا وهو الشاب الذي يتدفق حيوية ونشاطاً فوجه عناية استثنائية الى الناحية الروحية التي كانت تفتقر اليها الأبرشية » ٠

ونجد في هذه المرحلة أيضاً : ظهور بعض الشخصيات الكنسية اللامعة في الأبرشية وفي طليعتهم الرجل الفذ البطريرك أفرام الأول برصوم ١٩٥٧ + والأرخدياقون نعمةالله دنو ١٩٥١ + كما ظهر فيها بعض المطارنة منهم قورلس الياس قدسو ١٩٢١ + وطيمثاوس يعقوب موصلية ١٩٦٦ + مطرانا الدير ٠

ويتطرق المؤلف أيضاً الى ذكر بعض العلماء المدنيين أبناء الأبرشية أمثال الأديب الصحفي روفائيل بطي ، والكاتب الدكتور بشير سرسم ، والشاعر الأستاذ يوسف قصير وغيرهم من أهل العلم والفن ٠

ان من يتطرق الى الحديث عن هذه المرحلة لا يمكنه الا وأن يذكر :

أ _ الدكتور عبدالأحد عبد النور الوجيه السرياني الكبير ، واحدى الشخصيات العراقية المرموقة ، الذي له الأيادي البيض في حقل الكنيسة أسوة

بوالده المرحوم عزيز عبد النور · ب ــ تشكيل محكمة كنسية رسمية من عام ١٩٤٧ ــ ١٩٦٣ للنظر في قضايا الأحوال الشخصية · جـ ــ تواجد أكليريكية مار أفرام اللاهوتية من عام ١٩٤٥ ــ ١٩٦٢ وتعتبر فترة تواجدها في الموصل عصرها الذهبي · د ــ ظهور الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام كمطران للأبرشية من ١٩٥٢ ــ ١٩٦٠ ·

وفي المرحلة الثانية : يتحدث المؤلف عن وضع الأبرشية الحالي متناولا النواحي الثقافية والعمرانية والروحية · ويركز بصورة خاصة على الناحية الروحية حيث يقول في ص ١٥١ « تمر الأبرشية بفترة ازدهار وانتعاش روحي » والواقع أن الذي يزور هذه الأبرشية لا يلبث الا أن يقول حقاً « كما سمعنا هكذا رأينا » · وقد شاهدت أنا شخصياً بأم عيني لدى زيارتي لأبرشية الموصل في أواخر عام ١٩٨٤ ووجدت أن النهضة الروحية في الأبرشية تشتعل اشتعالا شديداً ، فاقبال المؤمنين الى الصلاة وسماع القداس شديد جداً · وحضورهم سيما الشباب المثقف الى الندوات الدينية التي تقام مساء كل أحد في كنيسة مار يوسف في الموصل الجديدة ، ومساء كل خميس في كنيسة الطاهرة الخارجية ، فريد من نوعه · واني أود أن أعرب عن شكري الجزيل لنيافة الأخ المطران صليبا الذي أتاح لي الفرص كي ألقي بعض الكلمات الدينية في هذه الندوات الزاهرة ·

ثم يأتي المؤلف الى ذكر الكهنة العاملين في الأبرشية · وان أبرز شيء ممكن أن تعتز به أبرشية الموصل اليوم يتركز في ثلاث نواح هي :

أولا ــ بتواجد قداسة سيدنا البطريرك المعظم مار أغناطيوس زكا الأول عيواص ابن الأبرشية البار ، على السدة الرسولية والذي هو من مفاخر الأحبار الانطاكيين ص ١٥٥ · وهكذا تكون الموصل قد أنجبت ثمانية بطاركة عظام من عام ١٦٨٧ ــ ١٩٨٠ ·

ثانياً ــ تواجد نيافة مار غريغوريوس صليبا مطراناً للأبرشية الذي يتميز بنشاطه ونزاهته وعلمه ·

ثالثاً ــ بتواجد ثلاثة أحبار أجلاء لرعاية بعض الأبرشيات وهم : المطران ديونيسيوس بهنام ججاوي النائب البطريركي لأبرشية القدس والأردن · سويريوس حاوا مطران بغداد والبصرة · طيمثاوس أفرام عبودي مطران السويد والدول الاسكندنافية والمملكة المتحدة. حفظهم الله وهكذا يكون عدد المطارنة الذين أنجبتهم أبرشية الموصل ستة وعشرين مطراناً من عام ١٦٥٤ وحتى اليوم ·

رابعاً ـ بوجود بعض الآباء الخوارنة والقسس وهم : الخوري برصوم يوسف في حلب • الخوري توما عزيز في بغداد • القس يعقوب عبد في السويد • القس نعمة الله دباغ في بغداد • والقس بطرس نعمان عبادة في السويد •

★ ★ ★

ومن الأمور المفيدة التي جاءت في هذا الكتاب بحوث في أصل السريان في الموصل ص ٣١ ـ ٣٣ • تكارتة الموصل ص ٣٤ ـ ٤١ • **كنائس الأبرشية** القديمة والحديثة مشفوعة بمخططات • مكتبة الأبرشية من ص ٨٤ـ٩٠ والتي تحتوي على مخطوطات سريانية عديدة منها مخطوطة لكتاب المنحول ديونيسيوس الاريوفاغي نسخ عام ٧٦٦ على الرق بخط اسطرنجيلي بديع •

★ ★ ★

ونختتم كلامنا باعرابنا عن شكرنا الجزيل للمؤلف لما بذل من جهد في اعداد هذا الكتاب النفيس ، والذي يتميز بأمور عديدة أهمها أمران :

أولا ـ ان هذا الكتاب لاحتوائه تاريخ أبرشية الموصل بشكل شامل وتفصيلي منذ فجر المسيحية وحتى اليوم ، فهو ذو قيمة وشأن • ذلك اننا لا نعرف مؤرخاً ولا كاتباً تناول هذا الموضوع بقدر ما عنى به الأخ المطران صليبا •

ولعل هذا هو أبرز مظاهر التوفيق الذي ظفر به المؤلف •

ثانياً ـ يمتاز البحث بالسهولة والبساطة والوضوح ، ويقول المثل الافرنسي « **البساطة هي الجمال** » •

نحث أبناء الكنيسة لمطالعة هذا الكتاب القيم •

★ ★ ★

تصحيح الأخطاء
الواردة في كتاب « دراسات سريانية »

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
متقدمة	متقنة	٢٥	حاشية(٣)
الثالوغوس	الثاولوغوس	٣١	٢٠
يهلّلهون	يهلّلون	٣٥	٢٧
فالفروس	فالفردوس	٥٦	٢٨
ينضج	ينضح	٦٦	٢٠
لمستشرقين	المستشرقين	٧٦	١٤
٦٠ ـ ٢٢	٦ ـ ٢٢	٨٠	حاشية(١)
لهم ميمر	لهم	١٣٠	٢٥
الرسومات	الرسامات	١٣٥	٦
عزيزاً	عزيز	١٧١	١٤
رهبته	رهبنته	١٨٤	٣
تنضج	تنضح	١٨٧	١٤
انلأطاكيين	الانطاكيين	١٩٧	٢٢

مطابع الف باء - الأديب
دمشق

ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ ܕܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
Syriac Studies: Single-Author Collections
Beth Mardutho Library

دراسات سريانية

مَقالات

دينيّة - أدبيّة - كنسيّة

ܡܐܡܪ̈ܐ ܣܘܪ̈ܝܝܐ

بقلم:

المطران اسحق ساكا

المعاون البطريركي للسريان الأرثوذكس

دمشق - ١٩٨٦